

كتاب المؤتمر الدولي :

العمران والقرآن

دراسة في

مقومات البناء

وعوامل الأفلول



9-10 فبراير / شباط 2022

إسطنبول - جمهورية تركيا

إشراف وتنسيق

د. مصطفى بن أحمد الحكيم

د. خالد صلاح حنفي محمود

منشورات مؤسسة منارات الفكر الدولية



مؤسسة منارات الفكر الدولية
The International Foundation
of Beacons of Intellect

الرقم الدولي المعياري: 8-3-9163760-1-978

© 2022 حقوق النشر محفوظة

كتاب المؤتمر الدولي: العمران والقرآن
دراسة في مقومات البناء وعوامل الأفول
فبراير/10 فبراير 2022



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب المؤتمر الدولي: العمران والقرآن
دراسة في مقومات البناء وعوامل الأفول

9 – 10 فبراير 2022

مدينة إسطنبول – تركيا

إشراف وتنسيق:

د. مصطفى بن أحمد الحكيم

د. خالد صلاح حنفي محمود

الرقم الدولي المعياري

978-1-9163760-3-8



مؤسسة منارات الفكر الدولية
The International Foundation
of Beacons of Intellect



مؤسسة منارات الفكر الدولية
The International Foundation
of Beacons of Intellect

منشورات مؤسسة منارات الفكر الدولية

■ بيانات الفهرسة:

كتاب المؤتمر الدولي: العمران والقرآن: دراسة في مقومات البناء وعوامل الأفول

إشراف وتنسيق: د. مصطفى بن أحمد الحكيم د. خالد صلاح حنفي محمود

الطبعة الأولى: أغسطس 2022 – مؤسسة منارات الفكر الدولية

الرقم الدولي المعياري (ردمك): 978-1-9163760-3-8

ملحوظة: جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة منارات الفكر الدولية، ويمنع نسخ أو إنتاج المواد الواردة في الكتاب كله أو بعضه بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو أية وسيلة أخرى من وسائل النشر إلا بموجب إذن كتابي من المؤسسة. وتبقى الأفكار والآراء المعبر عنها في الكتاب وجهة نظر لأصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن سياسة المؤسسة.

الموقع الرسمي للمؤسسة: [https:// manaratelfikr.org](https://manaratelfikr.org)

البريد الإلكتروني: info@manaratelfikr.org

international conference Book
Construction and the Quran: A study of Basics of
Construction and Destruction Factors

Istanbul, Turkey

9-10 February, 2022

Proceedings Book

Edited by:

Dr. Mostafa Ahmed Al-ahkim

Dr. Khaled Salah Hanafy Mahmoud

Published by

The International Foundation of Beacons of Intellect

ISBN: 978-1-9163760-3-8

Printed in: U.K.

Copyright©2022



مؤسسة منارات الفكر الدولية
The International Foundation
of Beacons of Intellect

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا



الفهرس

| | |
|-----|--|
| 8 | كلمة الدكتور مصطفى بن أحمد الحكيم (رئيس المؤتمر) |
| 10 | كلمة الدكتور خالد صلاح حنفي (المشرف العام على المؤتمر) |
| 13 | ورقة تعريفية بالجهات المنظمة |
| 15 | أرضية المؤتمر (الإشكالية - الأهداف - المحاور) |
| 18 | أعضاء اللجنة العليا للمؤتمر |
| 19 | أعضاء اللجنة العلمية |
| | عنوان الورقة العلمية |
| | الباحث |
| 21 | أ.د. فاطمة بوسلامة أستاذة التفسير وعلوم القرآن بمؤسسة دار الحديث الحسنية/جامعة القرويين المغرب |
| 43 | د. عبد اللطيف الزهري جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية المغرب |
| 68 | ذ. مريم حسين علي محمد السادة دولة قطر باحثة دكتوراه بجامعة محمد الخامس - المغرب |
| 87 | ذ. فتيحة ساطع طالبة بسلك الدكتوراه، كلية الآداب بني ملال جامعة السلطان سليمان المغرب |
| 108 | د. محمد حسن محمد عبد الرحمن أستاذ مشارك كلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية السودان |
| 126 | د. فاطمة الزهراء دوقيه جامعة مولاي إسماعيل مكناس/المغرب |

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

| | | |
|-----|---|---|
| 158 | د. يحيى مقبل الصباحي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية وجامعة إقليم سبأ اليمن | المعرفة المتخصصة ودورها في العمران في ضوء القرآن الكريم |
| 185 | د. المصطفى السماحي دكتوراه في الفقه وأصوله وزارة التربية الوطنية- المغرب | ثنائيات في نهضة الأمم والحضارات وانحطاطها من منظور قرآني |
| 203 | د. أحمد صالح علي بافضل رئيس مركز البحوث ودراسات التنمية جامعة القرآن والعلوم الإسلامية اليمن | فلسفة العمران في القرآن |
| 228 | د. فريد شكري كلية الآداب والعلوم الإنسانية -المحمدية- المغرب | قيام العمران وقيم الأسرة |
| 243 | ذ. نورالدين بالخير ذ. عبد العزيز العبيدي جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس - المغرب | مقومات بناء العمران الأسري والاجتماعي في القرآن الكريم |

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كلمة الدكتور مصطفى بن أحمد الحكيم

رئيس المؤتمر

رئيس مؤسسة منارات الفكر الدولية

تمثل المؤتمرات العلمية فضاءات فسيحة للمذاكرة والمناظرة والمثاقفة الواعية، والنظر العميق، والاستشراف المُبصر لواقع المجتمعات الإنسانية وآفاق تطورها، كما تشكل محطات لدراسة المشكلات، وحل المقفلات، وعرض الحلول والمخرجات ...

وفي هذا السياق جاء تنظيم المؤتمر الدولي الموسوم بـ " العمران والقرآن... دراسة في مقومات البناء وعوامل الأفل" هادفاً لبناء الجسور، وتقوية الصلات بين التخصصات، وتحقيق التكامل المعرفي، وتقوية الألتقائية بين العلوم بما يخدم قضية في غاية الأهمية هي قضية العمران الإنساني وأثر القرآن الكريم في نميته وازدهاره وتقدمه باعتباره كتاب هداية وإصلاح وتوجيه وتربية.

وقد جاء المؤتمر في لحظة فارقة، وظرفية استثنائية في تاريخ العالم المعاصر بفعل تأثيرات جائحة كورونا وما أنتجته من مشكلات صحية واجتماعية واقتصادية ونفسية وتربوية... وما أفرزته من ظواهر جديدة، وإشكاليات متداخلة.

ولا يفوتني أن أقدم الشكر الجميل والثناء العاطر للسادة عمداء الكليات والمؤسسات الشريكة على رعايتهم الكريمة للمؤتمر؛ وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور أنور غيتسيثش عميد كلية الدراسات الإسلامية بصربيا، والأستاذ الدكتور سعد محمود حسين عميد كلية العلوم الإسلامية بجامعة تكريت بالعراق، والأستاذ الدكتور حسن عبد الله باسواد القائم بأعمال رئيس جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

باليمن، والأستاذة الدكتورة أسماء غالب القرشي مساعد رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور إبراهيم رحمانى مدير مخبر الدراسات الفقهية والقضائية التابع لجامعة الوادي الجزائر.

والشكر موصول لأعضاء اللجنة العليا للمؤتمر الدكتور خالد صلاح حنفي، والدكتورة أسماء القرشي، والدكتور محمد البدوي على جهودهم الطيبة وإسهامهم في نجاح المؤتمر وأخص بالذكر الدكتور خالد صلاح حنفي المشرف العام على بذله وجِدّه وعطائه.

والشكر متوجب في حق المشاركين الذين شاركوا حضوريا وتحذوا الظروف المحيطة، وإكراهات السفر المستجدة التي زادتهم عننا ومشقة بفعل الاشتراطات والإجراءات الصحية المطبقة في جل دول العالم، والشكر موصول للجنة العلمية التي قوّمت وحكّمت وراجعت الأوراق البحثية المقدمة.

كلمة الدكتور خالد صلاح حنفي محمود

المشرف العام على المؤتمر

أستاذ أصول التربية المشارك بكلية التربية - جامعة الإسكندرية

خلق الله تعالى الكون وهياً فيه ظروف العيش والاستقرار، ثم استخلف فيه الإنسان ليقوم بإعمار به بالخير والصلاح على الوجه الأكمل، فقال سبحانه: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: 61]، ومن ثم كان العمران كما قال ابن خلدون هو "التَّسَاكُنُ وَالتَّنَاوُلُ فِي مَصْرٍ أَوْ حَلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ، وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِيهِ مِنْ طِبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ"، فاقترض اجتماع الناس وتنظيم حياتهم، وتلبية حاجيات بعضهم، وفق قوانين تمنع استئساد بعضهم على بعض، وتوفير الأمن حتى لا تعم الفوضى ويسود الاضطراب ويفسد العمران.

وقد عني القرآن الكريم بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة، وعدّ ذلك من أعظم مقاصد الشريعة، حتى قال العلامة علال الفاسي إن: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتديير لمنافع الجميع"

ومن هنا فإن العمران في القرآن الكريم يدور على مكونات ثلاثة، هي: الإنسان، والأرض، ونظام عيشه فيها، فالإنسان هو محور الإعمار والفاعل الأساس، ومن ثم وجب الاعتناء به وإعمار وتزكيتته، والاهتمام بنظام الأسرة التي ينشأ فيها، ثم الأرض مكان الإعمار والنشأة، فأوجب إصلاحها واستثمار خيراتها، وتسخير ما فيها، وحسن تدبير منافعها، ثم نظام العيش فيها بإقامة العدل، وحفظ نظام التعايش، وإقامة الصنائع ووسائل الكسب، وتحقيق العلوم...

وكما اعتنى القرآن الكريم بعمران الأرض، فإنه نبّه على عوامل انهيارها من ظلم وترف وفساد، وبين عاقبة ومصير الأفراد والمجتمعات والدول التي انتشرت فيها كما وقع لفرعون وقوم عاد وثمود وغيرهم من {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر: 11-13]

فالمتمأمل إذن في فقه العمران في القرآن الكريم يجده فقها شمولياً يتناول الإعمار في كل أبعاده وعلى كل مستوياته ومجالاته، ما يستدعي تداخل علوم كثيرة في معالجة إشكالاته.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إن تداخل العلوم المختلف ومد الجسور بينها في معالجة قضية لها راهنتها وأهميتها لهو الهدف الأسمى لهذا المؤتمر الذي يعد فرصة سانحة للباحثين والمهتمين من مختلف المشارب والتخصصات المعرفية للمساهمة في تلاقح الأفكار والإجابة عن إشكالات البناء العمراني والحضاري للأمة.

ومن هذا المنطلق قامت مؤسسة منارات الفكر الدولية بمشاركة جامعة القرآن والعلوم الإسلامية اليمن، وكلية العلوم الإسلامية جامعة تكريت العراق، ومخبر الدراسات الفقهية والقضائية التابع لجامعة الوادي، وكلية الدراسات الإسلامية بصربيا بتنظيم مؤتمرها السنوي والمعنون "العمران والقرآن .. دراسة في مقومات البناء وعوامل الأقول"، ومشاركة الباحثين والأساتذة الجامعيين، وكل المهتمين من مختلف حقول المعرفة إلى الانخراط والمساهمة بأبحاثهم العلمية والأكاديمية في الموضوع وذلك لجمع، ومعالجة الموضوع والإجابة عن إشكالاته، بين تعدد المقاربات العلمية وتكاملها، وتحقيق الأهداف الآتية:

- اكتشاف المنهج القرآني ومركزيته في البناء العمراني والحضاري للأمة.
- ربط القرآن الكريم بالقضايا الحياتية للإنسان من خلال إبراز نظرية العمران في القرآن والتعريف بها، ومن ثم ربط الأجيال بالقرآن الكريم.
- إبراز التكامل المعرفي بين مختلف التخصصات والحقول العلمية في بناء نظرية العمران في القرآن، وتحقيق التعاون بين الباحثين والأكاديميين خدمة للعلم والمعرفة.
- المساهمة في المشاريع الهادفة إلى الرقي بالأمة خاصة، وبالإسانية عامة، لتنعيم بالأمن والاستقرار والعيش الكريم.

وقد انعقدت جلسات المؤتمر على مدي يومين كاملين، وهما يومي 9، و10 شهر فبراير في ولاية أسطنبول، بالجمهورية التركية، وجمع المؤتمر بين خيار المشاركة الحضورية، إضافة إلى خيار المشاركة عن بعد؛ وذلك لإتاحة الفرصة لمشاركة الباحثين من مختلف أنحاء العالم، وتضمنت فعاليات المؤتمر عرض وتناول لأوراق بحثية لباحثين من دول (قطر، المغرب، السودان، اليمن)

وقد تكونت اللجنة العلمية من (12) محكمًا من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية من دول (العراق، ماليزيا، المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، أفغانستان، ليبيا، الجزائر، مصر). وانتهت اللجنة إلى قبول عدد (7) بحوث بعد عمل التعديلات والتصويبات المطلوبة.

وقد جاء إصرار المؤسسة على عقد المؤتمرين بصفة حضورية رغم كل الظروف المرتبطة بالسفر، وقيوده نتيجة جائحة كورونا، وجاء نجاح المؤتمر كثمرة لعمل القائمين عليه، وجهد الباحثين الذين تحملوا السفر من بلدانهم رغم كل الصعاب.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ختامًا، فإنني أتقدم بالشكر للقائمين على مؤسسة منارات الفكر وكافة الجهات والمؤسسات المشاركة والراعية على حسن اختيارهم لموضوع المؤتمر، وجهودهم المخلصة في إتاحة الفرصة للباحثين من مختلف البلاد العربية والإسلامية للتلاقي، وتبادل الأفكار والخبرات تجاه تلك القضايا المصيرية التي تواجه الأمة.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر للسادة الزملاء أعضاء اللجنة التنظيمية على كل ما بذلوه من جهد متقن، وعمل دؤوب في الإعداد والتنظيم للمؤتمر واستقبال المشاركين، وكذلك أعضاء اللجنة العلمية الذين قاموا بالمشاركة في تحكيم الأوراق البحثية، وحرصهم على جودة الأوراق المنشورة، وذلك بصورة تطوعية إيمانًا منهم بأهمية نقل العلم وتضافر الجهود والخبرات، وأهمية التكامل والتضامن، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء، ووفقنا جميعاً لصالح بلادنا ورفعتها.

والله من وراء القصد،،

د. خالد صلاح

المشرف العام

ورقة تعريفية بالجهات المنظمة

- مؤسسة منارات الفكر الدولية:

التعريف: هي مؤسسة بحثية استشارية معترف بها في المملكة المتحدة؛ ذات مجلس إدارة، ومجلس تنفيذي، وهيئة استشارية تضم أكثر من 20 شخصية علمية وأكاديمية مرموقة من أكثر من 15 بلدا من أربع قارات.

الرؤية والرسالة: مؤسسة منارات الفكر الدولية مؤسسة علمية مستقلة تُعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والشرعية، وتروم بناء الجسور وتحقيق التكامل العلمي والتواصل المعرفي والترابط الفكري؛ بما يساعد على حل المشكلات، وتجاوز العقبات، وابتكار الحلول، وبناء الاستراتيجيات.

بالنظر إلى أن حل الإشكالات الفكرية والاجتماعية لن يستقل به تخصص واحد أو علم منفرد بل يحتاج لتضافر الجهود وتوحيد الرؤى من أجل بناء استراتيجيات دامجة للمعارف، عابرة للتخصصات، متعددة المقاربات.

الموقع الإلكتروني:

www.manaratelfikr.org

- كلية الدراسات الإسلامية: وهي مؤسسة علمية أكاديمية تمنح شواهد بكالوريوس، وماجستير، ودكتوراه؛ وتقع في مدينة نوفي بازار عاصمة إقليم السنجق في جمهورية صربيا.

الموقع الإلكتروني: <http://fis.edu.rs/>

- جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية:

هي مؤسسة علمية أكاديمية وجامعة رسمية تأسست بمدينة صنعاء باليمن سنة 1994، وتضم ثمانية كليات متعددة التخصصات في العلوم الشرعية والإنسانية والإدارية.

الموقع الإلكتروني: <http://uqs-ye.info/>

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- كلية العلوم الإسلامية:

هي مؤسسة علمية أكاديمية تمنح شواهد بكالوريوس، وماجستير، ودكتوراه؛ تابعة لجامعة تكريت بالعراق.

الموقع الإلكتروني: [/http://cis.tu.edu.iq](http://cis.tu.edu.iq)

- مخبر الدراسات الفقهية والقضائية التابع لجامعة الوادي الجزائر

أرضية المؤتمر

الإشكالية، الأهداف، المحاور:

خلق الله تعالى الكون وهياً فيه ظروف العيش والاستقرار، ثم استخلف فيه الإنسان ليقوم بإعمارهِ بالخير والصلاح على الوجه الأكمل، فقال سبحانه: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: 61]، ومن ثم كان العمران كما قال ابن خلدون هو "التَّسَاكُنُ وَالتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حَلَّةٍ لِلأَنْسِ بِالعَشِيرِ، واقتِضاء الحاجات لما فيه من طباعِهِم من التعاون على المعاش"، فاقتضى اجتماع الناس وتنظيم حياتهم، وتلبية حاجيات بعضهم، وفق قوانين تمنع استئساد بعضهم على بعض، وتوفر الأمن حتى لا تعم الفوضى ويسود الاضطراب ويفسد العمران.

وقد عني القرآن الكريم بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة، وعدّ ذلك من أعظم مقاصد الشريعة، حتى قال العلامة علال الفاسي إن: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصالح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"

ومن هنا فإن العمران في القرآن الكريم يدور على مكونات ثلاثة، هي: الإنسان، والأرض، ونظام عيشه فيها، فالإنسان هو محور الإعمار والفاعل الأساس، ومن ثم وجب الاعتناء به وإعمارهِ وتزكيتهِ، والاهتمام بنظام الأسرة التي ينشأ فيها.

ثم الأرض مكان الإعمار والنشأة، فأوجب إصلاحها واستثمار خيراتها، وتسخير ما فيها، وحسن تدبير منافعها .

ثم نظام العيش فيها بإقامة العدل، وحفظ نظام التعايش، وإقامة الصنائع ووسائل الكسب، وتحقيق العلوم ...

وكما اعتنى القرآن الكريم بعمران الأرض، فإنه نبّه على عوامل انهيارها من ظلم وترف وفساد، وبين عاقبة ومصير الأفراد والمجتمعات والدول التي انتشرت فيها كما وقع لفرعون وقوم عاد وثمود وغيرهم من {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر: 11-13]

فالمتمثل إذن في فقه العمران في القرآن الكريم يجده فقها شمولياً يتناول الإعمار في كل أبعاده وعلى كل مستوياته ومجالاته، ما يستدعي تداخل علوم كثيرة في معالجة إشكالاته .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إن تداخل العلوم المختلف ومد الجسور بينها في معالجة قضية لها راهنتها وأهميتها لهو الهدف الأسمى لهذا المؤتمر الذي يعد فرصة سانحة للباحثين والمهتمين من مختلف المشارب والتخصصات المعرفية للمساهمة في تلاقح الأفكار والإجابة عن إشكالات البناء العمراني والحضاري للأمة.

ومن هذا المنطلق تدعو مؤسسة منارات الفكر الدولية كل الباحثين والأساتذة الجامعيين وكل المهتمين من مختلف حقول المعرفة إلى الانخراط والمساهمة بأبحاثهم العلمية والأكاديمية في الموضوع حتى نجمع، في معالجة الموضوع والإجابة عن إشكالاته، بين تعدد المقاربات العلمية وتكاملها.

أهداف المؤتمر:

يهدف هذا المؤتمر إلى:

- اكتشاف المنهج القرآني ومركزيته في البناء العمراني والحضاري للأمة.
- ربط القرآن الكريم بالقضايا الحياتية للإنسان من خلال إبراز نظرية العمران في القرآن والتعريف بها، ومن ثم ربط الأجيال بالقرآن الكريم.
- إبراز التكامل المعرفي بين مختلف التخصصات والحقول العلمية في بناء نظرية العمران في القرآن، وتحقيق التعاون بين الباحثين والأكاديميين خدمة للعلم والمعرفة.
- المساهمة في المشاريع الهادفة إلى الرقي بالأمة خاصة، وبالإنسانية عامة، لتتعم بالأمن والاستقرار والعيش الكريم.

محاوِر المؤتمر :

المحاوِر التي نقتح على الباحثين أن ينخرطوا فيها من خلال مقاربات معرفية متعددة ومتنوعة هي:

المحور الأول: مفاهيم مؤسّسة (العمران، الاستخلاف، التسخير...).

المحور الثاني: مقومات العمران في القرآن الكريم (البعد العلمي والمعرفي، البعد القيمي، البعد الاقتصادي...).

المحور الثالث: محورية الإنسان في بناء العمران من خلال القرآن الكريم.

المحور الرابع: الأسرة والعمران البشري في القرآن الكريم.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المحور الخامس: عوامل وأسباب أفول العمران الحضاري في القرآن الكريم.

المحور السادس: الدولة والدعوة وبناء العمران القرآني.

المحور السابع: القرآن ومحاربة الفساد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي..

المحور الثامن: العمران والحربة (لا عمران بدون حرية مسؤولية)

المحور التاسع: العمران والاستبداد

المحور العاشر: العمران والاقتصاد

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الرئاسة الشرفية للمؤتمر

- الأستاذ الدكتور أنور غيتسييتش عميد كلية الدراسات الإسلامية بصربيا
- الأستاذ الدكتور سعد محمود حسين عميد كلية العلوم الإسلامية بجامعة تكريت بالعراق
- الأستاذ الدكتور حسن عبد الله باسواد القائم بأعمال رئيس جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية باليمن
- الأستاذ الدكتور إبراهيم رحمانى مدير مخبر الدراسات الفقهية والقضائية التابع لجامعة الوادي الجزائر.

أعضاء اللجنة العليا للمؤتمر

- **الدكتور مصطفى بن أحمد الحكيم**
رئيس المؤتمر ورئيس مؤسسة منارات الفكر الدولية
- **الدكتور خالد صلاح حنفي**
المشرف العام والمدير الأكاديمي لمؤسسة منارات الفكر الدولية
- **الدكتور محمد البدوي**
رئيس لجنة تنسيق شؤون المؤتمرات بمؤسسة منارات الفكر الدولية
- **الدكتورة أسماء غالب القرشي**
مستشار أكاديمي بمؤسسة منارات الفكر الدولية

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

أعضاء اللجنة العلمية الذين حكّموا الملخصات والأوراق البحثية

| الدولة | مؤسسة الانتساب | الاسم |
|----------------------------|--|--|
| العراق | جامعة الموصل | أ.د. فاضل خليل إبراهيم (رئيس اللجنة العلمية) |
| العراق | جامعة تكريت | أ.د. مزاحم مهدي النجار |
| المملكة العربية السعودية | كلية التربية - جامعة أم القرى | أ.د. صفية بنت عبد الله بخيت |
| الإمارات العربية المتحدة | جامعة زايد | أ.د. علاء الدين حسين صديق رحال |
| الإمارات العربية المتحدة | رئيس قسم الفقه وأصوله - جامعة الشارقة | أ.د. محمد علي سميران |
| أفغانستان | عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية | د. سيد جمال الدين الهروي |
| العراق | كلية التقنية الإدارية - جامعة السليمانية | أ.م. د. يحيى عمر فتاح |
| العراق | كلية التقنية الإدارية - جامعة السليمانية | أ.م.د. ريبه ر كوران مصطفى |
| ليبيا | جامعة المرقب الخمس ليبيا | د. سلمى الطيب خليفة سالم |
| الجزائر | جامعة باتنة | د. زينب دواوي |
| الولايات المتحدة الأمريكية | جامعة مينيسوتا الإسلامية | د. عبد الله ثابت علي القفيلي |

الأوراق البحثية المحكمة

العمران والقرآن



9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

موانع قيام العمران وأسباب زواله

شواهد قرآنية من السنن الإلهية

أ.د. فاطمة بوسلامة

أستاذة التفسير وعلوم القرآن بمؤسسة دار الحديث الحسنية

جامعة القرويين/المغرب

ملخص البحث:

إن القرآن الكريم نصب الأدلة الكافية، وأقام الحجج الواضحة، وبَيَّن السُّننَ الجارية في خلقه، ودعا الأمة إلى تدبرها لبلوغ الاستقامة المطلوبة وتحقيق العمران المقصود بالاستخلاف في الأرض، كما حثَّها على ضرورة النظر في هذه السُّنن والأدلة لفهم أسس الاستمرار والاستقرار وفقه أسرار القوة والازدهار، فتأخذ بالأسباب، وتعمل وفق السُّنن، وتعي مخاطر الطريق، وتتجنب عوامل الهدم والسقوط.

وأكثر ما ورد التنبيه على هذه السنن في أحوال الأمم السابقة، إذ ذكرت عدد من الآيات الكريمات أخبار هذه الأمم، ومنها ما أصابها من خراب ودمار، وفي ثنايا ذلك ربطت هذه الآيات الأسباب بمسبباتها، ووجهت المخاطبين، في وقت نزول القرآن الكريم وبعده، إلى ضرورة الاعتاض والاعتبار واستخلاص الهدى الرباني المقصود، قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَدِّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) [آل عمران: 137-138].

ستتبع هذه الورقة عددا من هذا الآيات، وتقف على بعض ما اشتملت عليه من موانع قيام العمران وأسباب زواله، مُجلية مسؤولية الإنسان فيما يحدث من تغيير سلبي، وقبل ذلك تُعرِّف، على سبيل التمهيد، بمعنى "العمران" و"سنة الله" في القرآن الكريم، ولذلك انتظمت عناصر هذه الورقة على النحو الآتي:

- 1- معنى "العمران" و"سنة الله" في القرآن الكريم
- 2- سنة التغيير ومسؤولية الإنسان
- 3- موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان بربه
- 4- موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان بمحيطة الطبيعي
- 5- موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان

1- معنى "العمران" و"سنة الله" في القرآن الكريم

1-1- معنى العمران

في اللغة: "عَمَرْتُ الخرابَ أَعْمَرُهُ عِمَارَةً"¹، و"العِمارة نقيض الخراب"²، و"عَمَرَ المَنْزِلُ بِأَهْلِهِ عَمْرًا (...)
وَعَمَرَهُ أَهْلُهُ سَكْنُوهُ وَأَقَامُوا بِهِ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى. وَعَمَرْتُ الدَّارَ عَمْرًا أَيضًا بِنَيْئِهَا وَالْإِسْمُ الْعِمَارَةُ بِالْكَسْرِ (...)
وَالْعُمْرَانُ اسْمٌ لِلْبُنْيَانِ"³، و"وعمر الرجل ماله وبيته يعمره عِمارةً وعموراً وعمراناً: لزمه"⁴، "ويقال لساكن
الدار: عامرٌ، والجمع عَمَّارٌ"⁵. و"العِمارة: ما يُعَمَّرُ به المكان"⁶، و"عَمَّرَ النَّاسُ الأَرْضَ عِمَارَةً، وَهُمْ يَعْمُرُونَهَا،
وَهِيَ عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ (...)
وَالْإِسْمُ وَالْمَصْدَرُ الْعُمْرَانُ"⁷.

فالعمران والعِمارة معناهما واحد، وكلاهما يستعمل في اللغة مصدرا أو اسما بمعنى يضاد الخلاء
والخراب، ويرادف البناء وشغل مكان والإقامة فيه. لكن الألف والنون في لفظ (العمران) في العربية تفيد
المبالغة، فاللفظ يصلح بذلك للدلالة على "عمارة جيدة ممتازة -لأنها إما واسعة أو غير ذلك"⁸.

ومن استعمالات المادة (ع.م.ر) المرتبطة بمعنى العِمارة والعمران في اللغة: العَمْرُ والعُمْرُ، يقال "عَمِرَ
الرجل بالكسر يَعْمُرُ عَمْرًا وَعُمْرًا (...)
أي عاش زماناً طويلاً"⁹، "فإذا قيل: طال عُمْرُهُ، فمعناه: عِمَارَةٌ بَدَنِهِ
بروحه"¹⁰، والعَمْرُ والعُمْرُ أيضاً: "الحياة"¹¹، "لِأَنَّ مُدَّةَ الْحَيَاةِ يُعَمَّرُ بِهَا الْحَيُّ الْعَالَمَ الدُّنْيَوِيَّ"¹²، "وَقَوْلُ
الْعَرَبِ: لَعَمْرُكَ، يَحْلِفُ بِعَمْرِهِ أَي حَيَاتِهِ"¹³، فاللفظان معناهما واحد "لكن حُصَّ الْقِسْمُ بِالْعَمْرِ دُونَ الْعُمْرِ"¹⁴.

1- الصحاح/عمر

2- المفردات للراغب/عمر

3- المصباح المنير/عمر

4- اللسان/عمر

5- اللسان/عمر

6- اللسان/عمر

7- المقاييس/عمر

8- مقال: "من القرآن إلى العمران" للدكتور الشاهد البوشيخي، ص15، مجلة حراء، العدد35/2013م.

9- الصحاح/عمر

10- المفردات للراغب/عمر

11- المقاييس + اللسان/عمر

12- التحرير والتنوير/تفسير يونس16.

13- المقاييس/عمر

14- المفردات للراغب/عمر

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وفي القرآن الكريم: وردت مادة (ع.م.ر) سبعا وعشرين مرة، منها ثلاث على صيغة اسم علم (آل عمران)، والباقي توزع على مشتقات مرتبطة بمصطلح العمارة/العمران، وهي: مشتقات فعلية احتل مجموعها أحد عشر موضعا: الفعل المجرد (عَمَرَ)، والمزيد بالألف والتاء (اعتمر)، و المزيد بالألف والتاء والسين (استعمر)، ومشتقات اسمية وردت في ثلاثة عشر موضعا، هي: عمارة - معمور - مُعَمَّر - عمرة - عُمُر - عَمَّر.

ويتضح أن الفعل الثلاثي (عمر) مع مصدره (عمارة)، ارتبط في قسم أول من موارده بمساجد الله عموما¹⁵ والمسجد الحرام خاصة¹⁶، كما ارتبط في القسم الثاني بالأرض¹⁷.

وعمارة المساجد، وفي مقدمتها المسجد الحرام، تطلق ويراد بها إقامة العبادة فيها، كما تطلق ويراد بها لزومها وكثرة إتيانها، وكذا بناؤها وإصلاحها وتعهدتها، والشأن في هذه العمارة، كما قرر القرآن الكريم، أن تقع من المؤمنين بالله تعالى، ولا يعتد بها في ميزان الله تعالى متى تجردت عن الإيمان واقتربت بشرك.

أما عمارة الأرض، فهي ما تحصل " بكل مظهر من مظاهر الرقي والحياة، إما بالزرع أو الغرس، وإما بالبناء، وإما بشق الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس"¹⁸، ولذلك وردت بعد "إثارة الأرض" الدالة على شدة تصرف في هذه الأرض¹⁹.

وقد ورد فعل (استعمر)²⁰ مسندا إلى الله تعالى ومتعديا ب(في) إلى الأرض للدلالة على أن عمارة الأرض هذه إنما تحصل بجعل إلهي وتفويض رباني²¹، ولذلك وردت في سياق امتنان بعد تذكير بنعمة " الإنشاء من الأرض".

¹⁵- في الآيتين: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [التوبة:17-18].
¹⁶- في قوله تعالى: (أَجْعَلْنَاهُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [التوبة:19].

¹⁷- في قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [الروم:9].

¹⁸- تفسير الشعراوي/تفسير الروم:9.

¹⁹- ذكر اللغويون من معاني (الثَّوْر) في اللغة السطوع والهيجان والوثب، يقال: "ثار الغبار والسحاب ونحوهما يثور ثورا وثورانا: انتشر وسطع، وقد أثرته" [المفردات للراغب/ثور]، و "أثرت السَّبْعُ والصيد إذا هَجَتْه" [اللسان/ثور]، وثار به الناس أي وثبوا عليه" [الصحاح/ثور]. وفي تفسير إثارة الأرض في الآية قال البقاعي: " (وأثاروا) بالحرث وغيره (الأرض) فأخرجوا ما فيها من المنافع من المياه والمعادن والزرع وغير ذلك من المعاون" [نظم الدرر/تفسير الروم:9]، وقال ابن عاشور بعد ذكر معنى الحرث الذي سار عليه عدد من المفسرين: " ويجوز أن يكون (أثاروا) هنا تمثيلاً لحال شدة تصرفهم في الأرض وتغلبهم على من سواهم بحال من يثير ساكناً ويهيجه، ومنه أطلقت الثورة على الخروج عن الجماعة، وهذا الاحتمال أنسب بالمقصود الذي هو وصف الأمم بالقوة والمقدرة من احتمال أن تكون الإثارة بمعنى حرث الأرض لأنه يدخل في العمارة. وضمير (أثاروا) عائد إلى ما عاد إليه ضمير (كانوا أشد)" [التحرير والتنوير/تفسير الروم:9].

كما ورد فعل التعمير (عَمَّر) مسندا إلى الله تعالى بصريح اللفظ (نُعَمِّر - نُعَمِّرْكُمْ) ، أو ضمنا ببناء الفعل للمجهول (يُعَمَّر) ²² لارتباط هذا الفعل بمدة عيش الإنسان على الأرض التي لا يملك حسابها إلا الله تعالى. وقد دل التضعيف في الفعل على زيادة في هذه المدة على المعتاد، يؤيده سياق الاستعمال إذ قوبل في موضع بنقص العمر ²³.

وورد فعل (اعتمر) ²⁴ في سياق تشريعي مرتبط بفعل الحج للدلالة على العبادة المعروفة/العمرة التي يقوم بها المكلف، وهي زيارة بيت الله الحرام بالشروط المخصوصة المعروفة.

ولا يخفى ارتباط هذه الأفعال، بتصاريدها المتنوعة، بعضها ببعض، ويعيننا في هذا الموضوع فعل العمارة/العمران خاصة. ومما يمكن استنتاجه بخصوص معناه في القرآن الكريم:

قد يُقصد بهذا الفعل العمارة الخالية من الإيمان = العمارة، وهي نوع العمارة التي ثبت وقوعها من مشركي قريش مقترنة بسقاية الحاج قبل فتح مكة، وقرر الحق سبحانه عدم الاعتداد بها في ميزانه تعالى، قال سبحانه: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [التوبة:19]. كما هي نوع العمارة التي تحققت لبعض الأمم السابقة وثبت وجودها لوجود أسبابها المادية/ الإثارة، لكن سرعان ما زالت بحكم الله وقضائه العادل بسبب كفر هذه الأمم وتكذيبهم الرسل: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [الروم:9].

وقد يُقصد به أيضا العمارة المقترنة بالإيمان = العمران ²⁵، وهي نوع العمارة التي لا يستقيم حصولها إلا من المؤمنين: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

²⁰ في قوله تعالى: (وَأَلِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) [هود:61].

²¹ قال الألوسي في تفسير قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا): "أي وهو الذي جعلكم عمارها وسكانها، فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أعمرت الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها، وإلى هذا ذهب الراغب وكثير من المفسرين" [روح المعاني/تفسير هود:61]، وقال الطاهر ابن عاشور مؤكدا المعنى نفسه: "والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامريها" [التحرير والتنوير/تفسير هود:61]

²² ينظر الآيات: البقرة-96- فاطر-11- فاطر-37- يس-68.

²³ وهو قوله تعالى: (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [فاطر:11]، وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى المعنى المذكور بقوله: "فَمَعْنَى عَمَّرَهُ بِالتَّضْعِيفِ: جَعَلَهُ بَاقِيًا مُدَّةً زَائِدَةً عَلَى الْمُدَّةِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي أَعْمَارِ الْأَجْيَالِ، وَلِذَلِكَ قُوِبِلَ بِالنَّقْصِ مِنَ الْعُمُرِ" [التحرير والتنوير/ تفسير فاطر: 11].

²⁴ في آية البقرة: 158.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

اللَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [التوبة:18] ، كما هي نوع العمارة التي أعد الله تعالى الإنسان للقيام بها على الأرض، وأنعم بها عليه بعد نعمة خلقه وإنشائه، وهي بذلك تستدعي إقلاع هذا الإنسان عن الذنوب والمعاصي والرجوع إليه سبحانه: (وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) [هود:61].

2-1- معنى "سنة الله" في القرآن الكريم:

السين والنون في اللغة: "أصل واحد وهو جريان الشيء وإطراده في سهولة"²⁶، يقال: "سَنَّ الماء على وجهه صَبَّهُ صَبًّا سهلاً"²⁷، وأيضا: "أرسله إرسالاً"²⁸، واستقام فلان على سَنَنٍ واحد أي على طريقة واحدة"²⁹، و"جاءت الرياح سنَّائين إذا جاءت على طريقة واحدة لا تختلف"³⁰، و"سَنَّ سُنَّةً حسنة طرق طريقة حسنة"³¹.

وفي القرآن الكريم: وردت "سُنَّةٌ/سُنَنٌ" في ستة عشر موضعا، وأكثر ما وردت مقيدة بالإضافة إلى الله³²، والأولين³³، ومن أرسل الله من الرسل من قبل³⁴، وإضافتها إلى الأولين أو إلى الرسل باعتبار تعلقها بهم، وإنما هي سنة الله فيهم³⁵، ومعناها، ضمن هذا الاستعمال الصريح للفظ، يكاد يختص بهم³⁶: وهي، باعتبار مجموع مواردنا، عاداته تعالى المطردة ونظامه الثابت الذي يجري على عبادته³⁷، وأكثر ما قصد بهؤلاء الذين مضت فيهم سنة الله، المكذَّبون للرسل، قال تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ

²⁵ ورد في القرآن الكريم المصدر بصيغة (عمارة)، ولم يرد المصدر بصيغة (عُمران)، ولأن الأول، أي عمارة، استعمل في العمارة الخالية من الإيمان، واعتبارا لما تدل عليه الألف والنون في الصيغة الثانية/عمران، كما سبقت الإشارة، ناسب أن نطلق على مصدر فعل (عمر) المقترن بالإيمان عمرانا.

²⁶ المقاييس/سن.

²⁷ الأساس/سنن.

²⁸ المقاييس/سن.

²⁹ قال الجوهري: «السَّنَنُ الطريقة يقال استقام فلان على سَنَنٍ واحد» [الصحاح/سنن].

³⁰ الصحاح/سنن.

³¹ الأساس/سنن.

³² وذلك تسع مرات، منها مرة وردت بالإضافة إلى نون الجمع العائدة عليه تعالى، في الآيات: الإسراء:77-الأحزاب:38-62- فاطر: 43-غافر:85-الفتح:23.

³³ في أربعة مواضع هي: الأنفال:38-الحجر:13-الكهف:55-فاطر:43.

³⁴ في آية واحدة، هي الإسراء:77.

³⁵ ينظر: تيسير التفسير لأطفيش/ تفسير الإسراء:77، وروح المعاني/تفسير الأنفال:38، و التحرير والتنوير/ تفسير الإسراء:77+تفسيرالحجر:13.

³⁶ وردت السنة في موضع واحد متعلقة بعموم عبادته سبحانه، وإن كان السياق يحكي عن مثال من الأمم السابقة ممن استهزأوا بما جاءتهم به رسل الله ومضت فيهم سنة الله هذه، وهو قوله تعالى: (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) [غافر:85].

³⁷ ذكر الطاهر ابن عاشور أنها: "أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق" [التحرير والتنوير/ تفسير آل عمران:137].

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ [الأنفال:38]، وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّتُهُ الْأَوَّلِينَ) [الحجر:10-11-12-13].

وقد أشار المفسرون إلى عدد من هذه السنن³⁸ المرتبطة بالأمم المكذبة، ومنها: سنة إمهال أهل التكذيب، وسنة استدراجهم، وسنة إحلال العقوبة بهم³⁹، وسنة عدم قبول الإيمان عند حلول عذاب الاستئصال⁴⁰.

وورد لفظ السنة مرتبطين بالأمم المؤمنة من الأنبياء والرسل وتابعيهم في ثلاثة مواضع⁴¹، منها قوله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)⁴²، وقوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)⁴³.

كما وردت سنن، هكذا جمعا مطلقا، في آية واحدة، هي قوله تعالى في سياق الحديث عن غزوة أحد والتعقيب على أحداثها وملابساتها: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)⁴⁴، قال البقاعي في تفسير الآية: " (سنن) أي وقائع سننها الله في القرون الماضية والأمم الخالية في المؤمنين والمكذبين، وأحوال وطرائق كانت للفريقين، فتأسوا بالمؤمنين وتوقعوا لأعدائكم مثل ما للمكذبين فانظروا وأنعموا التأمل في أحوال الفريقين وإن لم يحصل ذلك إلا بالسير في الكد والتعب الشديد"⁴⁵، ومن هذه السنن التي دل عليها سياق هذه الآية: "عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومدولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين"⁴⁶.

وغير خاف أن هذه السنن الواردة بلفظها الصريح في القرآن الكريم اقترن بها ما يشد أنظار المسلمين إليها، ويرشد إلى ضرورة تأملها، والاعتبار بأحوال من مضت فيهم هذه السنن من الأمم السابقة. وقد اجتهد

³⁸- ذكر القاسمي في معناها أنها: " وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين " محاسن التأويل/تفسير آل عمران:137.

³⁹- ينظر على سبيل المثال: جامع البيان+الكشف والبيان + معالم التنزيل / تفسير آل عمران:137.

⁴⁰- ينظر على سبيل المثال: مفاتيح الغيب + لباب التأويل في معاني التنزيل+ التحرير والتنوير/ تفسير غافر:85.

⁴¹- هي: النساء:26+ الإسراء:77+الأحزاب:38.

⁴²- الإسراء:77.

⁴³- النساء:26.

⁴⁴- آل عمران:137-138.

⁴⁵- نظم الدرر/تفسير آل عمران:137.

⁴⁶- في ظلال القرآن/تفسير آل عمران:137.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المفسرون، قديما وحديثا، في الكشف عن مضمون عدد منها، سبق التمثيل لبعضها، كما خصها العلماء والدارسون، موازاة مع تطور العلوم، بمقالات وكتب مستقلة عديدة استقرأوا فيها الشواهد عليها، وفصلوا الحديث في أهميتها، وأضافوا إلى السنن المنصوص عليها لفظا سننا قرآنية أخرى مفهومة من سياق الكلام ودلالة الخطاب وفحواه، واشتهر التعبير عن هذه السنن المرتبطة بأحوال الأمم والجماعات بالسنن الاجتماعية، في مقابل سنن أخرى هي سنن كونية، وهذا البحث يعنى ببعض هذه السنن الاجتماعية التي دلت على موانع قيام العمران وأسباب زواله.

2- سنة التغيير ومسؤولية الإنسان

الإنسان هو خليفة الله في الأرض الذي كلفه سبحانه بتعمير هذه الأرض بعد أن هداه إلى سبيل إدراك مآربه فيها، ومكّنه من أسباب العمل النافع الذي يراه الله ورسوله والمؤمنون: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) [التوبة:105].

وبقدر ما يجتهد الإنسان في عمله، ويخلص في سعيه، بقدر ما يجلب لنفسه الحياة الطيبة والعيش الكريم والأجر الجزيل: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل:97] ، فالعمل الصالح سبب في الحياة الطيبة، والإنسان هو من يعمل، فالعنصر البشري إذا ركن أساس في تحصيل الخير وتحقيق السعادة والتقدم، والرسول صلى اله عليه وسلم حين بُعث برسالة الإسلام كان مدركاً لهذه الحقيقة، بتوفيق من الله عز وجل، لذلك كان شغله الشاغل أن يرتقي بصحابته في مدارج الصلاح والكمال، ويُفجر طاقاتهم للعمل والعطاء من خلال ما يتلو عليهم من الآيات ويُدرهم عليه في كافة المواقف والأحداث، فاستطاع صلى الله عليه وسلم أن يخرج هؤلاء من حال الضلال المبين الذي كانوا فيه، كما أخبر تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [الجمعة: 2]، وينقلهم، عليه الصلاة والسلام، إلى حال آخر أصبحوا فيه صناع حضارة امتدت لقرون، وقادة عالم لم يشهد التاريخ مثلمهم.

وإذا كان الإنسان، في التصور الإسلامي، هو من يقوم بمشروع البناء والتعمير، وإليه اتجهت العناية بإعداده والارتقاء به لبلوغ حاجاته ومطالبه، فهو أيضاً المكلف بحفظ هذا المشروع والسير فيه وفق ما رُسم له في الشرع الحكيم، كما هو المسؤول عن عدم إتمامه أو الميل به عن مقصوده، وبه ترتبط أسباب فشله وضياعه.

ومن السنن الثابتة، بالنص الصريح والإشارات المتكررة، أن زوال العمران مترتب على كسب الإنسان، وأن أسباب الأفلول والتقهقر وتغير الحال من الحسن إلى السيئ إنما ترتبط بوضع هذا الإنسان، لأن الله سبحانه وتعالى أخبر، وخبره الصدق: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد:11]، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الأنفال: 53].

ترد الآية الأولى في مقطع حامل لخصائص القرآن المكي⁴⁷، إذ يخدم قضية أساسية من قضايا العقيدة، ورد التنبيه عليها في مطلع السورة⁴⁸، وهي قضية الوحي المشتمل على الحق، وما استلزم ذلك من

⁴⁷- ينظر سورة الرعد، الآيات من 5 إلى 11.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

استعراض آيات القدرة الإلهية - في الأنفس والأفاق- الدالة على الحكمة والتدبير، ومنها إحاطة علمه تعالى بكل شيء، وتديبره المحكم للأمور، وتصرفه العادل إزاء ما يحدثه الناس من تغيير في أنفسهم.

وتتضمن الآية، كما هو واضح، تقريراً لناموس إلهي يتقلب البشر وفاقه من النعم إلى النقم، إذ قصدت إلى بيان أن ما يحدث للأقوام من تغيير في أحوالهم، فيقاسون الويلات والنقم، فإنما يكون ذلك بسبب ما يصدر عنهم من تغيير سلبي في سلوكهم وأحوال نفوسهم، قال الطبري في تفسير الآية: "إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره"⁴⁹، وقال الرازي: "فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد"⁵⁰، "وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل. وهو يحمل كذلك، إلى جانب التبعة، دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه"⁵¹.

والحقيقة نفسها ترد في الآية الثانية [الأنفال:53]، مع بيان أكثر لفعل التغيير الإلهي، فهو تغيير للنعمة يأتي جزاء للتغيير الإنساني الذي لا شك في كونه تغييراً سلبياً⁵².

وهذه الآية ترد في مقطع ينتهي إلى القرآن المدني⁵³، وآياته استمراراً للتعقيب على نتائج وقعة بدر التي أسفرت عن هزيمة المشركين الكافرين على الرغم من قوتهم وعددهم وعدتهم. وضمنه وصف لحالة قتلاهم

⁴⁸- قال تعالى: (المر تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) [الرعد:1].

⁴⁹- جامع البيان/تفسير الرعد:11.

⁵⁰- مفاتيح الغيب/تفسير الرعد:11. وقد مال عدد من الباحثين والمفسرين، وبخاصة منهم المحدثين، إلى حمل معنى التغيير في الآية على وجهيه، أي التغيير نحو الأسوأ والتغيير نحو الأحسن، لكن سياق الآية، ومنه قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) [الرعد:11]، وكذا استعمال لفظ التغيير في باقي موارد من القرآن الكريم، لا يؤيد هذا الرأي [ينظر سياق ودلالة التغيير في الآيات النساء:119، و الأنفال:53، ومحمد:15]. وكون التغيير إلى الأحسن يترتب عنه الجزاء الحسن هو معنى صحيح في ذاته، لكن تدل عليه آيات أخرى غير هذه الآيات التي تضمنت لفظ التغيير.

⁵¹- في ظلال القرآن/ تفسير الرعد:11.

⁵²- ورد فعل التغيير نفسه في الآيتين معا مرتين، مع اختلاف جهة صدره، للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وورد في الموضع الأول من الآية الثانية [الأنفال:53] اسم فاعل (مُغَيِّرًا) مسبقاً بنفي الكون الوارد بصيغة المضارعة (لم يك مغيراً) فدل على تجدد النفي والمنفي إيداناً بأنها سنة الله ومقتضى حكمته. وهذا النفي (لم يك مغيراً) أبلغ من النفي الوارد في الآية الأولى [الرعد 11] (لا يغير) لأن المقصود في آية الأنفال نفي أن يكون الله سبحانه وتعالى ظالماً لعباده بإنزاله للعقاب فوقعته المبالغة في نفي فعل التغيير، بينما المقصود في آية الرعد هو تقرير قاعدة وحسب، كما أن في الإخبار عن الله تعالى بأنه (لم يك مغيراً) إظهاراً لما هو أصل "لأن الأصل - كما عبر الألوسي - عدم التغيير من الله تعالى لسبق إنعامه ورحمته" [روح المعاني/تفسير الأنفال:53].

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يوم بدر، وقد نزعت الملائكة أرواحهم وبدأت في تعذيبهم بسبب ما اقترفوه من آثام وما ارتكبه من أعمال شنيعة جزاء وفاقا دون ما ظلم لأن الله لا يظلم عبده. وما حل بهؤلاء هو مثل ما حل بمن سبقهم من الأمم الكافرة كآل فرعون والذين من قبلهم، إذ عجل الله لهم العقوبة في الدنيا وأهلكهم بذنوبهم، وكل ذلك يجري وفق سنة إلهية حكيمة مقتضاها أن الله سبحانه وتعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم فيبدل أمنهم بخوف وغناهم بفقر وعزتهم بذل وسلامتهم بهلاك إلا إذا غيروا ما بأنفسهم فانحرفوا عن الطريق المستقيم واقترفوا الآثام والمنكرات. وهي سنة ثابتة جارية في خلقه، مع استمرار فعل التغيير وتجده (يغيروا)، بلا فرق بين القوم من آل فرعون ومن قبلهم، والقوم المحاربين الرسول صلى الله عليه وسلم، بل والقوم الذين سيخلفونهم في المستقبل.

إن ما نطقت به الآيات [الرعد:11، والأنفال:53] من مسؤولية الإنسان فيما يحدث له من تغيير نعمة الله عليه، ومنها نعمة الاستقرار والعمران، هو ما دلت عليه آيات أخرى من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: (أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران:165]، وقال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) [الشورى:30]. ولذلك فإن بحث موانع قيام العمران وأسباب زواله هو بحث عن طبيعة التغيير الذي يحدثه الإنسان في حاله، كما هو محاولة للوقوف على أنواع الخلل الحاصلة في وضع هذا الإنسان. وفي هذا السياق، يمكن الحديث عن موانع وأسباب مرتبطة بحال الإنسان مع ربه وعلاقته بخالقه، وموانع وأسباب مرتبطة بحاله مع محيطه الطبيعي (الأرض)، وموانع وأسباب مرتبطة بعلاقته مع أخيه الإنسان (المشارك له في عمارة الأرض)⁵⁴.

⁵³- ينظر سورة الأنفال، الآيات من 48 إلى 54.

⁵⁴- يجدر التنبيه هنا على أمرين، الأول: إن الموانع والأسباب المرتبطة بعلاقة الإنسان بربه هي الأصل الذي تفرعت عنه باقي الموانع والأسباب. والثاني: إن تقسيم هذه الموانع والأسباب بحسب هذه العلاقات إنما هو من باب التفصيل المنهجي لبيانها مجزأة، وإلا فإن أشكال الانحراف في وضع الإنسان التي تمنع قيام العمران وتفضي إلى زواله، كما سيأتي عرضها، تتداخل فيما بينها ويرتبط بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض في الاستعمال القرآني.

3 - موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان بربه

ونقصد إلى موانع وأسباب كشفت عنها سنن الله في الكافرين والمعرضين عن هداة والجاحدين لنعمته والخارجين عن طاعته سبحانه:

الكفر بالله تعالى والإعراض عن هداة: إن النظرة القرآنية لمفهوم العمران توجب ألا يتحقق هذا العمران في بُعد عن الله تعالى وانحراف عن طريقه وزيع عن أمره، لأن الله تعالى أخبر عن لحظة نزول الإنسان إلى الأرض وبداية عيشه فيها: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى) [طه:123-124-125-126].

فلا سعة في العيش مع الإعراض عن ذكره تعالى وعدم اتباع هداة، أورد الطبري من تفسير ابن عباس للآية: " فإذا كان العبد يكذب بالله، ويسيء الظن به، اشتدَّت عليه معيشتة، فذلك الضنك"⁵⁵. وقال الرازي: " فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فكأنه قال: معيشة ذات ضنك، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره. أما الأول: فقال به جمع من المفسرين وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشاً طيباً كما قال: (فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) [النحل:97] ، والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا طالبا للزيادة أبداً فعيشتة ضنك وحالته مظلمة"⁵⁶.

وكما وردت آيات تبين أثر الإيمان والتقوى والاستقامة في جلب الرزق وبلوغ الرفاه المادي نحو قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [الأعراف:96] ، وقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) [نوح:10-11-12] ، وقوله تعالى: (وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا) [الجن:16]، وردت آيات أخرى تكشف عن العائق الأساسي الذي حال دون استمرار أمم في قوتها ورغدها، وهو الكفر والعصيان وتكذيب الرسل، قال تعالى حكاية عن عاد: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) [هود:59-60]

55- جامع البيان/ تفسير طه:24.

56- مفاتيح الغيب/ تفسير طه:124.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وحكى سبحانه عن ثمود: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [فصلت:15-16-17-18]، (كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) [هود:68]، وقال تعالى في شأن الكافرين عموماً وآل فرعون ومن قبله خصوصاً: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ، كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [آل عمران:10-11].

فهؤلاء القوم هم أصحاب مال وجاه وقوة ورفاه، كما ورد الخبر عنهم وكذا وصفهم في القرآن الكريم، فعاد وُصفت بأنها ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد⁵⁷، وثمرود هم الذين جابوا الصخر بالواد⁵⁸، ووُصف فرعون بذي الأوتاد⁵⁹، ولم يكونوا، مع كل ذلك، في مأمن من الهلاك والدمار والزوال بسبب بعدهم عن الله تعالى وإخلاقهم بشرط الإيمان في البناء والتعمير، قال تعالى حكاية عن قوم فرعون: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) [الدخان:25-26-27-28-29]

وعمارة الكافر في الدنيا، مهما بدا فيها من قوة وزينة، هي حاملة لسبب زوالها ولو بعد حين، إذ هي "متاع قليل"، بنص القرآن الكريم، سرعان ما ينقضي، قال تعالى: (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [البقرة:126]، وقال تعالى: (لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) [آل عمران:196-197]

الكفر بنعم الله: والمقصود الكفر الذي يقابل الشكر المقترن بذكر الله، كما قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) [البقرة:152]، ويعني الإخلال بواجب الاعتراف بالرب المنعم، وعدم استعمال النعمة فيما يرضيه سبحانه وتعالى كما هو مقتضى العبودية الحقة: (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَاءَهُ تَعْبُدُونَ) [النحل:114]، وهو كفر بنعمته تعالى التي تعم البارّ والفاجر⁶⁰، أي نعمة تدبير عيش العبد على هذه الأرض وتجهيزه بما يحتاج إليه في ذاته وفي محيطه، كما قال تعالى: (وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [يس:33-34-35]، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

⁵⁷-ينظر الآية: الفجر7-8.⁵⁸-ينظر الآية: الفجر9.⁵⁹-ينظر الآية: الفجر10.⁶⁰-ولذلك نجد أن أكثر ما ورد هذا الشكر في سياق خطاب الناس كافة.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) [المؤمنون: 78]، (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [يس: 71-72-73].

وإذا كان الشكر المطلوب ههنا هو سبب لمزيد عطاء وإنعام لأنه حاصل بالجد والعمل، فإن مقابله، وهو الكفر، سبب لحلول العذاب وسوء العاقبة، قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [إبراهيم: 7]، وقال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: 112]. قال الزمخشري: " (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) ، أي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نعمته، فيجوز أن تراد قرية مقدره على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضربها الله مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها"⁶¹.

وأشهر من مضت فيهم سنة الله، وأفل نجم عمرانها بسبب كفرها بأنعم الله أهل سبأ، إذ ذكر تعالى من أخبارهم: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) [الرعد: 15-16-17]. أي: أن ما أكرم الله به قوم سبأ من خصوبة الأرض وجودة التربة، ونقاوة الهواء، واختلاف الزروع والأشجار، وتنوع الثمار، وامتداد الظلال وجريان الأنهار، يعد آية من آيات الله⁶²، الناطقة بقدرته وحكمته ورحمته، الباعثة على عبادته وشكره وطاعته، لكن لما أعرض قوم سبأ عن عبادة الله وطاعته، وانصرفوا عن شكره على نعمته، بطرا وطغيانا، وجحودا وكفرانا، بدلهم الله من حال إلى حال، وسلط عليهم الكوارث والأهوال، فتهدم (سد مأرب) الذي كان يعد من أعاجيب العالم القديم، إذ كان أوسع السدود وأشهرها، وطغى ماء السد وماء السيل على ما كان عندهم من بساتين ومزارع وأبنية، فذهب العمران والازدهار، وحل محله الخراب والدمار⁶³.

وأبرز ما أنعم الله به على الإنسان وجعل له به مكانة خاصة ضمن المخلوقات امتلاكه لأدوات الإدراك والتميز وقدرته على التعلم والفهم والإفهام، قال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) [البقرة: 31] ، وقال تعالى: (الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [الرحمن: 1-2-3-4] ، وتعطيل هذه القدرة، وعدم

⁶¹الكشاف/ تفسير النحل: 112، وقال الرازي: " والأكثر من المفسرين على أنها مكة، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ، ومثل مكة يكون غير مكة " [مفاتيح الغيب/تفسير النحل: 112].

⁶² قال الطاهر ابن عاشور: " والآية هنا : الأمانة والدلالة بتبديل الأحوال وتقلب الأزمان ، فهي آية على تصرف الله ونعمته عليهم فلم يهتدوا بتلك الآية فأشركوا به ، وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده ثم على وحدانيته " [التحرير والتنوير/تفسير الرعد: 15].

⁶³ من كلام المفسر المغربي المكي الناصري (ت 1415هـ) بتصرف، التيسير في أحاديث التفسير/تفسير الرعد: 15-16.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

استخدام تلك الأدوات للقيام بأعباء الخلافة والعمران، كل ذلك كفر بالنعمة لا يحول فقط دون تقدم هذا الإنسان إلى الأمام، بل يرتد به إلى الوراء حيث يصبح شبيهاً بالأنعام والدواب: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ) [الأنفال: 22]، وقال سبحانه: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف: 179].

ومن مظاهر تعطيل هذه الطاقات والقدرات التهاون في طلب العلم أو عدم طلبه بالمرّة، فالمجتمعات التي لا تغوص في بحار العلوم المختلفة، ولا تسلك دروب المعارف المتنوعة، لا تستطيع تبين معالم السير، ولا تقدر على فتح آفاق الحياة الرحبة، وتعجز عن امتلاك وسائل القوة والعزة.

كذلك القعود عن العمل أو عدم الجد فيه فهو مفضي إلى التقهقر والتأخر، ولا ينفع القاعد إيمانه بالله وزهده في الدنيا، ولذلك ذكر الرازي " أن الرهبانية التامة توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل، وأما ترك الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعات فإنه يفيد عمارة الدنيا والآخرة، فكانت هذه الحالة أكمل"⁶⁴.

الفسوق: وأصله من قول العرب: "فسق الرُطْبُ إذا خرج عن قشره"⁶⁵، ومعناه العام هو الخروج عن طاعة الله، وهو، كما استخلص الراغب من تتبع لفظه في القرآن الكريم، "يقع بالقليل من الذنوب وبالكثر، لكن تُعورف فيما كان كثيرا، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ فاسق، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة"⁶⁶ قال الله تعالى: (ففسق عن أمر ربّه) [الكهف: 50]، (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) [السجدة: 18]، (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [النور: 4]

وقد حكى القرآن الكريم عن أمم سابقة، وقد مُكّن لها ما مُكّن، أصابها الهلاك والدمار بسبب فسوقهم وكثرة ذنوبهم، قال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) [الأنعام: 6]، وأوضح آية تكشف عن سنة الله في معاملة الفاسقين قوله تعالى في سياق تقرير

64- مفاتيح الغيب/ تفسير المائدة: 87.

65 التهذيب + المفردات/فسق

66- المفردات/فسق.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مسؤولية الإنسان في الاهتداء والضلال: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا مَا تَدْمِيرًا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) [الإسراء:16-17]

ومن النماذج البارزة في التاريخ التي مضت فيهم هذه السنة قوم لوط الذين ورد الخبر عن سلوكهم الفاحش وما ترتب عنه في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: (وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) [الأنبياء:74]، وقوله تعالى: (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) [العنكبوت:34]

4- موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان مع محيطه الطبيعي:

ونقصد إلى بعض الموانع والأسباب التي دلت عليها سننه تعالى في المفسدين في الأرض:

إن الأرض، بما تحويه من مكونات طبيعية، هي مكان الاستقرار الدنيوي للإنسان، وقد ارتبط ذكرها في القرآن الكريم بألفاظ الخلافة والاستخلاف والاستعمار والتمكين ونحوه في مواضع عديدة تدل مجتمعة على أن الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض وكلفه بعمارتها، ومكّنه من التصرف فيها وهياً له سبل العيش فوقها، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) [الأنعام:165]، وقال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) [هود:61]، وقال تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) [الأعراف:10]، قال الزمخشري مفسراً قوله تعالى: (مكناكم في الأرض): "جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معاش) جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصل به إلى ذلك"⁶⁷.

كما جعل سبحانه وتعالى نهيه عن الإفساد في الأرض غير منفصل عن الأمر بعبادته ودعائه، قال تعالى على لسان الرسل⁶⁸ في دعوتهم: (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [البقرة:60-الأعراف:74-هود:85] ، وقال تعالى(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]

ذكر القرطبي في تفسير الآية الثانية: "أنه سبحانه نهي عن كل فساد، قلّ أو كثير، بعد صلاح، قلّ أو كثير، فهو على العموم على الصحيح من الأقوال"⁶⁹، وقال أبو حيان: "ومعنى (بعد إصلاحها) بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين"⁷⁰.

وقد بين الله تعالى، من خلال ما عرضه من قصص الأمم السابقة، أن مصير المفسدين هو الدمار والخراب، فلا يدوم لهم عمران مهما بلغوا من درجة عالية فيه، ومن النماذج التي تتجلى فيها سنته تعالى الجارية في هؤلاء ما ورد من خبر مدين قوم شعيب عليه السلام، قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا

⁶⁷- الكشاف/ تفسير الأعراف:10.

⁶⁸- أي صالح وشعيب وموسى عليهم السلام في دعوتهم لمن أرسلوا إليهم.

⁶⁹- الجامع لأحكام القرآن/تفسير الأعراف:56.

⁷⁰- البحر المحيط/ تفسير الأعراف:56.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (الآيات [الأعراف:85-86] إلى قوله تعالى: (فَأَحَدَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيِبًا كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيمَا أَلْدَيْنَ كَذَبُوا شَعْيِبًا كَأَنَّا هُمُ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف: 91-92).

قال رشيد رضا: " { وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } من الشعوب المجاورة لكم كقوم لوط وقوم صالح وغيرهم ، وكيف أهلكهم الله تعالى بفسادهم ، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك "71.

ومن صور الإفساد المرتبط بعلاقة الإنسان بمحيطة الطبيعي:

إهلاك الحرث والنسل: قال تعالى: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ) [البقرة:205]، وقد ذكر الطبري أن الأولى بظاهر هذه الآية ما قاله السدي إن الآية نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي الذي مرّ بزراع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع، وعقر الحمر، ثم عقب قائلاً: " وذلك وإن كان جائزاً أن يكون كذلك، فغير فاسد أن تكون الآية نزلت فيه، والمراد بها كل من سلك سبيله في قتل كل ما قتل من الحيوان الذي لا يحلّ قتله بحال والذي يحلّ قتله في بعض الأحوال إذا قتله بغير حق بل ذلك كذلك عندي، لأن الله تبارك وتعالى لم يخصص من ذلك شيئاً دون شيء بل عمه "72. ونبه أبو حيان على أن "الإفساد شامل يدخل تحته إهلاك الحرث والنسل، ولكنه خصهما بالذكر لأنهما أعظم ما يحتاج إليه في عمارة الدنيا، فكان إفسادهما غاية الإفساد"73.

فالإنسان، بالرغم من مكانته المتميزة من بين المخلوقات كلها في هذا الكون، لا يملك الحرية المطلقة للتصرف كيف ما شاء في ما يوجد من ثروات حيوانية أو نباتية مسخرة لحفظ حياته وتحقيق الغرض من وجوده، قال تعالى: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) (النحل:66) ، وقال تعالى: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل:67).

71- تفسير المنار/تفسير الأعراف:86.

72- إجماع البيان/ تفسير البقرة:205.

73- البحر المحيط/ تفسير البقرة: 205

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وحين يسيء التعامل مع هذه المسخّرات، ويعبث بالموارد الأساسية التي يحتاجها الإنسان في عيشه، فهو يعرّض حياته لأخطار جمة تهدد حياته واستمرار وجوده فوق هذه الأرض.

الإسراف: إن أهم ما يميز المنهج القرآني في الحفاظ على المحيط الطبيعي هو الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك بالتوسط والاعتدال، والنهي عن الإسراف وتجاوز الحد في الانتفاع بالموارد المتنوعة⁷⁴، قال تعالى: (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأنعام:141]، وقال تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف:31]، كما قال تعالى: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ) [طه:81].

فالله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون على حالة معينة، وجعل كل أجزائه تعمل بقدر وميزان، كما جعل بينها ارتباطا وتفاعلا تتحقق معهما الحياة التي أرادها الله تعالى، قال سبحانه: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) [الرعد:2].

فالكون كله " يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة (...) فإن في الميل والانحراف إفسادا للنظام المرسوم، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظا لصالح الكون واستبقاء لقوامه"⁷⁵.

ومن هنا تظهر بعض أسرار الربط بين الإسراف والإفساد في الأرض في قوله تعالى مخبرا عن قيل صالح لقومه من ثمود: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [الشعراء:150-151-152]، كما يظهر عدل الله وحكمته البالغة في جعل مآل هؤلاء المسرفين الهلاك والدمار.

⁷⁴ الإسراف في القرآن الكريم يعم صورا متعددة من تجاوز الحد، كالإسراف في الإنفاق: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان:67] والإسراف في القتل: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) [الإسراء:33] والإسراف في فعل الذنوب: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) [الزمر:53]، والعناية في هذا الموضوع بالمعنى المذكور، دون غيره.

⁷⁵ الميزان في تفسير القرآن/تفسير الشعراء:151-152.

5- موانع وأسباب مرتبطة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان:

القتل وسفك الدماء: إذا كان الأمن من شأنه أن تزدهر معه الحياة بكل أبعادها، فإن الاعتداء على النفس الإنسانية وسفك الدماء هو اعتداء على القائم بالتعمير، وقطع للطريق نحو البناء المراد إنجازها على هذه الأرض، ولذلك ورد تساؤل الملائكة عما إذا كان الإنسان مؤهلاً لخلافة الأرض وهو بهذا الوصف "يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) [البقرة:30]، مما يعني أن من موانع تحقيق الخلافة في الأرض المستلزمة لتعميرها، سفك الدماء المقترن عادة بالفساد، كما جاء قوله تعالى في آية أخرى: (مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) [المائدة:32].

وقد تكررت إشارة القرآن الكريم إلى فعل القتل بغير الحق، ومنه قتل الأنبياء، باعتباره من الأفعال التي ترتب عنها الخراب والدمار فيما مضى من سنته تعالى في الأمم السابقة، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص:4]⁷⁶، ففرعون الذي ذبح الأبناء الأبرياء ضمن ما ارتكب من المفساد والمعاصي، كان مصيره الذي ذكر سبحانه تفصيله في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)⁷⁷ [الأعراف:137]، قال الطبري في تفسير هذه الآية: "وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع (...). وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخرّبنا جميع ذلك"⁷⁸.

⁷⁶- وينظر حكاية تذيب فرعون للأبناء في آيتي البقرة:49، وإبراهيم:6.

⁷⁷- قال الراغب: "العَرْشُ في الأصل شيء مُسَقَّفٌ، وجمعه عروش (...). ومنه قيل عَرَّشْتُ الكرم وعَرَّشْتَهُ إذا جعلت له كهيئة سقف (...). وسبى مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه (...). وكُتِبَ به عن العز والسلطان والمملكة" [المفردات/عرش]، ولذلك قال الطاهر ابن عاشور في تفسير (يعرشون) في هذه الآية: "ينشئون من الجنات ذات العرايش، والعريش: ما يُرْفَع من دوالي الكروم، ويطلق أيضاً على النخلات العديدة تربي في أصل واحد (...). ويجوز أن يكون (يعرشون) بمعنى يرفعون أي يشيدون من البناء مثل مباني الأهرام والهيكل وهو المناسب لفعل (دمرنا)، شبه البناء المرفوع بالعرش، ويجوز أن يكون يعرشون استعارة لقوة الملك والدولة ويكون دمرنا ترشيحاً للاستعارة" [التحرير والتنوير/تفسير الأعراف:137]. وقد أشار المفسرون إلى اختلاف القراءة في لفظ (يعرشون) بين كسر الراء وضمها، منهم الطبري الذي عقب على ذلك بقوله: "وهما لغتان مشهورتان في العرب، يقال: عَرَّشَ يَعْشِرُ ويعْرِشُ، فإذا كان ذلك كذلك، فبأيهما قرأ القارىء فمصيب لاتفق معنى ذلك (...). غير أن أحبّ القراءتين إليّ كسر الراء لشهرتها في العامة وكثرة القراءة بها وأنها أصحّ اللغتين" [جامع البيان/تفسير الأعراف:137].

⁷⁸- جامع البيان/ تفسير الأعراف:137.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الظلم: وهو من أبرز الأسباب المؤدية إلى تغيير نعمة الله وزوال العمران، ولعل أشهر عبارة لابن خلدون (ت808هـ) تداولها العلماء والدارسون تداولاً واسعاً هي: "الظلم مؤذن بخراب العمران"⁷⁹، وما تضمنته هذه العبارة هو قانون عام في البشرية، وسنة من سننه تعالى التي مضت في السابقين تواطأت على تقريرها آيات عديدة، منها قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) [الكهف:58]، وقوله تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [النمل:52]، قال ابن عطية في مطلع تفسير الآية: "خواء البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى به في كل الشرائع أنه مما يعاقب به الظلمة"⁸⁰، وقال الألويسي: "ولا يخفى أن كون الظلم بمعنى الجور والتعدي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الإعصار"⁸¹.

وقد استقبح القرآن الكريم الظلم بكل أنواعه⁸²، ومنه ظلم الناس بالقول والفعل، وشن عليه حملة لا هوادة فيها، قال تعالى: (وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [الشورى:40]، وقال تعالى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الشورى:42].

ولا يخفى أن عطاء كل فرد وإمداده المجتمع بطاقاته وتعاونه مع الآخرين كل ذلك رهين بحفظ حقوقه وشعوره بأمنه وكرامته، فإذا ما ساد الظلم توقف النشاط والحيوية وغاب روح التآلف والتعاون وتعبد الطريق نحو التدهور والانهيار.

⁷⁹ جعلها عنواناً لفصل بكامله، ينظر: مقدمة ابن خلدون: ص353. ومما جاء من كلام ابن خلدون ضمن بيانه المقصود من هذه العبارة الجامعة: "ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب، كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع، فقد ظلمه (...). ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران" [مقدمة ابن خلدون: ص355-356]

⁸⁰ المحرر الوجيز/ تفسير النمل: 52.

⁸¹ روح المعاني/ تفسير النمل: 52.

⁸² قسم الراغب ظلم الإنسان نقلاً عن بعض الحكماء إلى ثلاثة أنواع: الأول ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13]، ومنه قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) [هود:8] ونحوه، والثاني ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد في الآيتين المذكورتين في المتن أعلاه، ونحوهما، والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) [فاطر:32] ونحوه. وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما بهم بالظلم فقد ظلم نفسه. [ينظر: المفردات/ظلم].

خاتمة:

إن القرآن الكريم أثبت فعل العِمارة للكافرين، وبخاصة مع وجود أسبابها من العمل وشدة التصرف في الأرض وتنوعه، لكنه، سبحانه، قرر أن هذه العِمارة لا ترقى إلى العُمران الذي هو شأن المؤمنين، كما أنها عِمارة سرعان ما تزول، بمقتضى سننه تعالى الجارية في عبادته، لغياب أساسها المتين الذي ينبغي أن تقوم عليه، وما يجره هذا الغياب من أنواع الفعل الإنساني السيء مثل جحود النعم والفسوق والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل والإسراف وسفك الدماء والظلم.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص + كتب
- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1922م.
- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط1/2001م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4/1987م.
- المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1/1996م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم: الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط4/2009م.
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001م.
- لسان العرب: ابن منظور الإفريقي، تحقيق عبد الله علي الكبير محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د.ت.
- + برامج إلكترونية ومجلات:
- الجامع التاريخي لتفسير القرآن الكريم: برنامج إلكتروني شامل لأزيد من مائة كتاب تفسير، إصدار مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)، فاس، 2011م.
- مجلة حراء الصادرة من إسطنبول، المشرف العام: نوزاد صواش، العدد35، السنة2013م.

العمران في القرآن: المفهوم والدلالات

د. عبد اللطيف الزهري

جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية

المغرب

ملخص البحث:

تقتضي مهمة العمران المنوطة بالإنسان قيامه ببناء عمرانه المادي والمعنوي على أساس القرآن الكريم، فالقرآن أساس العمران، فإن يُبَيَّنَّ العمران على أُسُسِهِ معناه فقه الخطاب الشرعي وإدراك قصد الشارع أي فهم وإدراك دلالات مفهوم العمران في القرآن، باعتباره مهمة انتدبه الله لها، وجعل تحقيقها من مقاصد وجوده، وهو ما يوحي به اقتران إنشاء الإنسان بطلب تعمير الأرض وهو في جوهره مهمة تكليفية للمستخلف،

يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [سورة هود من الآية 61].

إنه بيان تكليفي للإنسان فرداً وجماعةً، بمسؤوليات العمران الجسيمة والمتمثلة في استخلافه وتمكينه من أمانة الأرض وناصية الكون، وتسخير له ليكون سيديا فيه، مالكا لمفاتيحه، متصرفاً في شؤونه، مستغلاً خيراته، منفذاً فيه إرادته، بالعمران والتغيير والترقية والتطوير.

وأهمية هذه الدراسة كونها تناقش تساؤلات وإشكالات تتعلق باجتزاء وسوء الفهم وعدم الاستيعاب الصحيح لمفهوم "العمران" في القرآن الكريم، فهو مفهوم إسلامي المنشأ أصيل، أساسي ومركزي في الدين، صاغه العقل المسلم في تفاعله الدائم مع نصوص الوحي، ذو دلالات ومعان إنسانية وحضارية تبرز القيم المشتركة والضرورية التي ينبغي أن تسود المجتمعات الإنسانية...

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إلا أن دلالاته ومعانيه طالتها تضييقات وتحديات أفقدتها استيعابيتها المؤطرة للوجود الإنساني؛ فتمَّ حصرها في تأويلات وممارسات حادت عن الأعمال المنهجي لمنظومة المفاهيم، فهماً وتنزيلاً، وأهملاً منطق اشتغال السنن والقوانين في صياغة وبناء النماذج الحضارية والعمرانية، فانعكس ذلك على كيان الأمة ونموذجها العمراني وعلى إسهامها الكوني والإنساني فيه.

فهل "العمران" مفهوم قرآنيّ تنسحب عليه خصائص الرؤية الاسلامية لوظيفة الإنسان في الكون المستخلف فيه؟ وهل حظي "العمران" بالعناية اللازمة لاستثمار إمكاناته في توجيه وترشيد الوعي والفكر الإنساني والعمران البشري عموماً؟ وكيف يمكن رفع الاختلالات والتضييقات التي تحدُّ وتعتقلُ دلالاته ومعانيه في تأويلات لا تعكس حقيقة الإسلام ومقاصده في استخلاف الله للناس، وتكريمه لهم، وتكليفهم، وإمداده لهم من رزقه، وإقرار الاختلاف والتنوع بينهم، ودعوتهم الى التعارف والتعاون والتدافع الإيجابي، ومراعاة سنن العمران، نهوضاً ونقضاً؟ يبدو أنه من المناسب قبل الولوج والعروج إلى عالم القرآن الكريم وبيان مدى مواكبته للعمران، العناية ابتداءً، بدلالات العمران اللغوية والاصطلاحية ومحاولة الكشف عنها.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الأول: مفهوم "العمران":**المطلب الأول: الدلالات المعجمية والاصطلاحية "للعمران":**

يحيل العمران معجمياً على مادة (ع م ر). حيث دار لفظ "العمران" في المعاجم في فلك معان منها:

1. البقاء وامتداد الزمان¹. (البعد الزمني).

2. العمارة مصدر يعمر نقيض الخراب، فالعمران نقيض الخراب². (البعد المادي).

3. القصد³. (البعد القيمي الهادف).

3. الإقامة. الإصلاح⁴. (البعد الرسالي الاستخلافي).

4. الحفظ والصيانة والخدمة⁵. (البعد المقاصدي الإصلاحي).

5. البنيان⁶ السكن⁷.

6. العبادة⁸. (البعد التعبدي الشعائري).

يلمع الثراء والخصوبة الاشتقاقية لمادة (عمر) إلى أن العمران لا يمثل مجرد لفظ أو مصطلح، بل هو منظومة معرفية مقاصدية كلية كبرى، حيث يدل معناه اللغوي على: البعد الزمني، والبعد المادي، والبعد القيمي، والبعد الرسالي الاستخلافي، والبعد المقاصدي الإصلاحي، والبعد التعبدي، والبعد التنظيمي، وهي مرتكزات ينهض بها العمران في الإسلام.

فكل فعل للإنسان يعمر به الأرض، يضمن له البقاء والامتداد في الزمان حتى يخرج عن وظيفته وعن أصله الذي هو الصلاح، فوجود الخراب يعدُّ نقيضاً للعمران، ومعه كل مُنشئٍ أقيم عملياً للخراب؛ وإن كان من

¹ ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1989م، ج 4، ص 141، مادة عمر.

² ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار الفكر - بيروت، ط1- 1410هـ/1990م، ج4، ص 201-206، مادة (ع م ر).

³ نفس المرجع.

⁴ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت321هـ)، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجبل، ط1، 1411هـ/1991م، مادة عمر، ص14.

⁵ نفسه، ج1، ص347، مادة (خ ر ب).

⁶ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جمهورية مصر، مكتبة الشروق العربية، ط4، 1425هـ/2004م، ج2، ص627-628، "استعمر".

⁷ إسماعيل، خالد علي، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، دار المتقين للثقافة والعلوم والنشر، بيروت ط1، 1430هـ/2009م، ص367.

⁸ ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص202، مادة (ع م ر).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

البنيان وكل ما يندرج ضمن دائرة العمران. من وظيفة العاقر صيانة العمران وحفظه، فالصلاح والإصلاح أصل في الكون حتى قبل خلق آدم عليه السلام؛ قال الله ((هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [سورة البقرة، من الآية 29]، وقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 55]، فقد كُلف الإنسان بواجبات إقامته في كل المجالات صيانة وتعهداً، لإسعاد الناس واستقامة أحوالهم من جلب للمصالح ودرءٍ للمفاسد تماشياً مع الفطرة ذاك الأصل الكبير في الرؤية القرآنية للكون، فالله عزوجل خلق كل شيء وسواه وأتقن صنعه في أكمل وأحسن صورة.

ومنه: فالعمران يقتضي وجود اجتماع بشري. سواء دلَّ العمران على: بقاء وامتداد زمان، أو ارتفاع الأصوات والبنيان، أو العمارة التي هي نقيض الخراب، أو الصيانة والحفظ والخدمة، أو القصد، أو الإصلاح، أو العبادة، هذه المعاني لا تتحقق دون التجمع البشري، الذي أكد عليها ابن خلدون في تعريف العمران؛ في الباب الأول: "في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات"⁹.

فالعمران في الاصطلاح العام ذو خصوصية مرتبطة بأصله القرآني وحمولته المقاصدية، وباعتباره كلية مركزية لتحقيق مقتضيات التسخير والاستخلاف.

يصل البوطي العمرانَ بمقصد جوهري: إقامة مجتمع وحضارة إنسانية راشدة، وإشاعة قيم العدل والإيجابية والفعالية للنهوض بواجب الاستخلاف¹⁰، ويربط فريد الأنصاري مدلول العمران بمقصده الحقيقي: بناء الإنسان، عقيدة وثقافة وحضارة، وفكرا ووجدانا، ونفسا ونسيجا اجتماعيا¹¹، وتحيله هبة رءوف على مجالات متعددة اجتماعية وسياسة واقتصادية وأخلاقية¹²، أما زياد الدغامين فيصّله بالعبادة والقيام بمهمة الاستخلاف¹³، ويقدمه مسفر القحطاني العمران من منظور سنني، فهو بناء إنساني تتكامل فيه أبعاد كثيرة تتخطى حصره فيما هو مادي بحت، تُشَيِّدُ صرْحَهُ ثنائياً وجدلية العلم "المعرفة" والقيم "الأخلاق"¹⁴، والريسوني يعدُّه من المصطلحات القديمة الاستعمال برز تداوله مقاصديا مع المتأخرين، ويورد نصاً للماوردي

⁹ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية في صيدا. بيروت، لبنان، ط1، 1995 م، ص46.

¹⁰ البوطي، سعيد رمضان، "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، دار الفكر للنشر، دمشق، الطبعة 1، 1982 م، ص: 26-27.

¹¹ الأنصاري، فريد، "بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام"، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 2009 م، ص: 168.

¹² عزت، هبة رءوف، "نحو عمران جديد"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2015 م، ص: 70.

¹³ الدغامين، زياد، "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 54، السنة 2012 م، ص: 36.

¹⁴ القحطاني، مسفر بن علي، "الوعي المقاصدي: قراءة معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة في مناحي الحياة"، بيروت الشبكة العربية للأبحاث، ط1، 2008 م، ص: 104.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يبين جزء من معنى العمران، يقول فيه: «مقتضى النظر في أمور الدنيا مراعاة أحوال تنميتها وعمرانها، فالواجب ستر أحوالها، والكشف عن جهة انتظامها واختلالها، لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها، لتنتفي عن أهلها شُبّه الحيرة، وتتجلي لهم أسباب الخيرة، فيقصدوا الأمور من أبوابها، ويعتمدوا على صلاح قواعدها وأسبابها»¹⁵ فالعمران إذن مقصدٌ شرعيٌّ يرتبط بمقصد استخلاف الإنسان، أي تنمية أمور الدنيا... والعمل على انتظامها وعدم اختلالها أو خرابها¹⁶.

في الاستعمال الخلدوني لمصطلح العمران: نجد مساحة شاسعة لأبعاد المصطلح وبأوجه متعددة في السياقات المختلفة. فقد استعمل مصطلح "العمران": بأوجه متباينة ومتقاربة، مفتاحا لتفسير ظواهر عمرانية عدة في: السياسة، والاقتصاد، والعلم، والتربية، والأخلاق، والعمارة، فمنحه قوة دلالية ومعرفية¹⁷. فالعمران يفيد: "التسكُن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات... من التعاون على المعاش، ومن العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي والجبال ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي في الأمصار والقرى والمدن... للاعتصام بها والتحصن بجدرانها"¹⁸. ليقرر "أن الاجتماع الإنساني ضروري... الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران"¹⁹. فالعمران عند ابن خلدون، خصيصة مميزة للإنسان تقوم على تعاون الناس فيما بينهم على معاشهم، "وإذا كان التعاون حصل له القوت... والسلاح...، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه، ومن هنا فإن هذا النوع من الاجتماع ضروري للنوع الإنساني... من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلته موضوعاً لهذا العلم"²⁰. أي علم العمران الذي توصل إليه في سياق نقده لمنهج المؤرخين، وجعله

¹⁵ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (لمتوفى: 450هـ) "أدب الدين والدنيا"، ص 821.

¹⁶ معجم المصطلحات المقاصدية، إعداد: عبدالنور بزا، جميلة تلوت، محمد عبديو. إشراف أحمد الريبسوني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية. ط1، 1438هـ/2017م، ص464.

¹⁷ حيث تناوله ابن خلدون من خلال ستة فصول، منها ما يتعلق بالعمران البشري والعمران البدوي، وفي الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية، والعمران الحضري والبلدان والأمصار، وكذلك في الصنائع والمعاش والكسب، ووجهه وأخيرا في العلوم واكتسابها وتعلمها.

¹⁸ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1408هـ/1988م، ص 53.

¹⁹ المقدمة، ص46.

²⁰ نفسه، ص46-48.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

علما مستقلاً "ذا موضوع هو: العمران البشري والاجتماع الإنساني"، وذا مسائل وهي: بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد الأخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً²¹. إنَّ العُمران يُثبَّت، ويستقيم، ويتحقق مقصدُ الاستخلاف منه، حين تتقوى الاستعانة بين الناس وتتأكد المُدافعة بينهم. للاستعمال الخلدوني لمفهوم العمران أوجه، منها:

الاستعمال 1: العمران مفهوم ومعنى مركب من الاجتماع الإنساني ومن تغير الأحوال لهذا الاجتماع بجميع أنواع التغير، وما ينشأ عن ذلك من الآثار المتنوعة، وغايته الحضارة.

الاستعمال 2: العمران علم مستقل بذاته، يمتلك الأركان الأربعة: الموضوع، الأعراض الذاتية، والمسائل، والمبادئ والمقدمات²²، علم عملي يتوجه إلى الواقع الإنساني ليغيره وفق مبادئ الوحي اليقينية الثابتة.

الاستعمال 3: العمران علم جديد، قال ابن خلدون: "نحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً، وأعثرنا على علم جعلنا سن بكره، وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسأله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق من الله...، وإن فاتني شيء في إحصائه واشتهت بغيره مسأله، فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق"²³.

نُحصِّل من استعمال ابن خلدون ومن تفصيلات مقدمته، عناصر تقربنا من الدلالة الاصطلاحية للعمران، فهو:

- (1) حركةٌ تفاعلية لمكونات الأمة والمجتمع مع الطبيعة والوجود العمراني، وما يحكم من سنن ناظمة ومنتظمة لظواهره وأحواله. (2) فاعليةٌ وفعاليةٌ وإنتاجيةٌ متكامل فيها أبعاد مادية وعقدية وإنسانية وقيمية لا يصلح العمران بافتراقها وانفصالها.
- (3) سننٌ ومعانٍ وغاياتٌ تتحدد بمنظومة عقديّة وفكرية تستجيب لحاجات العمران ذاته.

²¹ ابن خلدون، "تاريخ ابن خلدون"، ضبط: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1431هـ/2001م، ج1، ص49.

²² شرح مفصل لهذه الأركان في: محمد عابد الجابري، "فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 1992، ص103 وما بعدها.

²³ "مقدمة ابن خلدون"، ص46.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

(4) تعبيرٌ عن بناءٍ وصرحٍ حضاريٍّ نابِعٍ من رؤية الأمة المعرفية المتوازنة التي تستحضر القيم والمبادئ في تفاعل مع الوجود.

أسس ابن خلدون تعريف العمران باعتباره ضرورة إنسانية واجتماعية أساسية، على نزعة إنسانية ورؤية مقصدية²⁴، فالعمران ليس مفهوماً مادياً طبيعياً أو مجرد حالة ساكنة من الاجتماع البشري، بل نظامٌ وجوديٌّ دال على حركية التجربة الإنسانية في تفاعلها مع الدين والطبيعة، ينتج عن متبايناتها ظواهر ومجالات عمرانية ينظم وفق قواعدها وشروطها المجتمع البشري.

إن مفاهيم العمران متنوعة ومختلفة، وتناولها بشموليتها يفضي إلى المتاهات والإطالة والاستطرادات، لذلك أعرض هذه الدلالات اللغوية والاصطلاحية والتاريخية على المرجعية القرآنية لتقويمها وضبطها وتحريها مما علق بها من دلالات طارئة أو مستوردة، تنقية وتقوية وترقية، للحفاظ على المعنى الشرعي للمفهوم في صيغته المطلقة الشاملة المستوعبة، لأنه الأصل الحاكم والمهيمن والملهم للتجارب عبر التاريخ. والدلالة الشرعية أصل ينبغي أن يرافق المفهوم في رحلته، والاصطلاحات التاريخية كسبب يمكن أن تتغير زماناً ومكاناً بحسب مجالات استعمالها.

المطلب الثاني: "العمران" في القرآن:

رغم أن لفظ العمران لم يرد في القرآن هكذا، وإنما ورد فيه ما يفيد الإعمار والتعمير، بمشتقات اللفظ أو نواهضه ومعانيه.

مشتقات كلمة "العمران" في القرآن الكريم:

وردت اسماً لُنُسك العُمرة ثلاث مرات، فالمسجد الحرام عامرٌ بالمعتمرين، ومعموراً بهم على مدار العام، والعمرة طاعة لله وزيارة بيته الحرام بشروط مخصوصة، ومأخوذة من الاعتمار...ولذلك قيل للمحرم بالعمرة معتمر²⁵، للقيام بأعمال محددة في مكان مزدحم بالناس، وهذا يعني التقاء كلمة عمر مع العُمرة، في ازدحام المكان والسكن بالناس والقيام بأعمال محددة ((إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)) [سورة البقرة، من الآية 158]، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ

²⁴ نفسه، ص 47.

²⁵ "لسان العرب"، ج 4، ص 201-206، مادة عمر.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿سورة البقرة، من الآية [195].

ووردت متعلقة بعُمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها ثلاث مرات، والتخلق بأخلاق السجود لله، أخلاق الإيمان والإحسان في تكاملها ومجموعها، فإله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان على الصورة وفي الزمن والمكان الذي شاء ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾، وبعد النشأة تم أمر الله باستعمار الإنسان في الأرض التي سواها لمكثه قبل أن يسخرها لمآربه، ثم إن فعل النشأة الإنسانية وقع "مِنَ الْأَرْضِ" بأمر الله، ولا إمكان للعمران إلا في الأرض، ولا إشعاع فيها إلا من المسجد، فهي مسرح الفعل ومكان الابتلاء ومقر الدعوة وفيه كان بناء الأمة. ((ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) ﴿سورة التوبة، من الآية 17﴾، ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ ﴿سورة التوبة، من الآية 18﴾، ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ﴿سورة التوبة، من الآية 19﴾

وعمارة المساجد بلزومها وكثرة إتيانها وبالعمارة المعروفة في البناء. 26

وتشير إلى معنى الإقامة والاستقرار في الأرض وفلاحتها وبناء المساكن وتشديد القصور والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة الترحال والبادية. وقد تحدث الله عن أقوام أقاموا في الأرض مدة طويلة وامتلكوا فيها القوة وزرعوا الأرض واستخرجوا معادنها، قال تعالى: ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ 128 وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)) (129) ﴿سورة الشعراء، الآيتان 128. 129﴾ في إشارة إلى قوم عاد وقوم نبي الله هود، الذين اتخذوا المرتفع من الأراضي لبناء وتشديد القصور والحصون والمباني الضخمة معتقدين الخلود في هذه الأرض على الدوام.

وردت مرات بمعنى تعمير الحياة، قال الراغب: "العمارة نقيض الخراب، وأعمرتُ الأرضَ واستعمرتُها: إذا فوضت إليه العمارة، العُمُرُ والعُمُرُ: اسمٌ لمُدَّةِ عمارة البدن بالحياة، دون البقاء، والتعميرُ: إعطاء العُمُرَ بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء، والمَعْمَرُ المسكن مادام عامراً بسكانه" 27، والمعنى في مفردة العُمُر حين أقسم الله تعالى بحياة نبيه، صلى الله عليه وسلم، ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)) سورة الحجر، من الآية 72، تكريماً له.

²⁶ الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد، التفسير الكبير مفاتيح الغيب. ط 3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ، سورة التوبة الآية 17، ج 9، ص 16.

²⁷ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق عدنان صفوان داوودي، دار القلم دمشق، ط 4، 1430هـ/2009م، ص: 587.586.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وفي آيات قرآنية متعددة، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۗ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [سورة النحل، من الآية 70]، ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنٍ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [سورة القصص، آية 45]، إشارة إلى مرور الزمن في حياة الإنسان حتى يمرَّ من عُمره سنين، أو يطول عُمره، أو يبلغ أُرْدَلَهُ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِضِيًّا وَلَا يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس، الآية 67]، وقال الله: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُنزِلْكَ فِيْنَا مِن مِّنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء، الآية 18]. وقال تعالى: ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية 44]. فالعمر يدل على مدة الحياة، فطوبى لمن طال عمره وحسن عمله.

وردت مرة واحدة بلفظ استعمركم في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [سورة هود، الآية 61]، وأصل "الاستعمار" و"الإعمار" في اللغة تفويض عمارة الأرض لأي كان، فلازم ذلك يجعل الوسائل والأسباب في اختيار من يفوض إليه ذلك تحت تصرفه²⁸، قال الطبري مؤكدا معنى العمارة في الآية: "وجعلكم عُمَارًا"²⁹، وقال البيضاوي: "عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها"³⁰، فالاستعمار عند المفسرين الإعمار، أي جعلكم عامرين لها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض، التي كانت لهم منها منافع تناسب نعمة إنشائها، عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعمييرا للأرض حتى سمي الحرث عمارة، لأن المقصود منه عمر الأرض³¹. والاستعمار طلب العمارة، "والطلب المطلق من الله تعالى على الوجود"³². فمقصود هذه الآيات واضح الدلالة في بيان مقصود العمارة من خلق الإنسان وأنه واجب على مجموع الخليقة في القيام به، وقد نص الجصاص

²⁸ مفردات ألفاظ القرآن، ص: 587.586.

²⁹ الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، دار الرسالة، الطبعة الأولى 2000م، ج15، ص368.

³⁰ ناصر الدين البيضاوي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، تح. محمد المرعشي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1418هـ، ج3، ص103.

³¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير 103/3. والمعنى اللغوي في العمارة أو الاستعمار يراد به عمارة الأرض بالزرع و الحرث والبناء وهو قول كثير من أئمة اللغة، ومنهم ابن فارس حيث يقول: "من الباب عمارة الأرض. يقال عمر الناس الأرض عمارة، وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة. وقولهم: عامرة، محمول على عمرت الأرض، والمعمورة من عُمرت. والاسم والمصدر العمران: واستعمر الله تعالى الناس في الأرض ليعمروها، والباب كله يؤول إلى هذا". معجم مقاييس اللغة ج4، ص114 مادة عمر.

³² القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري، "الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)"، طبعة دار إحياء التراث العربي، 1405هـ، ج9، ص56.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

في تفسيره "أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض"³³. إنه تكليف إلهي للإنسان بالعمران، وبيان قرآني في أن الإنسان خُلِقَ من أجل ذلك، وهي مهمة عظيمة أُوكِلَ التكليف بها إلى الأمة بأكملها، يُجَلِّيه توجُّه الخطاب القرآني بالتكليف إلى مجموع الأمة صراحة أو ضمناً، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 104]. ، فدلالات مادة "عمر" في القرآن الكريم تحيل على مركبٍ جامعٍ بين دلالات مترابطة، هي "مقاصد ثلاثة أساسية خُلِقَ لها الإنسان، العبادة والخلافة والعمارة"³⁴. فمقصد العمارة في القرآن جاء وافياً ومفصلاً للعناصر الأساسية اللازمة للتعمير المنشود:

1- طبيعة التكليف الإلهي للإنسان بمهمة العمارة، وهي طبيعة الاستخلاف.

2- طبيعة العلاقة التعميرية بين الإنسان والأرض، وهي التسخير والارتفاق.

3- طبيعة العلاقة بين الناس، وهي الشهادة على الناس.

وهي: "تشكل مقاصد القرآن في العمران"³⁵.

فقد حصر ابن عاشور المقصد الأعلى للقرآن الكريم في إصلاح الإنسان فرداً وجماعة؛ ليضطلع بأعباء الإصلاح العمراني الشامل: "...فكان المقصد الأعلى من القرآن صلاح الأحوال الفردية والجماعية، والعمرانية"³⁶. ثم بين رحمه الله أن: "تشريعات القرآن (اعتقاداً وعبادة وأخلاقاً) هي وسائل لتحقيق الصلاح الإنساني الضروري للصلاح العمراني"³⁷. والوسائل لها حكم المقاصد.

³³ الرازي، أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق عبد السلام شاهين، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1994م، ج3، ص378.

³⁴ الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق أبي اليزيد العجمي، دار السلام، 2007م، ص3231.

³⁵ عبد المجيد النجار، "مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني"، مجلة: "إسلامية المعرفة"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد89، صيف سنة 1438هـ/2017م، ص71.

³⁶ محمد الطاهر، بن عاشور، "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، الدار التونسية للنشر 1984م، ج1، ص38.

³⁷ عبد السلام الأحمر، "استخلاف الإنسان في الأرض بوصفه مقصداً عاماً للقرآن والشريعة والحضارة"، مجلة: "إسلامية المعرفة"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد89، صيف سنة 1438هـ/2017م، ص104.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الثاني: من دلالات "العمران" ونواهضه في القرآن:

بقاء الحياة واستمرارها على السنن الكونية الجارية وامتلاؤها وبقاء المساجد عامرة بالمؤمنين العابدين
الذاكرين لله وانتظام الحياة، ألفاظ جاءت في القرآن الكريم دالة على مفهوم العمران ومقابلةً للفساد والقتل
وسفك الدماء والهدم والخراب والخواء³⁸، فأولى مهمات الاستخلاف العمراني: الحرية والعدل والرخاء والأمن،
وكل ما يُعَمِّر الحياة، ويبني البلد ويوفر ضروريات الحياة الكريمة وحاجياتها، ويحسنها بالعلم والفلاحة
والصناعة والتجارة وكثرة الناس ووفرة الأعمال وعموم الحرية والأمان. لقد ذُكِرَ "العمران" في القرآن بألوان من
المعاني المترابطة والمنسجمة تشكل حقلًا دلاليًا تتكامل دلالاته، وتحيل إجمالاً على حالة الحياة والامتلاء
والإقامة والسكنى والبناء والتشييد. فعمران الأرض يشمل الجانب المادي من الحضارة البشرية، والجانب
المعنوي والفكري والثقافي منها، فارتبط في الاستعمال القرآني بصنفيين من القضايا المتميزة في مادتها ودلالاتها
وعلاقتها ببعضها البعض، قضايا إيجابية تعبر عن الطبائع والأحوال الإيجابية ضمن نواضع العمران مثل:
العمارة والاستخلاف والتسخير والسير والأمن والعدل والتعارف والكرامة والكسب والمصلحة والمحافظة
والحضارة"، في مواقع مختلفة في القرآن الكريم، ويقابلها لواحق سلبية ضمن نواضع العمران مثل: التناقص
والتقلّب والقلّة والدلّة والفساد والقتل وسفك الدماء والهدم، والخراب والخواء والتغلّب والسكون والتبدّل
والتصرّف والحوّل والتفاوت والتّرف والاختلال والانتقال...

المطلب الأول: الاستخلاف من دلالات العمران ونواهضه.

"الخلافة" في اللغة: مشتقة من خَلَفَهُ يَخْلُفُهُ إذا قام بالأمر عنه، فهي وكالة أو نيابة عن الغير³⁹، ويقول الراغب:
"الخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبه المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف"⁴⁰. فمفهوم
"الاستخلاف" واضح الدلالة على معنى النيابة عن الغير، سواء نيابة خير تحقق العمران والإصلاح، أو نيابة

³⁸فتحي، حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1434هـ/2012م، ص:277.

³⁹"لسان العرب"، ج9، ص83، (مادة خلف).

⁴⁰معجم مفردات ألفاظ القرآن"، ص187.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

سوء تفضي إلى فساد وخراب العمران. وقد شكّل مفهوم "الخلافة" في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآءة (30)، وفي غيرها، موضوع خلاف بين المفسرين في تحديد الخليفة المستخلف⁴¹، ويمكن إرجاع اختلافهم إلى سببين:

الأول: مرده إلى الاختلاف هل كانت الأرض مسكونة قبل آدم عليه السلام؟

والثاني: يرجع إلى الاختلاف فيما إذا كان المراد بالخلافة معناها الحقيقي، كان المخلوف هو أحد المخلوقات التي سبق وجودها وجود الإنسان على وجه الأرض، أم معناها المجازي الذي يفيد أن الإنسان خليفة الله في الأرض⁴².

واختلف المفسرون أيضا في تحديد موضوع الخلافة أي الأمر الذي يخلف فيه الخليفة غيره.

ذكر أبو حيان في المسألة قولين: "أحدهما: الحكم بالحق والعدل. والآخر: عمارة الأرض، يزرع ويحصد ويبني ويجري الأنهار"⁴³. وباستعراض أقوال عدد من المفسرين⁴⁴، نجد أن معنى الخلافة انحصر في مفهوم النيابة الذي يستحيل في حق الله تعالى؛ مع احتمالها معنى النيابة في حدود ضيقة، يُمنح فيها الإنسان حرية الاختيار التي يكون بها مسؤولاً عن إرادته ومعتقده وسلوكه خلافاً لباقي المخلوقات، وفي وظيفة محددة وهي: "حفظ الدين وسياسة الدنيا"، وفي التعاقب على الأرض. ونعثر في مستوى تفسيري آخر⁴⁵ على دلالات ومعاني أوسع

⁴¹ يقول أبو حيان: "الخليفة، قيل: هو آدم لأنه خليفة عن الملائكة الذين كانوا في الأرض، أو عن الجن، أو عن إبليس في ملك الأرض، أو عن الله، وهو قول ابن مسعود وابن عباس" تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد عوض، زكرياء عبدالمجيد النوقي، أحمد النجولي الجمل. بيروت-لبنان: دارالكتب العلمية، ط1422هـ/2001م، ج1، ص288.

⁴² "التحرير والتنوير"، ج1، ص398-399.

⁴³ أبو حيان، "البحر المحيط"، ج1، ص289.

⁴⁴ ذكر الفخر الرازي من أوجه تسميته الإنسان خليفة: "لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي" الفخر الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. تفسير قوله تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة"، ونقل ابن كثير قولاً عن الطبري: "قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا أني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء فمن غير خلفائه" ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، وجامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري تفسير قوله تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة". وحتى القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تفسير نفس الآية.

⁴⁵ الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ابن عاشور: التحرير والتنوير. (تفسير الآية نفسها).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

لمفهوم الخليفة والخلافة والاستخلاف انطلاقاً من الآيات نفسها، لتشمل بالإضافة إلى تكليف الإنسان، تكريمه وتفضيله وتربيته وتعليمه ودعوته إلى إعمار الأرض والسعي فيها وفق نظام وسنن الصلاح والإصلاح، بعد أن هيأها الله سبحانه وتعالى لذلك، لتشمل أيضاً معنى: منح الله تعالى الإنسان مسؤولية الاختيار والفعل في الحياة الدنيا، فيتولى سبحانه محاسبته على اختياراته وأفعاله في الدار الآخرة. وهكذا تأخذ خلافة الإنسان عن الله بُعداً أخطر وأشرف في ذات الوقت، "فالله تعالى قد أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه وعلى ما في الوجود، وفي الأرض التي خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى"⁴⁶. إنها رؤية تفسيرية تستحضر الجمع بين مهمة القيام بالتكاليف والواجبات وبين مبادئ تكريم الإنسان وتفضيله وتزويده بالقيم المناسبة لأداء دوره وواجبه الاستخلافي، فلوجود الإنسان في الحياة الدنيا غايتان: عبادته سبحانه كما شرع، وعمارة أرضه كما أمر، وقد اعتُبرت (الخلافة) أحد مقاصد ثلاثة أساسية خلق لها الإنسان، العبادة والخلافة والعمارة⁴⁷. فالكون مجال استخلاف الإنسان، ومجال بناء عمرانته وحضارته، فهو مستعمر من قبل الله في الأرض، وهو حتماً مستخلفٌ بسلوكه وأفعاله وعمرانه، مادام يوافق الهدى الإلهي الذي بينته السنة النبوية، فغاية الاستخلاف مطابقة الأمر الوجودي للأمر الشرعي.

إن طبيعة علاقة الإنسان بالكون وإدراكه للسنن الفاعلة فيه، تحدد نموذج الحضارة والعمران، هل هو تفاعل سلمي تعارفي إصلاحي استخلافي نهوضي، يراعي الحياة المشتركة في الكون؟ أم تفاعل سلبي نقضي تراجع نكوصي صدامي تحكيمي، يراعي مصالح دون أخرى؟ فمن مقاصد العمران في المنظومة المرجعية الإسلامية- هي إنسانية بطبيعتها- تحقيق الانسجام بين الإنسان والكون بمنطق جدلي على اعتبار أن الإنسان أنثى من الأرض واستُعمرَ فيها ﴿وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [سورة هود، من الآية (61)]، فخرج من رحمها بالخلق، ووجب أن يعود إليها بالوعي، وهذا مقصد كبير من مقاصد العمران. ومن تم فمفهوم خلافة

⁴⁶ محمد، أبو زهرة، "زهرة التفاسير"، د.م: دار الفكر العربي، دت، ج1، ص194.

⁴⁷"الذريعة إلى مكارم الشريعة"، ص31-32.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الإنسان يشكّل الجوهر وأهم عنصر من عناصر المكونات العمرانية المحركة للتاريخ، فحركة التاريخ ناجمة عن علاقة بين الله تعالى إلهاً ورباً وخالقاً، وبين الإنسان خليفة مستخلفاً، والكون مسخراً وميداناً لفعل العمران والشهود الحضاري الإنساني. إن الإنسان محور ينبه لمهمة الاستخلاف ويحرك أصول الفعل العمراني باعتباره حاصل ائتمان الله تعالى لإنسان يستخلف في ملكه، مبتلىً في عمله، كيف يحسن أو يسيء ضمن ما سخره له الله تعالى، فيكون فعل الإنسان مستنداً إلى قاعدة التسخير منطلقاً إلى أصول التعبير مرتاداً كل آفاق الفاعلية والتمير.

إن مفهوم خلافة الإنسان، التي أعقبت الإعلان الإلهي: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية 29]، ارتبط ببناء حركي تحرك فيه الإنسان سيداً في الكون لا سيداً عليه، سيداً فيه بفعله وفاعليته، وليس سيداً عليه استعلاءً واستغناءً واستئثاراً، بمعنى أن تكون حركته الحضارية موافقة لأوامر الله ونواهيه، فتصبح الخلافة بذلك استئماناً على الكون والطبيعة والبشر، فالإنسان الخليفة مؤتمن، وجوهر الأمانة العناية بالقيم الخيرة التي ينطوي عليها المشروع العمراني في الإسلام. ويذكر ابن خلدون في "الفصل الأول من مقدمته"⁴⁸ فكرة تتعلق بالاجتماع الإنساني والعمران البشري وصلتهما بالدين، فهو يرى أن الاجتماع الإنساني ضرورة أولاً، مما يفهم منه أن افتقار الإنسان إلى الاجتماع مع أبناء نوعه ضرورة، وإلا لاستحال وجوده التاريخي، ويربط ذلك بحكمة الله تعالى في أن الاجتماع يحقق الاستخلاف، ومنه فالاستخلاف حقيقة مشروع جماعي وليس فردياً، وأن العمران لا يستقيم دون أن يتكون البنيان الاجتماعي، فالاجتماع الإنساني ضروري لأنه مقصود شرعاً⁴⁹، فعمارة العالم وتحقيق الاستخلاف يلزم له اجتماع الإنسان بالضرورة، وما كان ضرورة في تحقيق مراد الله تعالى، فإنه ولا شك مقصود معتبر شرعاً.

لقد كان الإعلان الإلهي والبيان الاستخلافي، عبارة عن ميثاق تأسيسي وعهدٍ للخلافة الإنسانية حيث تضمن خلق الإنسان وتكليفه بالمهمة والرسالة والوظيفة والدور الذي أنيط بعهدته للقيام والاطلاع به، قال الله: ﴿

⁴⁸ "مقدمة ابن خلدون"، ص 137.⁴⁹ المرجع نفسه، ص 46-48.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴿[سورة البقرة، من الآية 29]، فتسمية "خليفة" فيها دلالة على وظيفة الجماعة الإنسانية في قيادة الكون وإعمارها اجتماعيا وطبيعيا، وفيها تعظيم للمهمة حيث جعلت محكاً في هذا الابتلاء الإلهي لفعل وفاعلية الإنسان في العمران والحضارة⁵⁰، مما يؤكد قيمة وعلو هذه المهمة وسمو هذه الرسالة وأهمية هذه الأمانة التي لا ترتبط بمدة زمنية معينة ولا خاصة بعصر من العصور أو زمن من الأزمان، بل هي صيرورة دائمة، تناسب مع الإنسان على مر التاريخ منذ ميلاده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 167]. فالمهمة الاستخلافية التي كلف الله تعالى بها الإنسان وجعلها غاية لوجوده، تقتضي من بين ما تقتضيه، قيام الخليفة بترقية فعله اقتداء واهتداء بمُستخلفه واقتراباً منه تحقيقاً لمعاني هذا الاستخلاف على الوجه الأفضل الأكثر فعالية، ومنه فالإنسان الخليفة همه العمراني وجده وجهده واجتهاده وجهاده في الدنو والاقتراب من سيده مستخلفه من خلال العمل الدؤوب والكدح المستمر المستديم ترقية وتزكية لذاته، وتنميتها وتثمينها وتأسيس علاقات تحفز دافعية هذا العمران وفاعليته، ليبلغ مرتبة الاكتمال. فكل ما يقوم به الإنسان من عمران: انطلاقاً من إمطة الأذى عن الطريق أو إنارته أو تسويته...، والتي تدخل في قواعد تنظيم الخدمات والمرافق العامة، أو ما يتعلق بتنمية الذات الإنسانية، أو ترقية الهيئة الاجتماعية، أو استثمار المقدرات الطبيعية، يجب أن يكون مؤطراً بإطار الاستخلاف، بحيث ينطلق الإنسان في هذا العمران ويمضي فيه على أساس أنه مستخلف من الله تعالى، وموجه بتوجيهه فيما ينبغي أن يفعل، وما ينبغي أن يترك، فيكون العمران الذي ينجزه عمرانا استخلافياً، مع ترك فسحة للعقل ليحكم في التفاصيل التي لم يحددها الدين في إطار الكليات التي حددها بمنهج الاجتهاد، فهو إذن استخلاف عمراني في كل منجزاته المادية والمعنوية.

⁵⁰ سيف الدين عبد الفتاح، "العولمة والإسلام رؤيتان للعالم". تحرير منى أبو الفضل ونادية محمود مصطفى، دمشق دار الفكر 2009م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

هذا الكادح عمرانيا وحضاريا والذي تتبدى فيه الموجهات الكبرى للنسق القيمي الأعلى: الاستخلاف والتسخير وقبول حمل الأمانة، حظي ولازال بعناية ربانية قائمة وإعانة إلهية دائمة وغاية لازمة، إذ الاستخلاف الناجح يتطلب أموراً منها:

الأول: أن يكون للخليفة حَقُّ التصرف والتدبير فيما استُخْلِفَ فيه، أي التدبير والتصرف فقد فوضه بذلك على نطاق واسع، وقد جاء ذكر هذا الحق في التصرف والتدبير في سياق آية خلق الإنسان واستخلافه من سورة البقرة، وذلك له أكثر من دلالة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية 30]، خُلِقَ له ما في الأرض جميعاً فصَحَّ أن يكون خليفة الله فيها.

والثاني: أن تكون لهذا الخليفة القدرة على هذا التصرف، ويكون اختياره قائماً على العلم بإمكانيته وقدراته على هذا الاستخلاف، وقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة، وقد جمعت الآية الكريمة الأنفة الأمرين معا.

والثالث: تعليم آدم الأسماء كلها 51، كل الأسماء المرتبطة بمساره ومسيرته العمرانية والحضارية، تعليمٌ شكل قاعدة انطلقت منها أصول التكليف وحقائق التكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية 72]، فكلمة "عرضنا" تؤكد على حقيقة حرية الاختيار المسؤول، فالحرية حق وجودي أصيل، واختيار وتقييم ومفاضلة، والأمانة بما هي: إيمانٌ وعبادةٌ وإعمارٌ للأرض ووقفٌ للسفك والفساد تقدم حقيقة الرسالة العمرانية الحضارية، لأنها كلمة شاملة جامعة ودقيقة جمعت بين طبيعتي: الحياة الإنسانية والحياة الطبيعية التي سيواجهها المستخلف ويتعامل معها، وعميقة لارتباط أصلها الدلالي بالأمن والإيمان، إيمان الإنسان بربه خالقه، وإيمانه بذاته وبحياته ووجوده، وإيمانه بالإنسانية كلها، فالإيمان أصل شيوخ الأمن والاستقرار في كل جنبات الحياة العمرانية، وكلمة الأمانة لها ثقلها لأنها رعاية مستمرة وعناية قائمة وغاية ملازمة، ثم هي أيضا أداء وفداء وإيثار، ودون ذلك لا تصير الأمانة أمانة، وإنما تصبح استغلالاً واستئثاراً وأنانية. لقد حسم المستخلف أمره (وحملها الإنسان)، واستجاب تلقائياً للنداء الإلهي ممن خَلَقَهُ وَفَطَرَهُ على طبيعة قادرة مخصصة لهذه الأمانة، بعد إيباء السموات والأرض والجبال عن قبول هذه الأمانة والإشفاق منها، تعظيماً لخطرها وثقل أمرها، وتعبيراً منها عن ضعفها وعن ضآلتها، رغم هبة قوتها وضخامتها، أمام

⁵¹محمود، الدمرداش، "وعلم آدم الأسماء كلها، القاهرة"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

جسامة الغاية الكبرى التي وضعت لها الأمانة⁵². نعم إنه الإنسان الذي حظي بالتحفيز الإلهي تكريماً على ائتمانه في القيام بالعمراني الاستخلافي.

أما الرابع: التسخير باعتباره وجهاً من وجوه الإعانة الإلهية لمسيرة الإنسان العمرانية الحضارية، وهذا مودع في عدد من الآيات القرآنية، ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخرين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة البقرة آية 164]، ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [سورة الأعراف، من الآية 54]، ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [سورة النحل، من الآية 12]،... التي تصل إلى أكثر من عشرين آية تُظهر معاني التسخير.

هذه الإعانة التسخيرية منحت الإنسان الثقة في إمكاناته ومكانته لأنه جاهل رغم قدرته على العلم، وظالم رغم قدرته على العدل، ثقة في الشأن المادي في إطار التسخير وثقة في الشأن المعنوي في إطار التكريم والتفضيل على كثير ممن خلق⁵³. إن الخلافة في ذاتها أمانة ومسؤولية الوجود، فردياً وجماعياً، تشمل بالإضافة إلى تكليف الإنسان، تكريمه وتفضيله وتربيته وتعليمه ودعوته إلى إعمار الأرض والسعي فيها وفق نظام وسنن الصلاح والإصلاح، بعد أن هيأها الله سبحانه وتعالى له خصيصاً، فالحفاظ على الأمانة وحسن القيام عليها وتديريها هو الالتزام المصيري الأخلاقي الذي لا يقدر الإنسان أن يتنصل منه أو يتهرب منه أو يتحايل عليه، والمهمة الاستخلافية العمرانية ما كانت لتتحقق على أرض الواقع من غير تيسير من الله تعالى للإنسان بتسخير الكون وتوفير مقدرات هذا الانتفاع في عقل الإنسان وطاقاته المختلفة. فالاستخلاف لا يخرج عن أحد مسارين: مساراً يتوجه فيه الأدمي في حياته بهدي الوحي المنزل من الله تعالى، المبلغ على يد رسله الأخيار يناسب أن نسميه استخلافاً إيمانياً. ومساراً يقوم على أساس عقلي محض، يناسب تسميته بالاستخلاف الوضعي. لاريب أن أقدار الله تعالى وسننه في الأفاق والأنفس والتاريخ حاكمة حكماً شاملاً، مجسدة لإرادة الله التكوينية، التي فسحت

⁵² محمد عبد الواحد، حجازي، "القرآن ومنهج التفكير". ط1، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي 1993م. ونفس المؤلف، "مقومات البناء الحضاري في

الإسلام". القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1976م، ص92.

⁵³ سالم العدلي، دور العقيدة في المسار الحضاري، تونس: الزيتونة للنشر، 1989م، ص5 وما بعدها، أيضاً، عبد الفتاح بركة، العقيدة وبناء

الإنسان، القاهرة: دار التراث الإسلامي 1991م، ص8 وما بعدها.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

للإنسان التسخير في هذه السنن بوعيه وقدرته، ليتحمل الأمانة ويحقق الاستخلاف حراً مختاراً، ليتحمل المسؤولية في العاجل والأجل.

الاستخلاف في القرآن الكريم: حركة إنسانية إيجابية وفاعلة ودائبة ومستمرة، متناغمة مع سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح، والانتفاع بها، وتوجيهها لخدمته ولخدمة بني جنسه تحقيقاً لعمران إنساني في ظل منهج العبودية لله، حيثُ تنتفي مظاهر الخلل والفوضى والاضطراب، فمقاصد الاستخلاف: الإيمان والتعبد، والصلاح والإصلاح، والسعي بالحق والعدل، وفعل الخير والمعروف؛ وكلها قيم، فالأصل في الخلافة خدمتها وإقامتها والتمكين لها، لا أن تحل محلها وتتحول إلى غاية.

المطلب الثاني: التسخير مقوم استخلافي لإقامة العمران:

أ - من معاني التسخير في اللغة: "ذُلَّه لأمره وإرادته وكلفه عملاً بلا أجره"⁵⁴، و"التسخير: التذليل"⁵⁵، "وكلُّ ما ذَلَّ وانقادَ أو تَهَيَّأَ لك على ما تُريد فقد سُخِّرَ لك"⁵⁶. ويحيل ابن منظور مقررًا: "سَخَّرْتُهُ أَي قَهَرْتُهُ وَذَلَّلْتُهُ، إِلَى تَفْسِيرِ لُغْوِي لِلزَّجَاجِ"⁵⁷، إنه تفسير لغوي منهما يتجاوز تأكيد من الله تعالى وتعظيم قدرته سبحانه، إلى مجال عملي يستنفع من هذا التسخير لصلاح الإنسان في حياته، وليس مجرد مفهوم معنوي له إلهاماته الإيمانية على القلب فحسب.

⁵⁴ معجم مقاييس اللغة ج3، ص144. باب السين والحاء وما يثلثهما.

⁵⁵ الرازي، محمد بن أبي بكر، "مختار الصحاح" تحقيق: ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، ط1، 1315هـ/1994م، ج1، ص144، سخر.

⁵⁶ الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، "تاج العروس من جواهر القاموس" الكويت: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع 1965م، ج11، ص23، مادة سخر.

⁵⁷ "لسان العرب" ج4، ص353-354، مادة سخر..

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ب - وفي الاصطلاح: يعرفه ابن عاشور بالتذليل والتطويع⁵⁸، ويقول أبو السعود: "التسخير إمّا جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له، أعم من أن يكون مُنقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء... وما جعله منقاداً للأمر مذلاً... فإنّ جميع ما في السموات والأرض من الكائنات مسخر لله تعالى مستتبعاً لمنافع الخلق..."⁵⁹.

ج - التسخير في القرآن الكريم: تلمع الآيات القرآنية إلى معنيين مترابطين متلازمين:

1. ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، [سورة البقرة آية 164].
2. (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ﴿، [سورة الأعراف، آية 53].
3. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، [سورة النحل، آية 12].
4. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿، [سورة النحل، آية 79].
5. (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) [سورة الرعد، آية 2].
6. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَانِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، [سورة إبراهيم، آية 33].
7. (فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۗ وَكُنَّا) [سورة الأنبياء، آية 78].
8. (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَبِيرٌ ۗ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۗ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۗ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، [سورة الحج، آية 36].
9. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ) ﴿، [سورة الحج، آية 65].
10. ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۗ فَأَنْتَ يُؤْفِكُونَ ﴾، [سورة

⁵⁸ التحرير والتنوير"، ج1، ص144.

⁵⁹ محمد بن محمد بن مصطفى العماد، أبو السعود (المتوفى 982هـ)، إرشاد القل السليم على مزايا الكتاب الكريم، المشهور بتفسير أبي السعود،

دار إحياء التراث العربي، ج4، ص104.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

العنكبوت، آية 61].

11. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، [سورة لقمان، آية 20].
12. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، [سورة لقمان، آية 29].
13. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، [سورة فاطر، آية 13].
14. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، [سورة ص، آية 18].
15. ﴿سَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، [سورة ص، آية 36].
16. ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، [سورة الزمر، آية 6].
17. لِيَتَسْتَوْوَا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (سورة الزخرف، آية 12).
18. ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)﴾، [سورة الجاثية، آية 13].
19. (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الجاثية، آية 13)

الأول: تسخير بوظيفة تعريفية غرضها الإيمان وردت في سياق التعرف على عظمة الخالق المبدع وقدرته.

والثاني: تسخير بوظيفة نفعية غرضها الشكر وردت في سياق التعرف على عظمة صنعه في خلقه بتسخيره.

فالإنسان بمقتضى المعنيين عليه القيام بواجب التسخير عمارة (الشكر)، وواجب التعظيم لله عبادة (الإيمان)، ويختل الأمر إذا تفرد بأحدهما، فالمؤمن الجاهل بسنن التسخير العمراني ولو كان معظماً لله تعالى فهو مقصر في أداء واجب التسخير الاستخلافي العمراني؛ سواء كان واجبا عينيا أو كفائيا يقوم به البعض بدلا عن الكل، وفي المقابل إذا قام الإنسان بواجب التسخير مهملا غافلاً عن حق التعظيم والعبادة الواجبة لله تعالى، فهو مقصر في حق الله تعالى من العبادة والخضوع. فالعمران ما كان الإنسان لينجز منه شيئاً لولا أن الله تعالى هياً له أسبابه تسخيراً وتذليلاً وتطويلاً.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

لعل العلم ومعرفة العلل والحكمة من الخلق والأمر تجعل الإنسان عبداً لله على بينة واختيار قصدي ورضا نفسي وقناعة عقلية، ومن تفكر ونظر في شأن تسخير الكون زاد يقينه بخالقه، وعبده على علم، وانقاد له باستسلام العارفين.

إن التأمل في ربط العلاقة بين التسخير الكوني ومقصد التعظيم يلفت إلى معاني قول الشاطبي⁶⁰ في أن مقاصد التشريع إخراج المكلف عن دواعي الهوى النفسي نحو جواذب اليقين الروحي والعقلي، التي بإمكانها أن تُشكّل شاحداً رئيساً لاكتشاف نواميس الكون ومعرفة مجالات التسخير فيه، وكيفية خدمة الإنسان بذلك، فعلى العقل الذي يُخاطب بهذا الأمر الدقيق البالغ في تحديد مهامه الصالحة والإصلاحية، أن لا يضيّع وقته في مجالات لا تفيد؛ بل ينبغي أن يتفتّق فكره بالمخترعات والمكتشفات العمرانية التي تسهل عليه البناء، والحصول على الغذاء، وبلوغ السماء، وتوفير الرخاء، وقطع المفاوز والصحراء، وتيسير المصاعب وتقليل المخاوف والأعباء، وتحقيق الاجتماع، وغيرها مما يشغل بني الإنسان. إن تسخير كلّ تلك المظاهر الكونية والمخلوقات لا يتوقف عند حدود الانتفاع المادي فحسب، بل إن التسخير الكوني للإنسان يحقق مقصد تعظيم الله سبحانه وتعالى، فمن عرف ما سخره الله له وما أنعم عليه من المنن ومن القدرات وامتعه بالصفات العالية تكريماً وإعانة على القيام بأعباء الاستخلاف العمراني، كان ذلك أدعى أن يعبد الله حق العبادة ويعظمه حق التعظيم، فالتسخير يقود إلى مبدأ التوحيد الأعظم الذي هو ثمرة هذا الإعمار الواعي للكون، ولأنه نعمة تذكّر بالمنعم سبحانه وتعالى. ومنه فالعلاقة بين الإنسان وتسخير الكون قائمة وجوباً على التوافق والانسجام، وأي فكر أو حركة تجديد تهمل هذا التسخير وتحذر منه بحجة ذمّ الدنيا والإقبال على الآخرة يجعل الأمة في حالة ارتكاس، ويضيع به المسلم دنياه وآخرته معاً، بل يكون بذلك متجاهلاً لأوامر الله التي تحثه على الأخذ بأسباب القوة والاستخلاف وفق قوانينه في خلقه، مما يؤدي إلى تضييع أمانة الاستخلاف والعمران.

⁶⁰أبو إسحاق، الشاطبي، **الموافقات**، تحقيق، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م، 2/290، 289.":
المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً"

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

خاتمة:

- إن مفهوم العمران في القرآن الكريم يصدق على كل ما ينتجه الإنسان ويقوم به لاستثمار مرافق الكون والانتفاع بها، وتسخيرها في خدمة مطالبه وحاجاته الأساسية إسعاداً له وإعماراً للكون، فالعمران من مقاصد الشريعة، يجمع الصالحين، محققاً حسن السير في الأرض والقيام بمعاشها واحتياج الخلق منها، وهو مفهوم يرتكز على أشكال العبادة كارتكازه على أشكال العمارة.
- والاستخلاف في القرآن الكريم لا ينحصر في مفهوم النيابة، بل يجمع بين مهمة القيام بالتكاليف والواجبات وبين مبادئ تكريم الإنسان وتفضيله وتزويده بالقيم المناسبة لأداء دوره وواجبه. أي منح الله تعالى الإنسان مسؤولية الاختيار والفعل في الحياة الدنيا، فَمَنَحَهُ من قوة العقل والتفكير والتدبر، والسيطرة على نفسه وعلى ما في الوجود، وفي الأرض ليكون خليفة خلافة نسبية عنه سبحانه. فالاستخلاف عمران الأرض واستثمار خيراتها، وتسخيرها لما فيه مصالح بني آدم.
- إن التسخير في القرآن الكريم دعوة ظاهرة للإنسان للفهم والانتفاع من الكون، بالغوص في كنه المخلوقات وسبر أغوارها ومعرفة قوانينها وسننها الناظمة لحركتها، وبتوظيف طاقاته وقدراته العقلية ومؤهلاته البدنية التي حُصَّ بها في واجباته العمرانية، فالتسخير إذن ذو وظيفتين: تعريفية غرضها الإيمان والتعرف على عظمة الخالق المبدع وقدرته، ونفعية غرضها الشكر والتعرف على عظمة صنعه في خلقه بتسخيره، لأن تحقيق سُنَّة التسخير مفاده تسخير الموجودات لخدمة الإنسان، تحقيقاً لحاجاته الأساسية، ومساعدةً له على القيام بمهمته الأساسية، وهي عبادة الله تعالى وحده، وإفراده بها، وإعمار الأرض. فالآيات القرآنية تدعو إلى التفكر وإعمال العقل، وأخذ المعرفة من كل مصادرها، فالحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

""إرشاد القل السليم على مزايا الكتاب الكريم"، مصطفى العماد، أبو السعود (ت982هـ)، إحياء التراث العربي.

"أحكام القرآن"، الرازي أبي بكر الجصاص، تحقيق عبد السلام شاهين، طبعة دار الكتب العلمية، ط1/1994م.

"الاستخلاف والعمران، في ضرورة الوعي بقيم وسنن النهوض والسقوط"، سعيد شبار، م.د. المعرفة والحضارة، 2009م.

"البحر المحيط"، أبو حيان الاندلسي محمد بن يوسف، "تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد عوض، زكرياء عبد المجيد النوقي، أحمد النجولي الجمل. بيروت-لبنان: دارالكتب العلمية، ط1422هـ/2001م.

"التحرير والتنوير"، محمد الطاهر، بن عاشور، الدار التونسية للنشر 1984م.

"التفسير الكبير مفاتيح الغيب"، الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.

"التوحيد والتزكية والعمران"، طه جابر العلواني، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2003م.

"الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، أبو عبد الله الانصاري، طبعة دار إحياء التراث العربي، 1405هـ.

"الذريعة إلى مكارم الشريعة"، الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، تحقيق أبي اليزيد العجمي، دار السلام، 2007م.

"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ.

"المقدمة"، ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية في صيدا. بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

"الموافقات"، أبو إسحاق، الشاطبي، تحقيق، أبو عبدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م.

"الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقهِ العمران الإسلامي" مسفر بن علي القحطاني، ش.ع. للأبحاث، بيروت، ط1، 2012م.

"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، أبو سعيد، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق محمد المرعشلي، إحياء التراث العربي، ط. الأولى 1418هـ.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

"جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط 1، د.م: مؤسسة الرسالة، 2000م.

"مفردات ألفاظ القرآن" الأصفهاني، المعروف بالراغب، تحقيق عدنان صفوان داوودي، دار القلم دمشق، ط 4، 1430هـ/2009م.

"منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، البوطي، سعيد رمضان، دار الفكر للنشر، دمشق، ط 1، 1982م، ص: 26.

"وعلم آدم الأسماء كلها"، محمود، الدمرداش، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996م.
المعاجم، الدوريات والمقالات:

"تاج العروس من جواهر القاموس"، الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الكويت: الهداية للطباعة والنشر والتوزيع 1965م.

"لسان العرب"، ابن منظور، محمد بن علي، دار الفكر - بيروت ط 1- 1410 هـ/1990م.

"مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط"، جمهورية مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 1425 هـ/2004م.

"معجم المصطلحات المقاصدية"، إعداد: عبد النور بزا، جميلة تلوت، محمد عبدو. إشراف أحمد الربسوني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية. ط 1، 1438 هـ/2017م.

"معجم مقاييس اللغة"، ابن فارس، أحمد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ/1989م.

"إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، الدغامين، زياد، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 54، السنة 2012م.

"الدين والحضارة، حفظ العمران: مقصد شرعي"، مؤ. الفرقان للتراث الإسلامي، م.د.م. الشريعة الإسلامية، ط 1، 1440 هـ/2018م.

"القرآن الكريم والدراسة المصطلحية" البوشيخي، (دراسات مصطلحية 4) فاس. مبدع (ط 1/2002).

"سؤال التسخير الكوني للإنسان"، مسفر بن علي القحطاني، مجلة الترتيل، دار الأمان-المغرب، العدد 3، السنة 2016م.

"عبد الرحمن بن خلدون: قراءة معرفية ومنهجية"، إسلامية المعرفة، م.ع.ف.إ، العدد: 51، شتاء 1429 هـ/2008م.

"مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران"، إسلامية المعرفة، م.ع.ف.إ، العدد: 89، صيف 1438 هـ/2017م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

"مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني"، عبد المجيد النجار "إسلامية المعرفة"، م.ع.ف.إ، ع89، صيف سنة 1438هـ/2017م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مقومات العمران في القرآن الكريم

ذ. مريم حسين علي محمد السادة

دولة قطر

باحثة دكتوراه بجامعة محمد الخامس - المغرب

المقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فلقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم ليكون للإنسان النور والهداية والدستور الذي يرجع إليه في جميع أمور حياته، فيوجه الإنسان ويرشده، ويحركه نحو البناء والعمران بناءً مادياً ومعنوياً، يؤدي إلى ازدهار الحضارات، وتقدمها، وتطورها ونهوضها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9].

وإنه لمن واجب المؤمن أن ينهض بمجتمعه ويفجر طاقته في سبيل ممارسة الخلافة في الأرض والعمارة فيها بالخير، والتقوى، والعمل الصالح على النحو الذي يدعو إليه المنهاج القرآني الذي ينظم جميع العلاقات، ويبني الجسور التي تؤدي إلى عمران حضاري لا مثيل له؛ يتم من خلاله مراعاة الحقوق والواجبات، والتحلي بالأخلاق الفاضلة وأكرم الصفات، والرحمة بين جميع الكائنات، ويدعو إلى الوحدة والألفة بين المجتمعات، وازدهار الحضارات، والقوة والعزيمة والثبات، وكل ما يؤدي إلى الأجر ويضاعف من الحسنات، ويضبط للإنسان الحركات والسكنات، ويتفنن بالأساليب والمميزات، التي تحمل الكثير من الرموز والإشارات، وما فيها من إرشادات، وإنجاباً إلى روعة الآيات، وانتقاء الألفاظ والكلمات، التي تمتع العاطفة وتنمي العقل والقدرات، وتساعد على صقل المهارات، لما يحتويه من قصص ونماذج تحمل العديد من العبر والعظات، والدروس والهدايات.

وترتكز منهجية القرآن الكريم في بناء العمران، والمحافظة عليه حول المقومات الآتية: المقومات الأخلاقية، والمقومات الاجتماعية، والمقومات الفكرية والنفسية (العقل والروح)، والمقومات الاقتصادية، وهذا ما سيتم التطرق إليه في هذا البحث.

إشكالية البحث، وأسئلته:

إشكالية البحث تتلخص في: بيان منهجية القرآن الكريم في العمران من خلال المقومات العمرانية والمتمثلة في الجانب الأخلاقي، والجانب الاجتماعي، والجانب النفسي والفكري، والجانب الاقتصادي، وتدور مشكلة البحث حول الإجابة عن التساؤلات الآتية:

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

التساؤل الرئيس في هذا البحث: ما مدى أثر المقومات الأخلاقية، والاجتماعية، والنفسية، والفكرية، والاقتصادية في بناء العمران في ضوء منهجية القرآن، كما يتفرع من هذا السؤال أسئلة فرعية أخرى، منها:

- 1- ما هي المقومات الأخلاقية في القرآن الكريم؟
- 2- ما هو أثر القيم الاجتماعية على التجمع العمراني في ضوء القرآن الكريم؟
- 3- ما هو دور الفكر في بناء العمران من خلال منهجية القرآن الكريم؟
- 4- ما هي المقومات الاقتصادية في القرآن الكريم؟

أهداف البحث:

سيساعد البحث على تحقيق جملة من الأهداف، منها:

- 1- توضيح المقومات العمرانية من خلال منهجية القرآن الكريم، وبيان أثرها على الفرد ومجتمعه.
- 2- إبراز العلاقة بين العمران في القرآن ومجتمع الإنسان.
- 3- الاستناد إلى القرآن الكريم في تحديد الأصول والقواعد العمرانية من أجل النهوض بالحضارة الإنسانية والإسلامية، واستقرارها، وتحقيق التوازن فيها.
- 4- توظيف آيات العمران في القرآن الكريم وتوضيح مداركه.

منهج البحث:

- يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث سيتم وصف منهج القرآن الكريم في بناء مقومات العمران، والبحث في كتب التفسير حول بعض المدلولات والمعاني التي تخدم الموضوع، وتتبع المقومات الأخلاقية، والاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، واستنباط أثرها على الفرد ومجتمعه، والبحث في الآيات القرآنية الكريمة حول كيفية المحافظة على العمارة والعمران.
- جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع مقومات العمران، وتصنيفها حسب موضوعاتها في مباحث الدراسة.
- الاعتماد على التفاسير والمراجع الحديثة، واستنباط بعض الفوائد والنكت التي تدور حول الآيات من خلال الرجوع إلى كتب التفسير، والاعتماد في النقل على الأقرب والأوضح لمعنى الآية ومقصدها، مع الاقتصار على موضع الاستدلال من الآية غالباً، والربط بين الآيات حسب طرائق التفسير الموضوعي.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة التي لها علاقة بالموضوع.

خطة البحث:

- التمهيد.

-المبحث الأول: المقومات الأخلاقية، والاجتماعية، ويضم مطلبين.

-المبحث الثاني: المقومات النفسية والفكرية، والاقتصادية، ويضم مطلبين.

-الخاتمة: وتشتمل على النتائج والتوصيات والمقترحات.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الأول: المقومات الأخلاقية، والاجتماعية.

تعتبر علاقة الإنسان بأخيه الإنسان من أهم مقومات العمران؛ فبالمحافظة على تلك العلاقة القائمة على الأخلاق الفاضلة من عدل، ومساواة، وإحسان، بين بني الإنسان، والتي تنضمها منهجية القرآن الكريم قد يصبح المجتمع كالجسد الواحد، ويكون أكثر قوة وتماسكاً؛ مما يجعله مجتمع عمراني قوي ومتضامن يتشارك في بناءه أفراد المجتمع بجهودهم المشتركة.

وجاءت في القرآن الكريم العديد من القيم التي يغلب عليها الطابع الجماعي؛ هادفاً بذلك إلى تفعيل الحركة الاجتماعية بكل ما يخدم الذات الفردية والإنسانية من أجل تحقيق الخلافة في الأرض بأسمى صورها، وإنتاج نسيج عمراني اجتماعي لا يتفكك ويشد بعضه بعضاً، قال -صلى الله عليه وسلم-: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"⁽¹⁾.

المطلب الأول: المقومات الأخلاقية.

القرآن الكريم في نهجه البنائي يحث الإنسان على السعي في سبيل الله هادفاً إلى تحقيق حياة مستقيمة، ويقرر أن بناء الأمم وتقدم أفرادها وازدهار حضارتها مرتبط بالأخلاق، وانهدام الأمم وتقاعس أفرادها وتدهور حضارتها مرتبط كذلك بالأخلاق، يرهن على صحة ذلك "التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقاءها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه"⁽²⁾. ويؤكد المنهاج القرآني على ضرورة التمسك بالقيم الأخلاقية التي تعتبر مقياس لبناء الإنسان ومجتمعه، ويتضح ذلك من خلال العديد من الآيات القرآنية التي تبين عناية القرآن الكريم ببناء السلوك الأخلاقي في سائر حركة حياة الإنسان، فالإنسان مخلوق ولا أحد يعرف كيفية بنائه سوى خالقه.

والمتدبر لكتاب الله جل في علاه يجد صفوة الفضائل الأخلاقية التي تبني الإنسان وأخلاقه، وتعزز إنسانيته وكرامته؛ حيث يخاطب القرآن الكريم النفس الإنسانية بما يجول في خفاياها خطاباً يصلح حالها ويسعددها، ويكون الخطاب من خلال أساليب متنوعة تجذب المتدبر والمتأمل في الآيات القرآنية؛ حيث يتفنن بأسلوب الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ووصف الجنة وماتحملة من نعيم دائم جزاءً لمستحقها من أصحاب الأخلاق الحميدة، ويصف النار وما تحمله من عذاب سقيم لمن يستحقها من أصحاب الأخلاق الذميمة، وعبر القصة والمثل، والتقرير والتلقين من خلال أساليب الخطاب المتنوعة، والغوص في عالم الأخلاق الظاهرة والباطنة، والمقابلة والمزاوجة، والدعوة إلى المراقبة، والتنوع والشمول، واللين في النصح والقول. بالإضافة إلى ربط مكارم الأخلاق بالله جل في علاه، وبملائكته وكتبه ورسوله عليهم السلام وبكل ما ارتفع في المقام. وكذلك من خلال لفت الأنظار إلى أسلوب الحوار، والتكرار، والتفنن بالاستفهام، وغيرها من الأساليب.

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استقبال القبلة، ج1، ص114، رقم (481)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج16، ص140، رقم (2587).

(2) حبنكة، عبدالرحمن حسن، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، ص34.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وتتنوع منهجية القرآن الكريم في الأمر بالأخلاق، فتارة تأتي بأمر صريح وإلزام واضح لقيمة معينة، والنهي عن ما يضادها، وتارة أخرى تأتي بأمر مقارب لتلك القيمة وبيان قيمتها وفضلها وأثرها على الإنسان وأنها من صفات المؤمنين، فمثلاً جاء الأمر الصريح بالتعاون على البر والتقوى والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وجاءت آية أخرى تبين التعاون من صفات المؤمنين وتؤكد فضله وأثره عليهم، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

ويعتبر أسلوب الترغيب في الأخلاق الحسنة، والترهيب عن ضدها من أهم ما يمتاز به المنهاج القرآني، ويكون ذلك من خلال التأكيد أن الله سبحانه وتعالى يجازي من يتمسك بالأخلاق الحسنة ويثيب كل إنسان بعمله، ويجازي من يجحدها ويتمثل بما يضادها، "وقد تعددت في البيان القرآني صورة الجزر والوعيد والوعد والترغيب، وترمي كلها إلى إشعار الإنسان بمقدار ما تقتضيه خلافة الإنسان عن الله في الأرض من تحقيق مكارم الأخلاق"¹. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، ويتبعها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، فالآية الأولى تحمل وعداً للذين أحسنوا بأن لهم الجزاء والثواب الحسن والخلود في الجنة، وفي المقابل يأتي الوعيد في الآية التي تليها للذين أساءوا بأن لهم العذاب والعقاب لما قدمت أيديهم والخلود في النار، وفي هذا الصدد يقول محمد عبدالله دراز: يربط القرآن الكريم بين الفضيلة والسعادة، وبين الرذيلة والعقوبة، والفصل بين الأبرار والأشرار، تاركاً في ذلك الأثر العميق في نفوس العباد، موجهاً أنظارهم نحو الأخلاق الحميدة ذات الآثار المجيدة².

هذا ويقابل المنهاج القرآني القيمة الحسنة بما يضادها من القيم السيئة، ليظهر بعد ذلك الفرق الواضح بينهما، وما يترتب على الإنسان من أثر، على سبيل المثال قابل القرآن الكريم الصبر بالاستعجال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقابل الإصلاح بالإفساد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. ومن خلال المقابلة والمقارنة في الأسلوب القرآني تظهر البلاغة القرآنية في أجمل صورها؛ حيث تعطي رونقاً وامتعةً. تلفت الأنظار وتبهر الأبصار، وتدفع الإنسان نحو تلك القيمة التي جاء أسلوب التقابل بينها وبين ما يضادها لتجعل القارىء يدرك الآثار، دون شك أو إنكار، ولتوضح المعاني والأفكار،

¹ عرجون، محمد الصادق، الموسوعة في سماحة الإسلام، ج 1، ص 199.

² دراز، محمد عبدالله، دستور الأخلاق، ص 221، بتصرف.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وتكشف الأسرار، وتؤكد الأخبار. فحين يتتبع القارئ قيمة معينة تتشكل لديه خلفية حول أهمية تلك القيمة وأثرها عليه وعلى غيره من الأفراد في الدنيا والآخرة، ثم يأتي أسلوب المقارنة بينها وبين ما يضادها لتؤكد الفكرة أو بمعنى آخر لتظهر الفرق الواضح الجلي بين من يتمسك بالقيمة الحسنة وبين من يتمثل بعكسها، حاثاً بذلك على مكارم الأخلاق وأجلها.

كما تتنوع مجالات الأخلاق في القرآن الكريم لتشمل الجانب الإنساني وهو الذي يرتبط بعلاقة الإنسان مع خالقه سبحانه وتعالى والتي تمارس من خلالها أركان الإسلام، والجانب الأسري الذي يحدد علاقة الإنسان بمحيط أسرته وأقاربه، والجانب الاجتماعي الذي يربط الإنسان مع الآخرين، والجانب الوطني الذي يحدد الضوابط الدولية بين الحكام والشعوب، ويقوي العلاقات الدولية مع بعضها البعض، وسائر جوانب الحياة المختلفة. وجميع الجوانب تنشأ مجموعة من القيم والمبادئ الأخلاقية التي تركز إلى كليات مشتركة تؤدي إلى ارتقاء الفرد بذاته، وتحسين معاملاته، وضبط أفكاره ومعتقداته، وتقوية علاقاته مع جميع من حوله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، تختصر هذه الآية الكريمة العديد من المجالات الأخلاقية في مختلف جوانب الحياة الإنسانية بين المؤمنين، "وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض وله آدابه السلوكية في معاملاته. وهو عالم نظيف المشاعر، مكفول الحرمات، مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنه، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحرمتهم فيه لأدنى مساس(1)".

كما جاء أسلوب التكرار في القرآن الكريم يؤكد على بعض القيم الأخلاقية تارة، ويعظم شأنها تارة، ويحذر من عدم امتثالها تارة أخرى. وجاء التكرار بشكل صريح ومباشر لقيم معينة، وجاء بشكل يدعوا إلى ما يقارب لتلك القيم. كما جاء التكرار في بعض المواضع في اللفظ والمعنى موصولاً ومفصلاً، والموصول نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾ [الشرح: 5-6]: فتكررت هذه الآية بعد الآية التي قبلها مباشرة. وأما المفصول فقد جاء في صورتيه، الصورة الأولى: التكرار في القرآن كله نحو قوله تعالى: ((ويلٌ ليومئذٍ للمكذبين)) (المرسلات: ٤٧)، فتكررت هذه الآية الكريمة والتي تحذر من الكذب الذي يضاد الصدق في أكثر من سورة. والصورة الثانية: التكرار في نفس السورة نحو قوله تعالى في سورة الشعراء: ((وإن ربك لهُم العزيز الرحيم)) (الشعراء: ٩): حيث تكررت هذه الآية في نفس السورة ثماني مرات، وهي تؤكد أن العزة والرحمة من صفات الخالق سبحانه.

المطلب الثاني: المقومات الاجتماعية.

أولى القرآن الكريم الاهتمام البالغ بالمنظومة الاجتماعية، والجانب الجماعي وذلك من خلال إبراز عناصر تلك المنظومة تارة، وبيان خصائصها وطرق تقويمها تارة، وكيفية المحافظة عليها تارة أخرى. والمتأمل في آيات الذكر الحكيم يدرك أن جميع ما يندرج تحت الأحكام الشرعية إنما يصب في خدمة جميع

(1) سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ج6، ص3336.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الأفراد وليس فرد واحد فحسب؛ وهذا لا شك يؤثر إيجاباً على عجلة التنمية البشرية، وعمران الحضارة الإسلامية؛ "فالعمران الإسلامي عمران شمولي وواقعي وإنساني وعالمي، يحمل رسالة الإسلام لينشرها في العالمين، جميع الناس فيه سواسية، وصدوره مفتوح لكل من أراد الانضواء تحت لواء الإسلام، أيا كان موقعه في الزمان والمكان"¹. وعندما تتوحد أفكار المسلمين وتشارك أعمالهم وتكون موحدة أو تنتهي عند مفاد واحد، ويكون سعيهم في الأرض تحت أنظمة تشريعية وقوانين موحدة؛ لا شك ذلك يؤدي إلى الوحدة الاجتماعية وتعزيز روابطها.

وتضافرت الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو الإنسان إلى روح الجماعة، ونشر القيم الأخلاقية فيما بينها من خلال العديد من المهارات الجماعية، فالمتمأمل في الكتاب الكريم يرى العناية الفائقة بهذا الشأن؛ حيث تأتي معظم الخطابات التي تأمر بالتزام قيمة معينة، أو بيان أهميتها وفضلها على الفرد والمجتمع بصيغة الجمع، وإن كانت تأتي خطابات بصيغة المفرد، ولكن طابع الجمع هو الغالب، فمثلاً في سورة الفاتحة يأتي الدعاء بصيغة الجمع ليشمل دعاء الإنسان لنفسه ولأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿١﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: 5-6]، والأخلاق "التي تنمها العبادات في النفس ليس المقصود منها أن تكون أخلاقاً أنانية ذاتية للشخص نفسه فحسب، ولكن المقصود منها هو أن تكون أخلاقاً" لتشمل أخلاق الفرد نفسه مروراً بأخلاق الفرد مع غيره. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: 10]؛ فالقرآن الكريم يحث المسلمين على التعاون والوحدة، لا الأنانية والفرقة التي باتت تهدد الحضارة الإنسانية، وتأذن للمجتمعات بالزوال. ويدعو القرآن الكريم إلى التكافل والتكاتف بين المسلمين في جميع مجالات الحياة المختلفة، حيث "أخذ الإسلام يبني المجتمع بناءً واحداً متماسك الأطراف، وكان أول ما اتخذ من ذلك إيجاباً الحثُّ على التعاون والتراحم"²، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [المائدة: 2]. يقول سيد قطب: "من مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه. فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وجهده ونصحه، وفي إحقاق الحق في مجتمعه وإزهاق الباطل"⁴؛ فالإنسان لا يمكن العيش بمفرده بل لابد من انخراطه مع غيره، وبتعاونه مع أفراد مجتمعه وتكافله معهم على الخير تنهض المجتمعات وتتحقق الغايات، "ولذا كان من أبرز مظاهر الوعي في الأفراد: شعورهم بحق الجماعة عليهم، وتصرفهم في حدود التعاون الاجتماعي، فالدين الحق هو الذي ينمي روح الشعور بحق الجماعة، والأمة الراقية هي التي تغلب الروح الجماعية كل نزعة فردية وانعزالية في أبنائها"⁵.

¹ كهوس، أبو اليسر رشيد، العمران الإسلامي دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص 48، وص 50.

² صبح، علي، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، ص 267.

³ القطان، إبراهيم، تيسير التفسير، ج 1، ص 166.

⁴ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، ص 345.

⁵ السباعي، مصطفى، أخلاقنا الاجتماعية، ص 63.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

هذا وربط المنهاج القرآني أخلاق الإنسان بالحقوق والواجبات، وضمن لكل إنسان ما له وما عليه من حقوق، ووضع حدوداً وضوابط لا يعتدي عليها أحد، فكل إنسان له حرية الاختيار وحرية التعبير دون إجحاف حق أحد. وجعل المنهاج القرآني محور ضبط تلك الحقوق والواجبات الأخلاق فمتى صلح ذلك المحور الرئيس صلح حال الإنسان وسلوكه مع الآخرين، فالأخلاق هي التي تحرك الإنسان نحو احترام حقوق غيره من الأشخاص؛ وذلك لا شك يؤثر سلباً أو إيجاباً في ارتقاء المجتمع وتقدمه أو انحلاله وتعثره، ويتعدى ذلك الأثر من حقوق الإنسان إلى حقوق الدول، وما جاء من أوامر أخلاقية واجبة على الإنسان تعتبر أداة تحقيق لتلك الحقوق المشروعة، ونظام حقوقي مناسب ينظم حركة سير الإنسان في تعامله مع غيره، ويجعله أكثر التزاماً للقوانين المسنونة.

كما حث منهاج الله سبحانه وتعالى على حب الخير للناس ومساعدتهم في السراء والضراء، وهذا يدعو إلى التعاون بين المسلمين ليصبحوا بعد ذلك كالبنين المرصوص، قال- صلى الله عليه وسلم- في تراحم المؤمنين وتعاونهم فيما بينهم: "المؤمن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضاً". والمتبوع للآيات القرآنية يجد أن الأمر بالتعاون جاء في مواضع مختلفة، منها ما جاء بالفاظ صريحة، ومنها ما جاء بالفاظ أخرى غير لفظ التعاون ولكن ترمي له وتركن إليه. ومن الأوامر الإلهية التي جاءت بشكل صريح تأمر بالتعاون، قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، يشير الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة إلى وجوب تعاون المؤمنين فيما بينهم تعاوناً قائماً على الرحمة والمودة والإحسان وكل ما يحمله الخير من معنى، وبتقوى الله سبحانه وتعالى حق تقاته. ولئن أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بالتعاون على البر والتقوى، فكذلك نهى عن التعاون القائم على الشر وما يجلبه من إثم، وعن الاعتداء على حدود الله سبحانه وتعالى، وعلى الناس؛ فالله سبحانه وتعالى يعاقب الذين يتعاونون على الإثم والعدوان أشد العقاب. وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهنا جاء الأمر بالتعاون والاعتصام بحبل الله، وجمع المسلمين على الإيمان به وتوحيده، فهذا الحبل الرصين قد يتضامن جميع المؤمنين مع بعضهم البعض، وتتوحد كلمتهم، ويجتمع شملهم، وكذلك جاء النهي عن المفارقة، وعدم توحيد الكلمة، مذكروهم بنعمته سبحانه وتعالى عليهم حيث كانوا من قبل هذا الاجتماع والترابط القوي أعداء فيما بينهم، ولكن بفضل من الله ورحمة ألف بين قلوبهم فأصبحوا بعد ذلك إخواناً يحب بعضهم البعض، ويتعاونون فيما بينهم، وكانوا بسبب تلك العداوة سيدخلون النار ولكن أنقذهم منها خير الراحمين، يقول السعدي: "إن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاتتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا

¹ متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استقبال القبلة، ج 1، ص 114، رقم (481)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج 16، ص 140، رقم (2587).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم¹، فالتعاون من الواجبات الدينية التي يتم من خلالها اجتماع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وكذلك يعتبر من الضرورات الاجتماعية التي تتحقق من خلالها المصالح، وتتماسك فيها الروابط.

قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، توحى هذه الآية الكريمة بأن التعاون يبدأ من القريب إلى البعيد حتى يصل إلى المجتمع بأكمله، وكون بعضهم أولياء بعض يدل على التعاون والنصح فيما بينهم، يقول ابن عاشور في هذا الصدد: "فائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خلقاً للأمة"²، فبالتعاون تتحقق المصالح بكل يسر ولين، وبه تظهر ملامح التكافل الاجتماعي حتى يصبح طبعاً وسجية في المجتمع المتمثل به. وطبيعة المؤمنين يتشاورون فيما بينهم في أمور دينهم ودنياهم، مما قد يؤدي إلى إشاعة الرحمة والمودة بينهم، وتعزيز ترابطهم وتعاونهم دائماً وأبداً، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. هذا، وأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم- صلى الله عليه وسلم- على تطبيق مبدأ الشورى مع جميع من حوله؛ حيث قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية الكريمة: "إن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة"³؛ حيث لا يقتصر أمر الشورى في بعض الأمور عن بعض، بل يشمل جميع مجالات الحياة، وهو ضروري لبناء الدولة، وتحقيق مصالحها. ولا تكون الاستشارة من الضعيف إلى القوي، أو بمعنى آخر من الشعب إلى الحاكم فحسب، بل قد يستشير الحاكم أو صاحب السلطة ممن هو دونه من أصحاب أولي العلم والإيمان، ليعينوه على ما فيه صلاح وخير له ولمجتمعهم الذي يحكمه.

¹ السعدي، أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 141.

² ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، التحرير والتنوير = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج 6، ص 88.

³ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 5، ص 3160.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الثاني: المقومات النفسية والفكرية، والاقتصادية.

اعتنى المنهج القرآني بالتنمية المعنوية باعتبارها المحرك الرئيس الذي يدفع إلى التنمية المادية؛ فإعمار الذات المحور الأساس الذي يضمن استمرارية التنمية، ويؤدي إلى الإعمار الخارجي؛ حيث يحقق القرآن الكريم للإنسان حياته المتوازنة والتي يتم من خلالها تلبية الحاجات الروحية والعقلية، والمعنوية والمادية من خلال مخاطبة العقل، وإمتاع العاطفة، وما يقدمه من توجيهات عقائدية وأخلاقية ترفع الإنسان وترفع مجتمعه. والهدف الرئيس هو تربية النفس الإنسانية على الإيمان بالله سبحانه وتقواه، وحب الخير للغير، والعمل الصالح، وجاء هذا المبحث ليلقي الضوء على المقومات النفسية والفكرية، وما ينتج منها من مقومات اقتصادية تؤدي إلى نهضة الحضارة وتنمية المجتمع، وتم تقسيم المبحث على النحو الآتي:

المطلب الأول: المقومات النفسية، والفكرية.

تستند التعاليم القرآنية في بناء الفرد وعمران مجتمعه على الأساس الروحي، وعلى الأساس الفكري، وتلقي على العقل المهمة الرئيسية في تشخيص الأمور، وكيفية معالجتها وفق ما تقتضيه الحاجة النفسية التي تدفع الإنسان نحو الإنتاج والإعمار. وتأتي المعالجة القرآنية التي تقيم وتوجه حضارة الإنسان على أساس الربط بين الابتكار والتقدم، ونمو واتساع الفكر، وبين توجهات القيم والأخلاقيات النابعة من الدين والإيمان بما يمكن من قيام مجتمع متحضر ومتقدم⁽¹⁾. فبناء الجانب النفسي إنما يبدأ مع الإيمان بالله وحده؛ وهذا الإيمان كفيل بزرع القوة في نفس المؤمن، وبالتالي لا أحد يستطيع أن يعيق مهمته في عمارة الأرض؛ "فالعمران - وإن حصل الإيمان بالقرآن ومقاصده، وانكمش العقل دون المنهجية المثمرة - بوصفه مقصداً قرآنياً لن يكون له أي تحقق، وفي تاريخ المسلمين مصداق لذلك في كسبهم العمراني، وعلاقته في صعوده ونزوله بمنهجية التفكير خلال ذلك التاريخ"⁽²⁾.

هذا وتتقدم الجوانب المعنوية بما فيها النفسية والفكرية على الجوانب المادية بما فيها من موارد وإمكانات من ناحية الأهمية في مجال العمران؛ وذلك لما يقدمه الفكر في حركة نمو الإنسان، ونمو مجتمعه، ومواكبة المتغيرات والعوائق الحضارية، التي لا يساهم في تصويبها سوى العقل التابع من الفكر المقتبس من المنهج القرآني الحكيم الذي اعتنى بفكر الإنسان، وأحاط بجميع المجالات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، ودعى إلى التفكير والإمعان في معايير البناء الفكري والنفسية والاستفادة منها وتطبيقها على أرض الواقع في ظل الدروس الحياتية المختلفة، والتي يستطيع من خلالها الإنسان مواجهة كل ما يطراً عليه من تغيرات وتحديات إنسانية كانت أو حضارية. ولا شك أن للحالة النفسية الأثر البالغ في مقدار إنتاجية الإنسان، ولذلك يجب على الإنسان تأهيل ذاته نحو ما يخدم سلم التنمية والعمران؛ فلا بد في البداية من ترويض الأفكار، والكشف عن مكامن الأسرار المتوفرة في مختلف الموارد الطبيعية، ومحاولة الاستفادة منها، وتنمية العقول بالمعارف والعلوم المختلفة التي من شأنها تساهم في تحقيق الذات الإنسانية، وبناءها من الداخل والخارج على حد سواء؛ "فالإنسان يحتاج إلى منهج يدرك خصائصه وأبعادها، ويدرك

(1) جبر، محمد أمين، الإنسان والخلافة في الأرض، ص 139 و 168، بتصرف.

(2) النجار، عبدالمجيد، مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني، ص 76.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مسائله المحيطة به وأبعادها؛ لتكتمل صورة التكريم له، ولعمارة عالمه الباطني وعالمه الظاهري عن انسجام، وهذا لا يمكن أن يكون إلا ممن أدرك ذلك، وهو الذي خلقه فأحسن خلقه وخُلقه⁽¹⁾.

ويعتبر جوهر العمران في القرآن الكريم وعي الإنسان حول سبب استخلافه في الأرض أو أهمية وجوده فيها؛ مما يؤدي إلى تعزيز قواه العقلية، والنفسية، والبدنية نحو كيفية تطويرها وتقديمها من أجل ممارسة خلافته في الأرض على النحو المذكور في القرآن الكريم، واستخدام الثروات التي أودعها الله عز وجل لخدمة الإنسان؛ فهو مطالب باستغلال تلك الثروات بعلمه ومعارفه، دون الإغفال عن الجانب المعنوي وقيم الروح والمادة، التي يستطيع من خلالها تحويل الموارد الطبيعية إلى ما يخدم المجتمع؛ "فالجمع بين الجوانب المادية والروحية يعطي الاقتصاد الإسلامي خصائص مميزة لوضع نظام اجتماعي متوازن"⁽²⁾.

والإنسان يتميز عن بقية المخلوقات بالعقل الذي أوجده خالقه له من أجل التمكين والاستخلاف في الأرض؛ لذلك حضى الاهتمام بالعقل والعلم في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية العناية البالغة حتى أصبح العلم مقدماً عن سائر الأمور الأخرى؛ فبالعقل والعلم يتعرف الإنسان على خالقه، وعلى جميع أمور حياته، وبه يميز الخير من الشر، والحق من الباطل، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

هذا ويدعو القرآن الكريم العقل إلى التأمل في ملكوت السماوات والأرض، وكيف سخر الله سبحانه وتعالى للإنسان جميع ما في الأرض من أجل توظيف القدرات والطاقات واستغلال الموارد الطبيعية. كما يدعو القرآن الكريم إلى التفكير في دروب الكون وما فيها من نتائج سابقة، ودروس يستفاد منها في العمران، وممارسة الخلافة في الأرض بجميع الوسائل التي تحقق إنسانية الإنسان، وتقرر مسؤوليته تجاه نفسه واتجاه مجتمعه، وتجعله ساعي إلى الخير وباذلاً له، ولا يقصر في أدائه؛ نظراً لاستقامة فكره.

هذا ولأن أكد المنهج القرآني على أهمية العلم وفضله، ووضح كيفية بناء الإنسان المتحصن بالعلوم والمعارف، والمستغل لقدراته العقلية في الخير والصلاح؛ فكذاك نبه ونهى عن ما يضاد العلم أو يعيقه من جهل، واتباع ظن، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [النجم: ٢٨]؛ فالعمران الحقيقي إنما يبدأ من فكر الإنسان ومدى استيعابه بما له وما عليه من واجبات وحقوق تجاه التنمية. فما كان تشكيل الإنسان وبناء حضارته إلا من خلال نتاج فكره وعقله؛ حيث يعتبر العقل القائد الذي يسير جميع ما في الجسد فإن صلح الفكر صلح الجسد، وإن فسد فسد معه الجسد، وفسدت معه الأفعال والأقوال، وتحول الحق إلى باطل، وأصبح الفساد هو الجانب الظاهر؛ ولهذا أكد المنهج القرآني على ضرورة التدبر والتعقل في الآيات القرآنية الكريمة، وضرورة التفكير في الكون، وفي خلق الله سبحانه وتعالى، ولفت النظر حول العلم، ودوره في بناء الإنسان وإعداده نفسياً وسلوكياً، وكيفينا في ذلك نزول أول آية قرآنية كريمة تؤكد على العلم في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

(1) المطرودي، عبدالرحمن إبراهيم، الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص 416.

(2) براهيمي، عبدالحميد، العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي، ص 28.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كما يلفت القرآن الكريم النظر، ويجذب الفكر نحو بعض النماذج العمرانية السامية، موضحاً مدى غايتها من بناء المباني، وقيام الحضارات، وأنها غاية أخروية قبل أن تكون دنيوية، وغاية تسعى لرضى الخالق أولاً، على سبيل المثال ما بناه سليمان عليه السلام من صرح مشيد بالزجاج، والذي كانت الغاية الرئيسية من بناءه هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والإيمان به، ولفت النظر حول نعمه وآلائه وقدراته التي تفوق قدرات البشر؛ حيث بعد ما بنى سليمان عليه السلام الصرح العجيب الذي سبق عصره، دعى ملكة سبأ إليه لتنظر فيه داعيها إلى الإيمان بالله تعالى، وأن لا تشرك به شيئاً.

وبالمقابل يذكر لنا القرآن الكريم بعض النماذج التي عثت في الأرض فساداً، وتكبرت وطمغت واستخدمت نعم الله فيما لا يرضيه، كرفعون الذي بنا صرح عالي وضخم وكانت الغاية من بناءه التكبر والغلو والفساد والإعراض عن الحق، مبينة ما حل به من عذاب. هذا يطرح القرآن الكريم قضية فرعون وهامان نموذجاً للأنظمة المستبدة التي أفسدت في الأرض، والتي تخضع فيها أجهزة الدولة ومقدراتها في خدمة الحاكم لا الشعب والأمة، فتصبح تلك الأمم المضطهدة بكل جهودها وقيمها أسيرة ما يضيفه الحاكم عليها من تعاليم وفلسفات فاسدة تصبح فيما بعد أحكام وتشريعات⁽¹⁾.

يتضح مما سبق أن منهجية عقل الإنسان وفكره هي الأداة التي يتم من خلالها حماية الإنسان ومجتمعه، بل ويتم من خلالها حماية الدين والشريعة الإسلامية، وهي السبيل نحو إصلاح المجتمع وإعمارها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ تبين هذه الآية الآية الكريمة سبب اصطفاء طالوت والمتمثل في العلم والشجاعة وقوة الجسم، وهذا من شأنه تتحقق التنمية ويزدهر العمران.

المطلب الثاني: المقومات الاقتصادية.

اعتنى المنهج القرآني في الاقتصاد عناية فائقة كونه أحد أهم القضايا التي تساعد على تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية في عمارة الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ويتمحور البناء الاقتصادي في القرآن الكريم حول قضيتي التسخير والاستخلاف، فالتسخير بما فيه التمكين وتسخير المكونات والموارد الطبيعية لخدمة الإنسان، ولا سيما الإنسان الصالح الذي يقدر ما أنعم الله سبحانه وتعالى عليه ويستخدم تلك النعم كما أمر الله جل في علاه في محكم كتابه ويعمل على تطويرها وفق إمكانياته مما يعزز مكانته ويرفع مكانة مجتمعه الذي يعيشه.

ويؤكد المنهج القرآني أن الإنسان محور التنمية الاقتصادية والمحرك الفعال لبناء المجتمع وتطوره، وهو مصدر تحقيق الأمان البيئي الذي يواجه المتغيرات المختلفة؛ فينبغي على الإنسان التخطيط المستمر وعدم الإغفال عن هذا الجانب أبداً من أجل تحقيق التقدم الاقتصادي، وتحسين نمط الحياة المادية من حالٍ إلى أحسن حال؛ وذلك عن طريق العديد من الأمور التي من أهمها: استخدام الموارد المادية والطبيعية وتوظيفها واستثمارها، ووضع استراتيجيات وخطط بديلة في حال وجود أي اعتراضات أو عوائق تعيق

(1) كالم، محمد محمود، فلسفة العمران الحضاري من منظور قرآني، ص7، بتصرف يسير.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

استكمال المسير، وأن يضع الإنسان مهمة الخلافة في الأرض أمام نصب عينيه؛ فيحاول جاهداً العمل في تطوير أساليب الاستثمار، والانتفاع بالإمكانيات والمهارات، والمحافظة على الجهود السابقة التي بُذلت من أجل جمع الثروات حتى وصلت لهذا الجيل الذي نعيشه؛ فيجب علينا نحن أيضاً أن نهي للأجيال القادمة ما هياً لنا من المستخلفين في الأرض من قبلنا!

وأن يسعى ويبذل جهده ويعمل ويثابر ويكافح ويطور مهاراته وقدراته العقلية؛ بحيث يستطيع من خلالها اكتشاف الموارد الطبيعية واستثمارها؛ وذلك من أجل كسب الرزق الحلال، وإنتاج الطيبات، يقول -صلى الله عليه وسلم-: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له بعد صدقة⁽¹⁾؛ نلتمس من هذا الحديث الشريف الترغيب في الإنتاج الطيب العائد بالخير إلى الغير وبيان الأجر والثواب الحاصل من هذا الإنتاج الذي يعتبر جزء لا يتجزأ من العبادة.

ولقد استوعبت الشمولية في القرآن جميع الأمور فأقرت للفرد الخلافة، وأمرته بالعمارة، وفرضت الولاية، وحاربت الفساد؛ فخلقت ترابطاً شاملاً بين الفرد والمجتمع ونظمت العلاقة ما بين الاثنين تحت إشراف الحاكم؛ فالكل يسعى إلى طاعة الخالق ويوفي حاجاته دون إلحاق الضرر بالآخرين، والحاكم الجيد الذي يوفر كفاية الناس وينهض بعمران الأمة⁽²⁾.

هذا ويستهدف القرآن الكريم إيجاد دولة تتخذ منهجية القرآن الكريم وتقوم بوضع سياسي تضمن فيه مسارها الاقتصادي من خلال المحافظة على الموارد والثروات السابقة، والاستفادة من الموارد الطبيعية، والإعداد والتخطيط المسبق، واستغلال الطاقات والإمكانيات البشرية وغيرها. وتحقيق مبدأ العدل والتكافل والتكامل، وتطبيق الشريعة الإسلامية من تعاون ومؤاخاة، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. يقول السعدي: "إن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وباجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم⁽³⁾"، فالتعاون من الواجبات الدينية التي يتم من خلالها اجتماع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وكذلك يعتبر من الضرورات الاجتماعية التي تتحقق من خلالها المصالح، وتتماسك فيها الروابط. وكذلك من خلال عدم التمايز الطبقي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، والعديد من مكارم الأخلاق الأخرى التي تؤثر إيجاباً على اقتصاد الدول.

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس، ج 4، ص 5، رقم (2195). ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ج 10، ص 166، رقم (3003).

(2) العاني، أسامة عبدالمجيد، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ص 32، بتصرف يسير.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج 1، ص 141.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كما نقض المنهاج القرآني اقتصاد الجاهلية من ظلم، وبطش، وغش، وكسب حرام، وفساد في الأرض ابتداءً من الفساد الإداري مروراً بالبيوع الفاسدة، وانتهاك حقوق الناس، والربا، وغيرها من الأخلاق الذميمة التي لا شك تؤثر سلباً على اقتصاد الدول وتهدها.

واعتنى المنهاج القرآني في بناء الإنسان وتنميته ابتداءً من محتواه الداخلي وحتى عالمه الخارجي، كما وجه الإنسان إلى نظام اقتصادي دقيق يؤدي إلى تحقيق الأمن والسلام الداخلي والخارجي، ويقضي على جميع أنواع الاستغلال، ويبرز العلاقة بين الاقتصاد وقضيي التسخير والاستخلاف، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]. نرى في هذه الآية الكريمة المعنى الشامل لقضية التسخير وهو يشمل ما في الكون جميعاً؛ فهياً الله سبحانه وتعالى للإنسان النعم التي لا تعد ولا تحصى وجعل كل ما في الكون مسخراً لإرادته، حيث أمنه خالقه بأن يعمر هذه الأرض بما يخدم مقاصد الدين والدنيا وبما يحقق الأمن الاجتماعي والاقتصادي.

واستخلافه يستلزم وجود تنمية بشرية مستمدة من منهجية مثالية تحقق سعاده الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩)؛ نلتمس من هذه الآية استمرارية تنمية الأرض وإعمارها جيلاً بعد جيل؛ وذلك من خلال المحافظة على الموارد لدوام بقائها وضمان استمراريته، وتضافر الجهود من أجل تنميتها؛ لتحقيق الهدف الرئيس من وجود الإنسان على هذه الأرض وهو إعمار الأرض وتعميرها.

ويحدد القرآن الكريم أهم عوامل التمكين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)؛ حيث جاء في هذه الآية الكريمة ما يصون النفس البشرية ويقويها (الصلاة)، وما يطهر المالية (الزكاة)، وما يحفظ الأنظمة الحياتية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) خاتماً قوله في هذه الآية الكريمة بأن كل هذه العوامل ترجع عاقبتها إلى خالق كل شيء ومليكه الله سبحانه وتعالى.

كما يحدد القرآن الكريم منهجية الإدارة المالية المثالية التي تضمن للإنسان خيري الدنيا والآخرة، ويدعو إلى اقتصاد عادل متوازن تُستخدم من خلاله المواد والموارد استخداماً مثالياً، ويصل استخدامها إلى الأجيال القادمة بالمحافظة عليها واستثمارها وتطويرها، وجاءت العديد من الآيات التي تحدد ملامح الرشد في المجال الاقتصادي، من خلال الدعوة إلى التوسط في الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، أي: "الاقتصاد والتوسط بين الإفراط والتفريط وذلك هو الجود الممدوح فخير الأمور أوسطها(1)". كما نهى عن التبذير والإسراف الذي يهدر الأموال، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ

(1) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 8، ص 63.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿[الأنعام: ١٤١]؛ مشيراً بذلك إلى التوسط في الإنفاق، والتوازن والاتساق، لصيانة الأرزاق، وقال تعالى في التأكيد على الاعتدال في الإنفاق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ودعا إلى عدم اكتناز الأموال بل استثمارها؛ فتكون بذلك الأداة الفعالة للإنتاج النافع، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

كما جاء معنى التنمية في القرآن الكريم بما يقابل معاني العمارة والتعمير ويركن إليه؛ حيث يعتبر الاقتصاد أداة هذه العمارة التي هي من أهم مقاصد وجود الإنسان، والتي تشمل تطوير الموارد الطبيعية والبشرية، قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]؛ يقول السعدي في تفسير هذه الآية الكريمة: أي خلقكم واستخلفكم فيها وأنعم عليكم من النعم التي لا تحصى؛ لتوظفوها لما يخدم أنفسكم ومجتمعكم الذي تعيشونه، ولتبنوا وتغرسون، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها¹، وهذه دعوة إلى الإنسان أن يحقق ذاته من خلال توظيف الموارد المسخرة له بأن يعمل ويكد لخدمة دينه وموطنه الذي له الفضل عليه؛ مما قد يساعد على تحقيق المزيد من الدخل وبالتالي ينعكس ذلك إيجاباً على اقتصاد الدولة.

هذا ويتميز ديننا الإسلامي الحنيف بالأساس العادل في توزيع الثروات أثناء الشراكة أو المشاركة بين الطرفين فلا يؤخذ من مال أحد على حساب أحد، بل تكون شراكة في الربح والخسارة معاً، فلا ضرر ولا ضرار، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿[ص: ٢٤]؛ وجاء في تفسير هذه الآية الكريمة: "قال داود: لقد ظلمك أخوك بسؤاله ضم نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الشركاء ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلمه بأخذ حقه وعدم إنصافه من نفسه إلا المؤمنين الصالحين، فلا يبغى بعضهم على بعض، وهم قليل²؛ فالالاقتصاد الإسلامي يهدف إلى تحقيق التوازن بين مصالح الفرد خاصة، ومصالح المجتمع عامة.

¹ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج 1، ص 384، بتصرف.

² نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ج 1، ص 454.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

خاتمة:

من خلال ما سبق يتضح منهجية القرآن الكريم جاءت لتحافظ على جميع مقومات الحياة، وأسسها العمرانية من خلال المحافظة على الضروريات التي تحفظ المصالح، والمتمثلة في: المحافظة على الدين، والمحافظة على النفس وصيانة كرامتها، والمحافظة على سلامة الفكر والعقل وتنميته بالعلم، والمحافظة على النسل، والمحافظة على المال وكيفية استثماره بكل ما هو خير؛ يقول صاحب الموافقات: "الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، التي هي أسس العمران المرعية في كل ملة، والتي لولاها لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، ولفاتت النجاة في الآخرة⁽²⁾، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث:

- 1- عناية المنهاج القرآني في بناء الإنسان وتنميته ابتداءً من محتواه الداخلي وحتى عالمه الخارجي.
- 2- تنوع مجالات الأخلاق في القرآن الكريم لتشمل الأخلاق الإنسانية، والأخلاق الأسرية، والأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الوطنية.
- 3- عقل الإنسان وفكره من الأدوات التي يتم من خلالها حماية الإنسان ومجتمعه، بل ويتم من خلالها حماية الدين والشريعة الإسلامية، وهي السبيل نحو إصلاح المجتمع وإعمارها.
- 4- استخلاف الإنسان يستلزم وجود تنمية بشرية مستمدة من منهجية مثالية تحقق سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية.
- 5- يوجه المنهاج القرآني الإنسان إلى نظام اقتصادي دقيق يؤدي إلى تحقيق الأمن والسلام الداخلي والخارجي، ويقضي على جميع أنواع الاستغلال.
- وفي ضوء النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث من حيث عناية القرآن الكريم بمقومات العمران، وبيان أهميتها في بناء الفرد ومجتمعه، أرى أن أقدم بعض التوصيات، والتي من أهمها:
- 1- توظيف قدرات الإنسان وإمكانياته، واستغلالها فيما يخدم العمران، ويؤدي إلى ازدهار الحضارة الإسلامية.

(2) الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي، الموافقات، ج 1، ص 5.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- 2- ضرورة فهم الإنسان وإدراكه لحقيقة الاستخلاف وماهيته، وجوهر التسخير، وذلك من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم ومنهجيته التي وضحت خيوط الفعل الاستعماري.
- 3- التسلح بالقيم الأخلاقية التي دعت إليها المنهجية القرآنية، وبينت دورها في بناء الإنسان وازدهار العمران.
- 4- النهوض بالمجتمع وتفجير الطاقات في سبيل ممارسة الخلافة في الأرض والعمارة فيها بالخير، والتقوى، والعمل الصالح على النحو الذي يدعو إليه المنهاج القرآني الذي ينظم جميع العلاقات، ويبني الجسور التي تؤدي إلى عمران حضاري لا مثيل له.
- 5- زيادة الاهتمام بموضوع العمران وذلك من خلال الإكثار من الدورات والمؤتمرات العلمية التي تخدم موضوع العمارة والعمران.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- 1- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبدالباري (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- 2- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط3، 1407هـ/1987م).
- 3- براهيمي، عبدالحميد، العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1997م).
- 4- جبر، محمد أمين، الإنسان والخلافة في الأرض (مصر: دار الشروق، ط1، 1419هـ/1999م).
- 5- حبنكة، عبدالرحمن حسن، الأخلاق الإسلامية وأسسها (دمشق: دار القلم، ط5، 1420هـ/1999م).
- 6- دراز، محمد عبدالله، دستور الأخلاق في القرآن (دم: مؤسسة الرسالة، ط10، 1418هـ/1998م).
- 7- السباعي، مصطفى، أخلاقنا الاجتماعية (الرياض: دار الوراق، ط1، 1420هـ/1999م).
- 8- السعدي، أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا (دم: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).
- 9- سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، (بيروت-القاهرة: دار الشروق، ط1412، 17هـ).
- 10- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات، تحقيق: حسن آل سلمان (دم: دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م).
- 11- صبح، علي علي، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (دم: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- 12- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984م).
- 13- العاني، أسامة عبدالمجيد، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية (الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط1، 2002م).
- 14- عرجون، محمد الصادق، الموسوعة في سماحة الإسلام، (السعودية: الدار السعودية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت).
- 15- القطان، إبراهيم، تيسير التفسير (دم: دن، د.ط، د.ت).
- 16- كالو، محمد محمود، فلسفة العمران الحضاري من منظور قرآني، (مجلة فصلية: المجلس الإسلامي السوري، مقاربات).
- 17- كهوس، أبو اليسر رشيد، العمران الإسلامي دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، (مصر: دار الحكمة، ط1، 1434هـ/2013م).
- 18- المطرودي، عبدالرحمن إبراهيم، الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1410هـ/1990م).
- 19- مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، د.ت).
- 20- النجار، عبدالمجيد، مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني-مجلة إسلامية المعرفة 23، (د.ب: دم، د.ط، 1438هـ/2017م).
- 21- نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر (السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط2، 1430هـ - 2009م).

العمران والاستخلاف في البناء الحضاري

ذ. فتيحة ساطع

طالبة بسلك الدكتوراه، كلية الآداب بني ملال جامعة السلطان سليمان

المغرب

الملخص:

إن استخلاف الله تعالى للإنسان، وتكليفه بمهمة التعمير، والسعي في الأرض بالإصلاح والصّلاح، والاعتبار بأحداث الماضي تجنبًا وتفاديًا لمزالق الحاضر والمستقبل؛ فهو العنصر الأساس في تنشئة هذا العمران، وهو القيمة المحورية العاملة في نظم البناء الحضاري الإنساني، من خلال علاقة الإنسان بخالقه من جهة، وعلاقته بالكون وأخيه الإنسان من جهة أخرى لتحقيق مبدأ العبودية. ويوم غفل المسلمون عن "فقه العمران" على الوجه السليم ضعف شأنهم وانهار سلطانهم فخرب عمرانهم. والمتأمل في واقع المسلمين اليوم يكتشف دون عناء كثيرًا من العلل والأمراض، التي تناقض جوهر الدين وتخل بمقاصد القرآن.

Abstract :

God Almighty's succession to man, assigning him the task of reconstruction, striving in the land for reform and righteousness, and taking into account the events of the past in order to avoid the pitfalls of the present and the future; It is the basic element in the upbringing of this urbanization, and it is the pivotal value operating in the systems of human civilizational construction, through the relationship of man with his Creator on the one hand, and his relationship with the universe and his fellow human being on the other hand, in order to achieve the principle of slavery. On the day the Muslims neglected the "Jurisprudence of Urbanism" in the proper manner, their status weakened and their authority collapsed, so their architecture was ruined. The contemplator in the reality of Muslims today discovers without effort many ailments and diseases, which contradict the essence of religion and violate the purposes of the Qur'an.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وجعل له العقل مناطاً للفهم والعلم والتكليف بالأحكام، والصلاة والسلام على نبينا محمد (ص) الذي علمه ربّه وآتاه الحكمة وجوامع الكلم لدعوة الناس إلى الحقّ، وعلى آله وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

العمران والاستخلاف منظومة متكاملة العناصر توجي إلى الرقي الحضاري والانبعث الكوني ضمن دائرة القيم العليا، لا تخص الفرد فقط؛ بل تعمل في إطار جماعي، يخص الإنسانية كلها؛ لتحقيق التوازن داخل هذه المنظومة، الله - الإنسان - الكون، وتتكامل هذه العناصر في إطار منظومة معرفية قرآنية، وتهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور الإنسان في بناء العمران وتحقيق مقصد الاستخلاف في الأرض، فالقرآن الكريم دعا الإنسان إلى استثمار عقله وعلومه ومعارفه، لتسخيرها في عمارة الكون وتحقيق وجوده في الحياة. وهذه المكانة العظيمة التي شرفه الله بها، تقديس الملائكة له وتحمل الأمانة، وتكريمه بالاستخلاف ليؤسس حضارة ذات قيم عالية مبنية على تحقيق العدل والمساواة.

مشكلة البحث:

عبارة عن تساؤلات حول مشكلة العمران والاستخلاف والسؤال المطروح إلى أي حد ساهم الانسان في تحقيق مقصد العمران والاستخلاف في الأرض؟ ما هي العراقيل والصعوبات التي حالت دون ذلك؟ كيف نساهم في بناء مستقبل الأمة انطلاقاً من مقصد العمران والاستخلاف.

أهدافه:

الهدف من هذه الدراسة هو إعداد الانسان انطلاقاً من مقتضيات الوحي إعداداً شاملاً على المستوى الروحي والعقلي، فحاجة الأمة اليوم إلى منهج إصلاحي فكري لمعالجة الإشكالات المعرفية والمنهجية لتخرج مما فيه من تمزق وتعطيل لطاقتها من خلال جمعها بين كتاب الله المنظور وكتاب الله المسطور حتى تساهم في بناء العمران وتحقيق مقصده وغاية الانسان من استخلافه.

منهجه:

سأعتمد في مقاربة إشكالات وقضايا هذا البحث جملة من الأسس المنهجية والتي يمكن اختزالها في مايلي:
- المنهج الوصفي التحليلي: هو منهج تحليلي، باعتباره لا يقف عند مرحلة النقد والتصويب، بل ينتقل لتحديد القواعد والأسس المنهجية التي يمكن أن تساهم في البناء العمراني.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

-المنهج النقدي المقارن: فهو نقدي لما يسعى إليه الغرب والاتجاهات المنافية للإسلام في طمس الهوية الإسلامية وتعطيل طاقاتها وقدراتها وجعلها تابعة، كما أن هذا المنهج في حد ذاته ينطوي على ميزات أساسية عديدة، منها أنه يتسم بالموضوعية والدقة العلمية اللازمة لتحرير أي دراسة علمية منظمة وهادفة.

هيكلية البحث:

تم تقسيم البحث إلى مقدمة اشتملت على موضوع البحث، وطبيعته، وأهميته ومشكلته وضم ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مدخل مفهومي وشمل ثلاث مطالب:

المطلب الأول: العمران في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: الاستخلاف

المطلب الثالث: الحضارة في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: أسس العمران والاستخلاف ومقوماته وشمل مطلبين:

المطلب الأول: الإيمان والعمل الصالح

المطلب الثاني: الجمع بين المادة والروح

المبحث الثالث: مقصدية العمران والاستخلاف في البناء الحضاري وشمل ثلاث مطالب:

المطلب الأول: العمران في القرآن الكريم

المطلب الثاني: العمران والاستخلاف مقصد من مقاصد الشريعة

المطلب الثالث: الاستخلاف ودوره في البناء الحضاري

خاتمة

المبحث الأول: مدخل مفهومي

المطلب الأول: العمران في اللغة والاصطلاح

في اللغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس قوله: " العين والميم والراء أصلان صحيحان أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان، والآخر على شيء يعلو من صوت أو غيره، فالأول: العُمُر، وهو الحياة، وهو العُمُر أيضًا، والباب عمارة الأرض يقال: عَمَرَ النَّاسُ الأَرْضَ عَمَارَةً وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة والاسم والمصدر العمران"¹. وفي المعجم الوسيط عبر عن العمران ب" البنيان وما يعمر به البلد، ويحسن حاله بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجم الأعمال والتمدن، يقال: استبحر العمران، والعدل أساس العمران وعلم العمران عند ابن خلدون علم الاجتماع"².

وفي الاصطلاح:

من الاشتقاق اللغوي انبثق المعنى الاصطلاحي؛ ففي المفردات يقول الراغب: "والعمارة: نقيض الخراب يقال عمر أرضه: يعمرها عمارة. وقوله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة: 18]، إما من العمارة التي هي حفظ البناء أو من العُمرة - بضم العين وسكون الميم - التي هي الزيادة"³، واهتم ابن خلدون بعلم العمران البشري، وعبر عنه بالاجتماع الإنساني من خلال التواصل والتآلف والتعارف والانسجام والتدارس والتذاكر؛ وعده مرحلة انتقال من البداوة إلى التحضر؛ فكلما حصل الترف والإسراف عم الفساد والفوضى بقوله: "إن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات، بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد"⁴؛ فيشير ابن خلدون إلى أن كل تحضر بلغ أوجه يعقبه فساد. وأشار إلى أن التواصل شرط للعمران؛ إذ إن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع العيش وحده، بل لا بد له من يحاوره في جنسه، يحقق العمران من خلال أعماله بالواقع الذي يعيش فيه، يرصد أهدافه وغاياته وينمي مكتسباته وخبراته ويطور معارفه في جميع المجالات.

فالدولة في نظريته تولد بثلاث أجيال إذ يحتفظ الجيل الأول ببداوته، والثاني ينتقل من البداوة إلى الحضارة حتى يعم الاستقرار وتنكسر العصبية، أما الجيل الثالث فينغمس في الترف والملذات وبالتالي تنهار الدولة، حضارة

¹ - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (عمر) ص: 607.

² - إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، (2004-1425)، ص: 627.

³ - الراغب، المفردات، مادة(عمر)، ص: 586-587.

⁴ - ايف لاكسوت، العلامة ابن خلدون، دار الفرابي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م، ص: 190.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

البادية في الجاهلية حضارة إنسانية بسيطة منبثقة من عقل الإنسان يطبعها طابع الترحال من مكان إلى آخر فهي تحقيق ذات الإنسان على أحسن وجه تحقيق والسعي إلى الهدف المنشود الذي من أجله خلق.

وهذا ما تسعى إليه البشرية عن طريق الاجتهاد حيث أشار طه جابر العلواني إلى أن "الإنسان مدني بطبعه، لم يخلق ليحيا وحيداً، فوحدته الصغرى ليست الفرد بل الأسرة، ووحدته الكبرى الإنسانية لا القبيلة ولا القوم، وبين الوجدتين الصغرى والكبرى تبنى شعوب وقبائل ومجتمعات وأمم لتحقيق التعارف، فالتألف، فالتعاون باتجاه تحقيق آية العمران، وقبلها لا بد أن يتحقق بالعبادة انطلاقاً من التوحيد لتحقيق التزكية"⁵.

فالعمران يحمل معاني عميقة ودلالات مختلفة تندرج في إطار المصالح الشرعية وتحقيق الاستخلاف كما أشار إلى ذلك إبراهيم البيومي بقوله: "والعمران يعني: الحرية والعدل والرخاء والأمن، أو هو كل ما يعمر الحياة، ويبني البلد، أو المحلة أو الوطن، وكل ما يوفر ضروريات الحياة وحاجياتها"⁶.

المطلب الثاني: الاستخلاف

الاستخلاف هو بداية الوجود الإنساني على الأرض؛ ومثل الإنسان محورية وجوده إلى جانب المخلوقات الأخرى من الإنس والحيوانات، وميَّزه الله سبحانه عن غيره من تلك المخلوقات بالاصطفاء والتقدير، فمثل الإنسان الخليفة في الأرض يخلف بعضه بعضاً لتحقيق مهام الخلافة باعتبارها "ذات عمق ذاتي في أصل تكوين الإنسان وقدراته، وذات عمق إلهي في التسخير المطلق الذي يدفع بفعل الإنسان الحضاري"⁷.

وفي تعريف عبد السلام الأحمر لمفهوم الخلافة " كما أن الخلافة بمعنى النيابة عن الله في حدود حرية الإنسان ومسؤوليته، تتسع أيضاً لخلافة بني الإنسان بعضهم لبعض، فرداً عن جماعة وجماعة عن فرد، وأفراد عن أمة، وجيلاً بعد جيل وخلفاً عن سلف.. فالشخص الذي يستخلفه قومه عليهم، يتحمل مسؤولية جسيمة، تتعلق بتدبير شؤونهم العامة"⁸.

وقد أشار عبد المجيد النجار إلى أن: "وظيفة الخلافة ارتبطت بأمانة التكليف، فالإنسان هو الوحيد الذي حمل أمانة التكليف، مخاطبته وتمكينه من الاختيار بين أن يفي بما كلف به وبين أن يخل بالتزامه على أساس من

⁵ - طه جابر العلواني، نحو الاجتهاد والتجديد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، دار التنوير، الطبعة الأولى، (1429هـ، 2008م)، ص: 179.

⁶ - إبراهيم البيومي غانم، "مقصد حفظ العمران في الآداب والأحكام السلطانية والسياسة الشرعية"، سلسلة المؤتمرات، الدين والحضارة حفظ العمران مقصد شرعي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ص: 163. الطبعة الأولى، (1440هـ-2018م).

⁷ - محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان و الطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، دار الهادي، الطبعة الأولى 1435هـ-2004م، ص 245.

⁸ - عبد السلام الأحمر محمد الأحمر، استخلاف الإنسان في الأرض باعتباره مقصدا عاما بحث منشور بمجلة إسلامية المعرفة عدد 89 صيف 2017/1438، ص4.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

حرية الإرادة في الاختيار، وهذا التكليف على أساس حرية الإرادة هو السبيل الوحيد إلى الترقى والاكتمال في منهج العبودية الذي هو روح الخلافة"⁹. فالله سبحانه وتعالى منح الإنسان مسؤولية الاختيار في الحياة الدنيا ليتولى محاسبته على ذلك في آخرته، فأكرمه بالعقل للفصل بين الخطأ والصواب بين الحق والباطل، وأرشده إلى طريق الاستقامة من خلال منهج الأنبياء والرسل.

فالقُرآن الكريم دعا الإنسان إلى استثمار عقله وعلومه ومعارفه، لتسخيرها في عمارة الكون وتحقيق وجوده في الحياة، فكان استخلافه دعوة لعمارة الأرض وتأسيس نظام اجتماعي يسمح بتطوير القدرات الإنسانية داخل المجالات المعرفية والثقافية، وهذه المكانة العظيمة التي شرفه الله بها، تقديس الملائكة له وتحمل الأمانة كما في قوله تعالى: [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] (الأحزاب: 72)؛ فكان تكريمه بالاستخلاف ليؤسس حضارة ذات قيم عالية مبنية على تحقيق العدل والمساواة قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)} [البقرة: 30]

فالاستخلاف بهذا المعنى يتوقف على كيفية ممارسة كل فرد للأمانة، التي هي أساس الاستخلاف في الأرض، تقتضي من كل فرد أن يستشعر المراقبة لله تعالى في كل خطواته وأعماله وتحمل المسؤولية الجسيمة بإخلاص وصدق وعزيمة وإتقان؛ ف"عقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخلف الإنسان بسياسية ما استخلف فيه الأرض وفق ما يحب ويرضى المستخلف" الله تعالى" و الناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد وأصلهم واحد وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه"¹⁰.

وتجلت مكانة الاستخلاف في بعثة الأنبياء والرسل لنشر قيمة العدل والمساواة في الأرض والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ إذ خاطب الحق ﷻ نبيه داود في قوله ﷻ: { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) } [ص: 26]. فكان الاستخلاف الغاية منه تحقيق مبدأ العبودية لله تعالى، بدعوة الإنسان إلى التصرف والإصلاح في الأرض لتحقيق غاياته ومكتسباته وحاجياته؛ فاستخلف الله الإنسان على دينه ليؤمن به باختيار واقتناع ويلتزم بشرعه على المستوى الفردي والجماعي، واستخلفه على نفسه كي يركمها على أساس الدين

9- عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن- فيرجيبيا، الولايات المتحدة، الطبعة الثالثة، (1425هـ-2005م)، ص: 64 بتصرف.

10- محمد الحسن بريمة إبراهيم، رؤية القرآن للعالم الأهمية، التعريف والقضايا ص: 227-228. أعمال الندوة العلمية الدولية بعنوان: القرآن الكريم ورؤية العالم: مسارات التفكير والتدبير، الرابطة المحمدية للعلماء- الرباط، 5-6 شعبان 1435هـ- الموافق 3-4 يونيو 2014م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ونهجه الشامل، واستخلفه في الأرض كي يعمرها ويسعى في صلاحها بالتقوى ونشر العلم، يقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55].

فالاستخلاف يحقق معنى العبودية لله تعالى بالطاعة والامتثال للحق سبحانه، ويسعى إلى تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وضبط حريته بقوانين منظمة تؤطره داخل الكون بفعل ما أوجبه عليه الحق من مأمورات واجتناب ما نهاه عنه من محرمات. ومن هنا نفهم ان استخلاف بني آدم في الأرض إنما كان لأجل إعمارها بالحق وإخلاص العبودية لله، وهذا منتهى قمة الشهود الحضاري لكل أمة حققت مراد الله من الاستخلاف.

المطلب الثالث: البناء الحضاري

- الحضارة في اللغة:

الحضارة في اللغة: الحضور نقيض المغيب، والغيبة. حضر يحضر حضورًا و حضارة، و أحضر الشيء وأحضره إياه، الحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي، والحاضر المقيم في المدن والقرى والبادي المقيم بالبادية، يقال فلان من أهل الحضارة وفلان من أهل البادية وفلان حضري وفلان بدوي¹¹ والحاضرة والحضرة والحضر خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي لا يكون لهم بها قرار¹² وجاء في "المعجم الوجيز" الحضارة: "الإقامة في الحضر وهي ضد البداوة. والحضارة: هي مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر"¹³.

ومن خلال هذه التعاريف اللغوية فالحضر هي الإقامة في الأمصار أو المدن، بخلاف البداوة، وهي تدل على الرقي والازدهار في أنماط العيش و التخلق بأخلاق أهل المدن واللبس من سلوك وآداب ولغة فهي حركة التمدن في المجتمع.

- الحضارة في الاصطلاح:

الحضارة هي التقدم والازدهار في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية وينبني عليها التقدم العلمي والتطور التكنولوجي ... وهي تحقق غاية العمران كما أشار إلى ذلك ابن خلدون " أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة كما علمت، هي الترفن في الترف

11- لسان العرب، 4/197

12 - محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية الجزء 11ص: 40

13 - "المعجم الوجيز"، معجم اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة 1495هـ/1994م، ص 157.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه..... متى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل....."14

وعرفها ول ديورانت بأنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي. فالحضارة إذن تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"15.

واعتبرها مالك بن نبي هي الحاضنة للتقدم والمحيط لإشاعة الثقافة هو العلم، فعوامل تشكيل الحضارة عند مالك هي الوقت زائد التراب زائد الإنسان يساوي النتاج الحضاري، تمثل إستراتيجية إصلاحية تجديدية تهدف إلى تغيير الواقع الإنساني عامة، وقد ربطها مالك بالأخلاق كما في قوله: "هي مجموع من الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة من المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه"16.

فمصطلح الحضارة ليس له مفهوم واحد متفق عليه، إذ يختلف مفهومها حسب الأزمنة والأحداث والبلدان؛ فالحرية المطلقة عند الغرب هي الحضارة، عكس البلدان الإسلامية تعتبر انحراف عن الشرع، ومفهومها في علم السياسية يختلف عن علم الاقتصاد والفيزياء... والحضارة هي ما وصلت إليه أمة من الأمم في جميع النشاطات الفكرية والعقلية من علوم وفنون ومعارف، فهي عالمية تستوعب الآخر، ولا تسعى إلى إقصائه وتهميشه، بل تسعى للاستفادة منه والتعامل معه وفق خصوصية عقديّة ومعرفية.

فالبناء الحضاري قوي بذاته إذ يعتمد على أسس متينة منبثقة من الوحي الإلهي، ويعتبر الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية فكان لا بد من أن تكون حضارته حضارة متطورة تضم جميع تطورات الحياة الإنسانية ولا تقف عاجزة أمام متغيرات الحياة البشرية، " ففي إنتاج أفكار حية تطبع على مجتمع ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى والحضارات الأخرى"17.

ولا يتحقق هذا البناء إلا بمجهودات الإنسان عن طريق التعاون والتأزر والتضامن وتبادل للأفكار والمعلومات، في شتى شؤون الحياة من علوم وعمران، وثقافات وتقدم وتطور في مجالات الحياة المختلفة السياسية

14- ابن خلدون، المقدمة، دار الشرق العربي، بيروت، ط2004.ص: 339

15 -ديورانت، مقدمة قصة الحضارة، ج1، ص: 3 نقلا عن كتاب، "الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي" أبو زيد شلبي، ص: 8.

16 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، مكتبة عمار القاهرة، 1971م ص: 46_47

17 - مالك بن نبي تأملات، دار الفكر دمشق، 1985م، ص 189.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، والسعي إلى إنشاء حضارة إسلامية إنسانية عالمية مفتوحة على كل الحضارات ولا تحقق إلا بالرجوع إلى الوحي الإلهي المنبثق على أسس حضارية راقية وضوابط للحياة الإنسانية .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الثاني: أسس العمران والاستخلاف ومقوماته

يرتبط العمران بشروط وضوابط ومقاصد وأحكام وغايات، فكما شرع الله حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال، فقد أوجب حفظ هذا الكون من الإتلاف والإفساد، ودعا إلى اكتشاف أسرارهِ والمحافظة على جماله، وعدم تخريبهِ والإخلال بتوازنهِ؛ إذ يمثل ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية التي لا استغناء عنها، يتطلب منا التفكير والإبداع والاختراع والاستنتاج والتركيب والتحليل للوصول إلى الأهداف والنتائج، فالعمران الإسلامي هو عمران تواصلٍ مع النَّاسِ كافة يخص الفرد والأسرة والمجتمع، يحقق الخير للإنسانية ويسعى للرفق بها، ينطلق من الذّات ليستوعب الواقع، ويصلح فيه من خلال نشر مبادئ القيم الممزوجة بالوعي الحضاري والموازنة بين الجانب الروحي والمادي.

المطلب الأول: الإيمان والعمل الصالح

إن الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح هي منهج الأنبياء والرسل كما جاء في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55]، فالعمران غايته الإصلاح في الأرض وتكوين الإنسان في دائرة منظومة معرفية قرآنية متكاملة منسجمة مع الواقع ومبني على صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، حيث تتفاعل كلّ الطّاقات الإيجابية في الكون مع الإنسان لتنشئ لنا دائرة مركزية أساسها التوحيد وتفرعاتها من العمل الصّالح والعلم النافع.

وبذلك حقق الإيمان بالله وتوحيده ﷻ المرجع الأساس الذي تنبني عليه كلّ القيم لإنشاء الحضارة، إذ بلغ المسلمون في أوج رقيهم وازدهارهم مرحلة رفيعة من التّقدم في شتى الميادين العمرانية من خلال تركيزهم على أهم مبادئ الدّين الإسلامي المتجلية في التوحيد، والإقرار بربوبيته وتوحيد أسمائه وصفاته، وعدّ الإسلام هو أعدل نظام في تاريخ البشرية قائم على رعاية مصالح الناس، يدعو إلى الوحدة والجماعة والتعاون على البرّ والتّقوى ونشر الخير والصّلاح، والمحافظة على كرامة الإنسان من خلال منهج معتدل ومتوازن، يقضي على الظلم والفساد في الأرض، وهذا التشريع الرباني المنبثق من السنن الإلهية في الكون وُضع لتحقيق مصالح العباد ورفع الحرج عنهم.

إن الإيمان والعمل الصّالح يعطيان دفعة قوية للسير في حركة الحياة والعمل بالجد والفعالية، يقومان على منهج الوسطية والاعتدال ليتكامل المجال العلمي والمعرفي لإنشاء حضارة كونية أساسها التوحيد والإخلاص لله تعالى يسعى الفرد من خلالها إلى تحقيق مبدأ العبودية لله والخضوع له بالسمع والطّاعة، وإصلاح القلب وتزكياته من كل الشوائب وتطهيره ليرتقي إلى مراتب الإحسان، ويعطي الإيمان القوة والطّاقة الإيجابية للتخلي بالأخلاق

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الفاضلة، ونشر الخير والصلاح وتحقيق العدل والمساواة، والسعي للعمل والاجتهاد لتحقيق الغاية الأسمى لتكوين الشخصية الراقية لتوظيف السلوك والعمل في مجال الحضارة لتتفاعل ضمن دائرة عالمية القيم.

فمهما بلغت الدول من ازدهار وتقدم في عمراتها وحضارتها تبقى تعاني من الجانب الروحي المعنوي الذي هو أساس السعادة الدنيوية والأخروية، فكم من دول عاشت الرفاهية في حياتها المطلقة، ولكنها عانت من فقدانها للجانب الإيماني، فتعرضت بذلك لأمراض جمة من اكتئاب وضحك عيش وانتحار، ولفقدانها هذه النعمة "الأمن الروحي" فقد استخدمت كل طاقاتها في صنع وسائل الدمار والتخريب في الكون والإفساد فيه من قتل الأبرياء وسفك الدماء وتخريب البلدان؛ مما انعكس على فكرهم، ففقدوا طعم الراحة والطمأنينة والسكينة مقابل حياة الرهبة والخوف والقلق، وتلك سنة الله في الكون لقوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} [طه: 124، 125]، بخلاف المؤمن التقي مرتاح البال ومطمئن القلب والسريرة، يمنحه إيمانه المناعة والقدرة والصبر والإرادة والشعور بالرضا قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28].

ومن خلال ما سبق فالإيمان والعمل الصالح متلازمان لتحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، فخلقت الأرض لسعي فيها والعمل، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55]؛ فالعمل الصالح يتمثل في قوة إرادة الإنسان للسعي نحو العمران وتوظيف طاقاته في بناء الكون واستكشاف القوانين واستثمارها في المجال النافع للبشرية جمعاء، "فإعمار الكون ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، فلا بد للإنسان من أن يكتشف ويخترع، من أجل تذليل العقبات التي تعترض طريقه وتحول بينه وبين تحقيق ما يطمح إليه من سبل العيش الآمن والحياة الكريمة"¹⁸؛ فالعمل له ارتباط بالباطن من خلال تقويم السلوك الفعلي بالتركية، وصلاحية العمل تنبثق من حقيقة الإيمان بالله تعالى لتحقيق العبودية والسعي إلى ادخار عمله للأخرة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: 96].

المطلب الثاني: الجمع بين المادة والروح

لقد عرف العالم المعاصر اليوم تراجع العمران تراجعاً ناتجاً عن غياب الجانب الروحي وسيطرة الجانب المادي في أغلب الأحوال، مما أدى إلى اختلال التوازن الحضاري، فجفاء الحضارة الغربية وأزمتها تتجلى في ابتعادها عن الوحي الإلهي الحق وتركيزها على الجانب المادي فقط الذي يركز على العقل وحده كوسيلة للمعرفة؛ مما أوقعها في كثير من الأوهام، وأخضعها للأهواء والغرائز والشهوات، وتحول الغرب إلى مرجع يعول عليه في القيم

¹⁸ زياد الدين خليل الدغامين، "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، إسلامية المعرفة، العدد 54، السنة 14، (خريف 1429هـ-2008م)، ص: 28.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والأخلاق والمبادئ بعده قوة حاکمة ومهيمنة في جميع المجالات بعدما غابت سلطة المسلمين في الساحة وتأثروا بالأفكار الوافدة من الغرب.

فقد سعت الفلسفة المادية إلى إنكار ما وراء الطّبيعة وتقدمتها على الإنسان بعدها الكفيلة لتحقيق البناء الحضاري والعمراني، وقد تميزت كتابات المسيري بمناقشة مجموعة من الإشكاليات التي تخص الإنسان والطّبيعة، فهي فكرة محورية في مشروع الفكرية وهذه الثنائية ترتكز على ثلاثة محاور: الله والإنسان والطّبيعة بقوله: "ومن هنا تصبح الطّبيعة غير الواعية هي مرجعية الحضارة المعاصرة؛ وهي نظام يتحرك بلا هدف أو غاية، نظام واحد مغلق مكتف بذاته، توجد مقومات حياته وحركته داخله، يحوي داخله ما يلزم لفهمه، لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجه، وهو نظام ضروري كلي شامل، تنضوي كلّ الأشياء تحته"¹⁹.

فالعمران لا يقوم فقط على القيم المادية وحدها بل متناسقاً مع القيم الروحية بشكل متوازن لتحقيق السعادة والطمأنينة للفرد والمجتمع، وهذا ما أشار إليه كذلك طه عبد الرحمن بقوله: " ذلك لأن واجب الإنسان في العالم الائتماني أن يطلب التّقدم المعنوي كما يطلب التّقدم المادي، بل واجبه أن يجعل التّقدم المادي تابعاً للتّقدم المعنوي، وإلا فلا تقدم في إنسانيته حتى ولو بلغ ما بلغ من التّحقيق المادي لذاته، وحصل المجتمع الذي يؤويه ما حصل من ألوان الازدهار التقني"²⁰.

فما الفائدة من البناء والتشييد من فلاحه وصناعة وتجارة في فقه العمران إذا لم يتوفر الشّروط المعنوي في حياة الإنسان من إقامة العدل والمساواة والحرية وتوفير الأمن والسّلام والطمأنينة وخلق روح التعاون والإخاء والمحبة؟ فيكون شأن الخاصة من الأغنياء والحكام هو السهر على مصالح الناس والرحمة بهم، ويكون شأن العامة من النّاس الدّعاء للأغنياء والحكام بالخير ومزيد من البركة والقوة"²¹.

فكانت حاجة المسلم إلى منهاج معرفي حضاري متكامل بين الرؤية القرآنية والرؤية الكونية لتشكيل عقل إبداعي انطلاقاً من منهج التغيير مبني على رؤية كلية سليمة شاملة للكون والإنسان والحياة وعلاقتها بخالقها في إطار ثلاثية "التوحيد والاستخلاف والتسخير"؛ فالعلاقة الكائنة بين الوحي والكون والإنسان قائمة على التفاعل والتكامل والخضوع المطلق لله ﷻ يقول تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]؛ فالكون كله خاشع وخاضع لسلطة الله ﷻ وما على الإنسان إلا أن يستخدم منهج التفكير للتدبر والتبصر والاستكشاف للسّنن الإلهية في الكون.

19- ممدوح الشيخ، "المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية"، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطّبعة الأولى، 2008م، ص: 210.

20 - طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطّبعة الأولى، 2014م.

ص: 17

21 - فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هردن- فرجينيا - الطّبعة

الأولى، (1434هـ- 2013م). ص: 127 بتصرف.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إن العمران يسعى إلى الرقي الحضاري من خلال التمازج بين الجانب المادي والجانب المعنوي (تزكية النفس) لتحقيق الاستخلاف انطلاقاً من تفاعل إرادة الإنسان وإرادة الله وما شرعه الله له من عقائد وعبادات ومعاملات؛ فلا مجال لتحقيق الاستخلاف إلا بالعودة إلى الرؤية القرآنيّة بطريقة استنهاضية استشرافية بنائية لمسيرة الواقع، واكتشاف آليات الوحي وتنزيلها في الواقع، والمنهج القرآني يدعو إلى القراءة الجامعة، وينبه إلى ما في الكون من عناصر ومؤثرات، وإلى ترابط الأسباب بالمسببات وفعل الغيب بالواقع. ف" تجديد الصّلة بين الإنسان وخالقه: لأجل تصحيح وتقوية العلاقة الروحية بين الفرد وربّه، وتحقيقاً للعبودية الكاملة لله والاتصال المباشر به في إنتاج القيم والمبادئ الصالحة وإعمار الأرض بما يليق بمقام الاستخلاف لا بد من نهج طريق تزكية النفس والارتقاء بها إلى مدارج الفضيلة والسمو الكفيلين بجعل الفرد ضمن عباد الرّحمن"²².

إن أسس العمران والاستخلاف تكمن في الرؤية القرآنيّة المعرفيّة، ولا يتحقق ذلك إلا بانسجام الوحي مع الواقع، وكل انفصال بينهما مآله الخراب والخسران، وتلك سنة الله في الكون.

²²- سعاد رحائم، "الشباب والشهود الحضاري من منطلق الاستخلاف الإيجابي"، أعمال الندوة العلمية المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة الجديدة، منشورات المجلس العلمي للجديدة، بعنوان: الأمن الثقافي والسلم العالمي، بتاريخ 12 نونبر 2015. ص: 69.

المبحث الثالث: مقصدية العمران والاستخلاف في البناء الحضاري

يعد العمران مقصد أساس في حياة البشرية من خلال تعبير العمر في طاعته ﷺ ، وهذا الإعمار لا يتم إلا من خلال ممارسة الإنسان لمهمة الخلافة في الأرض؛ فهو حقيقة كونية شاملة للجانب المادي والمعنوي، فهو عملية مندمجة متواصلة عبر الزمان والمكان، بين الوحي والواقع، العقل والنقل، بين الروح والمادة، فسبب هلاك الأمم والشعوب وتراجع الحضارة ناتج عن النظرة التجزيئية التي أهلكت الإنسان وكل ما يحيط به من مقومات ومغريات مادية، ساهمت في إبعاده عن القيم الروحية .

المطلب الأول: العمران في القرآن الكريم

العمران مفهوم مركزي في مفاهيم القرآن، ويقابله " الفساد والقتل وسفك الدماء والهدم والتدمير والخراب"²³، وقد وردت مادة عمر في القرآن الكريم خمساً وعشرين ومن معانيها نذكر منها:

- التعمير والإسكان، والإقامة والاستقرار قوله تعالى: { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } [الروم: 9].

- "البيت المعمور" في قوله تعالى: {وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ} [الطور: 1- 4]

- وبالزمن في قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ} [النحل: 70].

- العمر في قوله تعالى: { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ } [فاطر: 11].

- والعمرة: الزيارة التي فيها عمارة المساجد وبنائها، يقول تعالى: { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ (17) } [التوبة: 17].

- الحياة: قوله تعالى: {الْعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: 72]. ولا تغيب العلاقة بين العمران والحياة في تحليلات ابن خلدون، في حياة الأفراد والمجتمعات وحياة الدول، فهو " يتحدث عن أركان ثلاثة للعمران البشري على هذه الأرض: الركن الأول: هو تقوى الله، وهو حياة للقلب بتزكية النفس من الأهواء والشهوات، والركن الثاني: هو السعي في الرزق، وفيه حياة المجتمع بالتعاون والتكافل والتكامل، لأن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يستجمع متطلبات المعيشة والأمن. أما الركن الثالث: فهو العدل في الحكم، وهو حياة الدول بالعصبية واستجماع متطلبات السلطان"²⁴.

²³ - ملكاوي، منظومة القيم، مرجع سابق، ص: 131.

²⁴ - طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي - بيروت. ص: 152.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ومن خلال الآيات القرآنية السابقة، فالعمران جاء بصيغ متعددة ومتنوعة، يحمل معان ودلالات مختلفة، يشمل المستويات العلمية والثقافية والفكرية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية... فهو لا يقتصر على الجانب المادي من التشييد والبناء والتركيب والابتكار والاختراع، بل شامل أيضا للجانب المعنوي، يقوم على منهج معرفي متوازن ومتكامل، لبناء عمارة الأرض وحضارتها، ومبني على القيم والوعي الحضاري، الداعي للإصلاح من خلال استيعاب متطلبات الواقع وآليات التنزيل العملي لتحقيق حياة طيبة.

فالعمران مقصد من مقاصد القرآن الحضارية، يقوم على حقيقة إبداعية، وهو دعوة عالمية للناس كافة، مرتبط بالحياة العمرية للإنسان منذ ولادته إلى آخر حياته، وما بين الفترتين يشمل الزمن والمكان وكل ما قدمه من أعمال، قوله تعالى في دعوة إبراهيم عليه السلام: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37]. مما يدل على أن: للعمران من خلال قصة إبراهيم عليه السلام مقومات أساسية، فهو يستوعب المكان الذي مثل بالبيت الحرام مع استشعار العبودية انطلاقًا من القيام بالشعائر التعبديّة لتعم القيم والفضائل الإنسانية التي يجب التسليح بها لإنشاء عمران شامل للبعد المادي والمعنوي من خلال رحلة الإنسان فوق الأرض وما يقوم به من اختراعات واكتشافات تستوجب طاقات فكرية حيوية إبداعية تشتغل على البحث العلمي وكل المجالات الثقافية لتكوين حضارة عمرانية من خلال ربطها بالقيم العليا الحاكمة²⁵

المطلب الثاني: العمران والاستخلاف مقصد من مقاصد الشريعة:

تعد عمارة الأرض من أعظم مقاصد التشريع لما تحققه من غايات من خلال علاقة الإنسان بالكون وتسخير ما حوله من طبيعة وكائنات وما جبل عليه من حب التملك والتنافس، ولا يصلح لعمارته إلا من خلال الوحي، وقد عدت مقاصد القرآن هي الغاية والهدف الأسمى للعبادة من خلال مزجها بالواقع العملي في فهم الذات وانفتاحها على الواقع وخلق مهارات وقدرات للإنتاج الفكري والإبداع العمراني لإنشاء حضارة قرآنية عمرانية تحمل أمانة الاستخلاف والانبثاق الحضاري والعمراني.

وتعتبر المقاصد هي الغايات المتجلية في جلب المصالح ودرئ المفسدات، ومقاصد القرآن تحقق الغايات التي خلق الإنسان من أجلها، فالعمران مقصد من مقاصد تحقيق العبودية لله عز وجل، كما يقول علال الفاسي: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش بما فيها وصلاحها بصالح المستخلفين

25 بية سلطاني، مقصد التزكية وأبعاده في ضبط السلوك الحضاري، أستاذ محاضر للعقيدة والفكر الإسلامي الحديث بالمعهد العالي للحضارة الإسلامية الجامعة الزيتونية.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"²⁶.

فالقرآن الكريم شامل لكل العلوم والمناهج، دعا إلى استثمار الطبيعة والانتفاع بها، واكتشاف مكنوناتها وخيراتها، والقوانين المادية المسيرة لها، فهو عمران مفتوح لكل الناس للقراءة والتأمل والتدبر والاستنباط والاستكشاف والاجتهاد والاختراع والتعليل، وهذا ما غفل عنه كثير من الناس قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [الرّوم: 8]، يدعو الإنسان إلى استثمار عقله وعلومه ومعارفه لتسخيرها في عمارة الكون وتحقيق وجوده في الحياة؛ لتأسيس نظام اجتماعي يسمح بتطوير القدرات الإنسانية داخل المجالات المعرفية والثقافية.

فالقرآن المجيد - يدعونا للنظر في الخلق والطبيعة - لا يرشح نفسه مصدرًا للعلم الطبيعي، ولكنه يوجه إلى ذلك لأخذ بيد الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيته، واليقين باتصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن كل صفات النقصان، وفي ذلك كله بناء لطاقت الإنسان الإدراكية وقابلياته العقلية والفكرية، واستعداداته المعرفية، فهو المنفتح عن سنن الكون؛ لا يخضع لمتقلبات الزمان والمكان، وهو المخرج لكل أزمة وفعل إنساني إلى طريق الحق والصواب بالاسترشاد مع العقل فما زالت الفلسفات الغربية متوقفة عن النضج الحضاري، لاهتمامها فقط بالعلوم المادية الطبيعية.

فالمنهج القرآني جمع بين عالم الغيب والشهادة، بين المادة والروح في إطار وحدة القيم لتحقيق الهداية والتوحيد والتزكية والعدل والمساواة والحرية، وجعل للإنسان غاية وهدف بعيد عن كل عبثية، فإذا كانت النظرة المادية طمست هوية الإنسان واعتبرته عنصر من عناصر الطبيعة لا يخضع لقوانين الإنسانية الخاصة به يشارك كبقية الكائنات الخاضعة لقوانين الطبيعة، مما ألغت وظيفته الاستخفافية في الكون، وألحاقه بمجال الحيوان والنبات والجماد، مقابل ذلك نجد التكريم القرآني للإنسان في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء:70].

فالمقصد القرآني في العمران الاستخلافي قائم على "حقيقة إبداعية قرآنية، وتوجه في جميع مناحيه بتوجيه قرآني، واصطبغ في روحه العامة ومظاهره الواقعية بصبغة التوحيد، وإذا هو عمران عرض نفسه على الناس ليستفيدوا منه، وأقام مع بني الإنسان جميع علاقات التعارف المبنية على العدل وإرادة الخير،

²⁶ - علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993م ص45-46.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فهو عمران سعى في الأرض باستثمار خيراتها وتوظيفها لمصلحة الإنسان مع المحافظة عليها من الفساد²⁷؛ وتبين سنن الله المتعددة في الكون، تدفع المؤمن للبحث والتنقيب وبذل الجهد واستثمار ما وجد في الطبيعة، فبقدر ما يحصل الانسجام بين النفس والطبيعة فبقدر ما تحصل الاستجابة بتطبيق أوامره سبحانه واجتناب نواهيه.

المطلب الثالث: الاستخلاف ودوره في البناء الحضاري

يعد الاستخلاف قيمة محورية العاملة في نظم البناء الحضاري الإنساني، من خلال علاقة الإنسان بخالقه من جهة، وعلاقته بالكون وأخيه الإنسان من جهة أخرى؛ "فهو تصور كامل لحقيقة الوجود والكون والإنسان والحياة، فالمستخلف هو الله والمستخلف هو الإنسان وأخوه الإنسان والمستخلف عليه هو الأرض وما عليها و"الاستخلاف" بهذا المعنى مفهوم يؤطر حركة الإنسان وبهذه النظم الله والكون والإنسان"²⁸.

فالإنسان سيد الكون بعمارته والغاية من ذلك تحقيق مقصد الاستخلاف من خلال الخضوع لله تعالى بإتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الجمع بين فهم الإنسان والمقصد من وجوده وغايته وكيف يسعى إلى خلق استخلاف مبني على قوة الإيمان ووعي الضمير.

فالعمران له مقومات ضبطها القرآن الكريم من خلال ارتباطه بالقيم العليا من التوحيد والتزكية الاستخلاف... ليجمع بين العالم المادي والزوجي، من خلال تجربة الإنسان فوق الأرض ورحلته في استكشاف السنن الإلهية الكونية والقوانين المنظمة لها؛ فالكون كله متوازن ومتناسك ومترابط وخاضع لحكمة خالقه، وكل آية تدل على وجوده ﷻ لقوله تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2].

فمقياس الحضارة الإسلامية يقوم على المزاجية والربط بين الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الطبيعة البشرية لها حاجات مادية وحاجات روحية، والعامل هو الذي يسعى إلى قانون الموازنة بينهما، وهذا ما فقدناه اليوم في عصرنا الحالي حيث أن اقتصار مفهوم العمران والاستخلاف على جانب وإهمال الآخر أسهم في أزمة التهوؤ الحضاري والانبعاث الكوني؛ فعبقريه ابن خلدون "علمتنا الجمع بين الرؤيتين، وأن الرؤية الأولى متضمنة في الرؤية الثانية، وأن قيام الحضارة والعمران البشري يتطلب بالضرورة فقه السنن والنواميس والقوانين التي تسيّر الطبائع البشرية وتحكم الوقائع العملية، لتحقيق التكامل والتوازن بين الحاجات المادية والحاجات الروحية للإنسان، بصورة يمكنها أن تنفذ الحضارة البشرية المعاصرة من أزماتها المستحكمة، ومن المصير الذي تتجه إليه في غياب هذا التوازن"²⁹.

²⁷- عبد المجيد النجار، مقاصد القرآن في البناء العمراني، إسلامية المعرفة السنة الثالثة و العشرين، العدد 89، صيف، 1438هـ- 2017 م،

ص 76

²⁸- محمد عبد الفتاح الخطيب، كتاب الأمة قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، عدد 139 السنة 1431هـ، ص 52.

²⁹- ملكاوي، منظومة القيم، مرجع سابق، ص: 155.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ومن خلال كتابات ابن خلدون نجده عالٍ مجموعة من المحاور المتعلقة بالحضارة، والتاريخ والعمران البشري وعلم الاجتماع المرتبطة بالحياة الإنسانية؛ فلا يمكن فهم طبيعة العمران دون فهم قوانين الاجتماع الإنساني، والتّعرف إلى طبائعه وأحواله وتقلباته الساعية أحياناً إلى الخير والمتقلبة أحياناً إلى الشرّ والإثم والعدوان، وفلسفته تدعو إلى أعمال العقل والإبداع وتطوير المعارف والمكتسبات وربطها بالقيم الإسلامية لتكوين مجتمع متماسك تسوده الأخوة والمحبة والتكافل الاجتماعي لتحقيق بيئة اجتماعية إيجابية متماسكة تسعى إلى البناء العمراني الحضاري؛ فالاستخلاف الإيماني يمثل حافزاً قوياً للإنسان على إعمار الأرض، بتنمية الخير والصلاح والهداية بين الناس، وتقليل الشر وأسباب الفساد وتطويقه، وذلك عندما يتحرك نحو العمل، باستشعار عظمة الأمانة التي طوق بها الله أعناق الأدميين، وربط صلاح الإنسان وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة، بإدراك ثقلها وأساسيتها ومختلف أبعادها في الوجود الإنساني.

وخلاصة القول: إن الحضارة الإسلامية تقوم على أساس الشريعة الإسلامية، وما تشتمل عليه من إيمان بالله وتوحيده، تنفيذاً لاستخلاف الله للإنسان في الأرض، بعد تسويته والنفخ فيه من روحه وتمكينه من اكتساب المعارف والخبرات، مما أهله ليتحمل أمانة الخلافة عن الله، في الاستقامة على الدين في نفسه وفي مجتمعه، والقيام بمسؤوليات عمارة الأرض وإنشاء حضارة إيمانية رشيدة.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

خاتمة:

إن العمران والاستخلاف يتحققا من خلال اكتشاف آليات الوحي وتنزيلها في الواقع والمساهمة في إصلاح المجتمع وبنائه العمراني وتطهيره من كل فساد وانحراف ليعبر عن قيمته وتكريمه من خلال الامتثال للأوامر واجتناب النواهي فلا مجال لتحقيق الاستخلاف إلا بالعودة إلى الرؤية القرآنية بطريقة استنهاضية استشرافية بنائية لمسيرة الواقع، واكتشاف آليات الوحي وتنزيلها في الواقع.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

لائحة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم ورش

- ابن خلدون، المقدمة، دار الشرق العربي، بيروت، ط، 2004.
- ابن فارس، مقاييس اللغة. راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، (1429هـ-2008م)
- ايف لاكسوت، العلامة ابن خلدون، دار الفرابي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م.
- إبراهيم مصطفى. أحمد الزيات. حامد عبد القادر. محمد النجار، (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، (1425-2004).
- إبراهيم البيومي غانم، "مقصد حفظ العمران في الآداب والأحكام السلطانية والسياسة الشرعية"، سلسلة المؤتمرات، الدين والحضارة حفظ العمران مقصد شرعي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ص: 163. الطبعة الأولى، (1440هـ-2018م).
- الراغب الأصفهاني، المفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، (1430هـ-2009م).
- "المعجم الوجيز"، معجم اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة 1495هـ/1994م.
- سعاد رحائم، "الشباب والشهود الحضاري من منطلق الاستخلاف الإيجابي"، أعمال الندوة العلمية المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، منشورات المجلس العلمي للجديدة، بعنوان: الأمن الثقافي والسلم العالمي، بتاريخ 12 نونبر 2015.
- طه جابر العلواني:
- * نحو الاجتهاد والتجديد: مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، دار التنوير، الطبعة الأولى، (1429هـ، 2008م).
- * التوحيد والتركية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي بيروت.
- طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2014م.
- عبد السلام الأحمر محمد الأحمر، استخلاف الإنسان في الأرض باعتباره مقصدا عاما بحث منشور بمجلة إسلامية المعرفة عدد 89 صيف 2017-1438.
- عبد المجيد النجار:
- * خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، هيرندن- فيرجيا، الولايات المتحدة، الطبعة الثالثة، (1425هـ-2005م).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

* مقاصد القرآن في البناء العمراني ، إسلامية المعرفة السنة الثالثة و العشرون ، العدد 89 ، صيف ، 1438هـ- 2017.

- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993م.

-محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والانسان و الطبيعة العالمية الاسلامية الثانية ، دار

الهادي ، الطبعة الأولى، 1435هـ-2004م.

-فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، منشورات المعهد العالمي

للفكر الإسلامي، هرنندن- فرجينيا - الطبعة الأولى، (1434هـ- 2013م).

-محمد الحسن بريمة إبراهيم، رؤية القرآن للعالم الأهمية، التعريف والقضايا ص: 227-228. أعمال

الندوة العلمية الدولية بعنوان: القرآن الكريم ورؤية العالم: مسارات التفكير والتدبير، الرابطة المحمدية للعلماء-

الرباط ، 5-6 شعبان 1435هـ-الموافق 3-4 يونيو 2014م.

-محمد بن عبد الرزاق الحسين أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس

، دار الهداية

- مالك بن نبي، آفاق جزائرية، مكتبة عمار القاهرة، 1971م.

- مالك بن نبي تأملات، دار الفكر دمشق، 1985م.

- ممدوح الشيخ، " المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية"، مركز الحضارة لتنمية الفكر

الإسلامي، الطبعة الأولى، 2008م.

- محمد عبد الفتاح الخطيب، كتاب الأمة قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، عدد

139 السنة 1431هـ.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

العمران القضائي في القرآن الكريم (العدل أنموذجاً)

د. محمد حسن محمد عبد الرحمن

Dr.mohammed1988june@gmail.com

أستاذ مشارك كلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان

مستخلص البحث:

يتناول هذا البحث العمران القضائي في القرآن الكريم وما أكثره، ولكنه يتناول على سبيل المثال لا الحصر العدل (أنموذجاً)، منهج البحث هو المنهج الاستقرائي التحليلي وتكمن مشكلة البحث في أن العمران القضائي في القرآن الكريم كثير جداً، ونماذج العدل أكثر من أن تحصى ولكننا سنتناول بعضها. حدود البحث الآيات التي ورد فيها العدل في القرآن الكريم ومن أهداف البحث بيان العدل في القرآن الكريم ومعرفة جوانبه المختلفة، كالعدل بين العبد وربه، وبين العبد ونفسه، ومعرفة العدل بين العبد وبين الخلق.

الكلمات المفتاحية: العمران، القضاء، العدل.

مقدمة:

الحمد لله قاصم الجبارين ومذل المستكبرين وهادي العالمين إلى صراط مستقيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن العمران في القرآن يبدو شاخصاً للأبصار في كل ما تناوله القرآن ونظم به شؤون الحياة المختلفة؛ من قيم ومثل ونظم وأحكام وتشريعات ناطحت السماء علواً ومكاناً ورفعة فاذا أطلنا النظر في العمران القضائي نجد أن العدل هو الأساس في كل أمر ذي بال.

أهمية الموضوع:

- (1) العدل هو أساس الحياة الآمنة المستقر.
- (2) إن فقدان العدل يتسبب في الحروب والقتل والدمار.
- (3) الحكم على كل شيء ينبغي أن يتصف بالعدل.

أسباب اختيار الموضوع:

- (1) العدل أساس الحكومات.
- (2) بيان أن الله تعالى إذا أمر بأمر بدأ فيه بنفسه.
- (3) الأمة العادلة وعددها الله بالنصر والتمكين.

أهداف البحث:

- (1) بيان أن العدل هو أساس كل شيء.
- (2) معرفة العدل بين العبد وربه.
- (3) توضيح معنى العدل بين العبد ونفسه.
- (4) معرفة العدل بين العبد وبين الخلق.

منهج البحث:

المنهج التحليلي الاستقرائي.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في اختيار نماذج للعدل، والعدل ينبغي أن يكون في كل شيء مما لا يحصى أو يُعد.

حدود البحث:

يتناول البحث العمران القضائي في القرآن الكريم العدل (أنموذجاً) ومع من يكون العدل؟ وتناول بعض نماذج العدل في القرآن الكريم.

منهج في البحث:

(1) جمع الآيات التي تتناول العدل في المواضيع المختلفة وعزوها إلى سورها وتفسيرها.

(2) تخريج الأحاديث من كتب الصحاح والسنن.

(3) شرح المفردات الغريبة (إن وجدت) من كتب معاجم اللغة العربية.

(4) عزو الأشعار (إن وجدت) إلى دواوين الشعراء.

الدراسات السابقة:

لاريب أن الكثير من البحوث تناولت موضوع العدل ولكن ليس بالتسلسل الموضوعي كما في هذا البحث.

بيان خطة البحث:

تمّ تقسيم هذا البحث إلى مقدمة حوت المحاور المذكورة وقد شمل البحث ثمانية مباحث:

المبحث الأول: شرح مفردات العنوان، وفيه عدة مطالب.

المبحث الثاني: الأمر بالعدل.

المبحث الثالث: العدل في الأفعال والأقوال وفيه مطلبان.

المبحث الرابع: العدل في الشهادة ومع الخصوم وفيه مطلبان.

المبحث الخامس: العمران الأسري في العدل مع الأزواج.

المبحث السادس: العمران الاجتماعي في العدل مع اليتامى.

المبحث السابع: العمران السياسي في العدل أساس الحكومات.

المبحث الثامن: بيان أنّ الإمامة لا تورث.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الأول

شرح مفردات العنوان

وفيه مطالب:

المطلب الأول: معنى كلمة (عمران).

العمران البنيان وهو ما يعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والمُدن، وعلم العمران عند ابن خلدون، علم الاجتماع⁽¹⁾. ولعل استخدام المفردة ههنا ضرب من المجاز بمعنى الأعمار.

المطلب الثاني: معنى كلمة (قضاء).

القضاء هو: الحكم وعمل القاضي، قضى قضاء أي حكم وفصل ورجال القضاء؛ الهيئة التي يوكل إليها بحث الخصومات للفصل فيها طبقاً للقوانين، والقاضي القاطع للأمور المحكم لها وهو من يقضي الناس بحكم الشرع وهو من تحكمه الدولة للنظر في الخصومات والدعاوي وإصدار الأحكام التي يراها طبقاً للقانون. يقال: أتت عليه القاضية؛ المنية، وضربة قاضية أي مميتة. القضية؛ الحكم ومسألة يتنازع فيها وتعرض على القاضي أو القضاء للبحث والفصل، وفي المنطق، قول مُكون من موضوع ومحمول يحتمل الصدق والكذب لذاته ويصح أن يكون موضوعاً للبرهنة، والجمع قضايا⁽²⁾.

المطلب الثالث: معنى كلمة (قرآن).

قال الراغب الأصفهاني:⁽³⁾

القراءة، ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن في الأصل مصدر نحو كُفران ورجحان (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (القيامة: 17-18).

وقد حُصَّ القرآن بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعلم كما التوراة على موسى والإنجيل على عيسى قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمره كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار عليه تعالى بقوله: (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) (يوسف: 111) وقوله (تَبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: 89).

المطلب الرابع: في معنى كلمة (عدل):

(1) المعجم الوجيز- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم-مصر 2004م ص 434.

(2) المرجع السابق ص 506.

(3) المفردات في غريب القرآن، ص 400.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

تعريف العدل لغة: العدل القصد في الأمور وهو خلاف الجور، يقال عدل في أمره عدلاً من باب ضرب، وعدل عن الطريق عدولاً مال عنه وانصرف قال ابن فارس: والعدل الذي يعادل في الوزن والقدرة وعدله بالفتح ما يقوم مقامه من غير جنسه قال تعالى: (أَوْ عَدَلٌ ذَلِكَ صِيَامًا) (المائدة: 95) وهو مصدر في الأصل يقال عدلت هذا بهذا عدلاً من باب ضرب إذا جعلته مثله قائماً مقامه، قال تعالى: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (الأنعام: 1). وهو أيضاً الفدية قال تعالى: (وَإِنْ تَعَدِلَ كُلُّ عَدْلٍ لَأَيُّوْخَذَ مِنْهَا) (الأنعام: 70).

قال صلى الله عليه وسلم: [لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً]⁽⁴⁾ والتعادل التساوي وعدلت الشاهد نسبتته إلى العدالة ووصفته بها، وعدل هو بالضم عدالة وعدولة وهو عدل أي مرضي يقنع به ويطلق العدل على الواحد وغيره بلفظ واحد، وجاز أن يطابق في التثنية والجمع فيجمع على عدول، قال ابن الأنباري: وأشدنا أبو العباس: وتعاقدا العقد الوثيق وأشهدا من كل قوم مسلمين عدولاً

وربما طابق في التأنيث وقيل امرأة عدلة، قال بعض العلماء: والعدالة صفة توجب مراعاتها الاحتراز عما يخل بالمروءة عادة ظاهراً فالمرءة الواحدة من صغائر الهفوات وتحريف الكلام لا تخل بالمروءة ظاهر لاحتمال الغلط والنسيان والتأويل، بخلاف ما إذا عُرف منه ذلك وتكرر فيكون الظاهر الإخلال⁽⁵⁾.

(4) صحيح البخاري 67/55 وصحيح الجامع الصغير 66/83.

(5) المصباح المنير للفيومي، دار الحديث، ط1، 2000م، ص236.

المبحث الثاني

الأمر بالعدل

جعل الله تعالى القيام بالقسط غاية كل الرسل والرسالات فقد قال: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (الحديد:25).

والمعنى: تالله لقد أرسلنا رسلنا الأنبياء إلى الأمم بالحج والمعجزات الواضحة، وأنزلنا معهم الكتب السماوية المشتملة على الشرائع، وأنزلنا الميزان أي ضوابط العدل في الأحكام ليتعامل الناس بالعدل في معاملاتهم⁽⁶⁾، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) (النحل:90).
قال ابن العربي⁽⁷⁾: (بالعدل).

وهو مع العالم، وحقيقته التوسط بين طرفي النقيض وضده الجور؛ وذلك أن الباري خلق العالم مختلفاً متضاداً متقابلاً مزدوجاً، وجعل العدل اضطراد الأمور بين ذلك، على أن يكون الأمر فيه جارياً على الوسط في كل معنى فالعدل بين العبد وربّه إثارة حق الله على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواج والامتنال للأوامر، وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها عما فيه هلاكها كما قال تعالى: (وَتَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) (النازعات:40).

وعزوب الأطماع عن الإتياع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى. وأما العدل بينه وبين الخلق ففي بدل النصيحة، وترك الخيانة فيما قلّ كثر والإنصاف من نفسك لم بكل وجه، ولا يكون منك إلى أحد مساءة بقول ولا فعل ولا في سر ولا في علن حتى بالهم والعزم، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف من نفسك وترك الأذى.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة:8).

قال سيد قطب⁽⁸⁾، ما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوثين كما يكفله لهم هذا الدين؛ حين ينادى المؤمنون به أن يقوموا لله في هذا الأمر، وأن يتعاملوا معه متجردين عن كل اعتبار، وهذه المقومات في هذا الدين العالمي الإنساني الأخير الذي يتكفل نظامه للناس جميعاً معتنقيه وغير معتنقيه، أن يتمتعوا في ظله بالعدل وأن يكون هذا العدل فريضه على معتنقيه، يتعاملون فيها مع ربه مهتما لاقوا من الناس من بعض وشئان. ما أجمل عدالة هذا الدين في كل زمان ومكان.

(6) التفسير الوجيز، للزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1996م، ص542.

(7) أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، 2008م، ط4، ج3، ص153.

(8) في ظلال القرآن، دار الشروق، ط37، 2008م، ج2، ص852.

المبحث الثالث

العدل في الأفعال والأقوال

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: العدل في الأفعال:

قال تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) (الهُمَزَة: 1) هلاك وخزي وعذاب شديد لكل هماز (كثير الهمز) وهو المغتاب الطعان في أعراض الناس وكرامتهم ولماز (كثير اللمز) وهو العيب الذي يطعن بالناس خفية باللسان أو العين أو اليد أو الرأس ونحوها تحقيراً لهم وترفعاً عليهم⁽⁹⁾.

قال تعالى: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَّنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (المطففون: 1-3).

قال ابن كثير⁽¹⁰⁾: جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وكانوا من أحبب الناس كياً فانزل الله تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ).

والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم، ولهذا فسر الله تعالى المطففين الذين وعدهم بالهلاك والخسار وهو الويل، هذا وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) (الإسراء: 35).

وقال: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (الأنعام: 152). وقال تعالى أيضاً: (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: 9).

المطلب الثاني: العدل في الأقوال.

من كان عدلاً في فعله استلزم ذلك أن يكون عادلاً في قوله، فالمؤمن القويم هو الذي تتطابق أقواله وأفعاله، قال تعالى: (اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) (البقرة: 44).

وقال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) (الأنعام: 152).

قال صاحب التفسير الواضح⁽¹¹⁾: وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، أي فاعدلوا في القول ولا تتجاوزوا فيه الحد المقبول شرعاً ولو كان الذي تقولون فيه من ذوي القربى، إذ بالعدل تبني أسس الدولة، وتصلح شؤون الأمم والأفراد، فهو ركن العمران وأساس النجاح قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ) (النساء: 135).

(9) التفسير الوجيز للزحيلي، ص 603.

(10) تفسير القرآن العظيم، دار الحديث، ط 6، 1993 م، ج 4، ص 484.

(11) د. محمد محمود حجازي، دار التفسير، الزقازيق، ط 12، 2002 م، ج 1، ص 683.

المبحث الرابع العدل في الشهادة ومع الخصوم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: العدل في الشهادة:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بِيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) (البقرة: 282).

أي يا من اتصفتم بالإيمان ودخلتم في الإسلام، إذا تعاملتم بالدين المؤجل في الذمة؛ بيعاً أو سلفاً أو قرضاً فاكْتُبوه وقيده فذلك خير لكم وأجدي، والأمر هنا للإرشاد والندب، وليكن فيكم كاتب للديون عادل في كتابته، لا يميل ولا يحيد عن الحق فهو القاضي بين الدائن والمدين، ولتحقق عدالته يشترط أن يكون عالماً بشروط الكتابة ملبأً بأصولها⁽¹²⁾.

قال تعالى: (فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) (الطلاق: 2). قال صاحب الكشاف⁽¹³⁾: (فإذا بلغن أجلهن) وهو آخر العدة وشارفنه فأنتم بالخيار، إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة وبقاء الضرار؛ وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعديلاً لها (وأشهدوا) يعني عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه عن أبي حنيفة كقوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) وعن الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وقيل فائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يتهم في إمساكها، ولثلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِّن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نُشْئِرِي بِهِ تَمَنَّاءَ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْآ إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ) (المائدة: 106).

قال القرطبي⁽¹⁴⁾: أن الله تعالى أخبر أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضر الموت أن تكون شهادة عدلين فإن كان في سفر وهو الضرب في الأرض، ولم يكن معه أحد من المؤمنين، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا وما بدلا، وأن ما شهدا به حق، ما كتما فيه شهادة

(12) التفسير الواضح، ج1، ص196.

(13) الزمخشري، دار الفكر، 2006م، ج4، ص119.

(14) الجامع لأحكام القرآن، مكتبة الإيمان، ج4، ص236.

وَحُكْمَ بِشَهَادَتِهِمَا، فَإِنْ عَثِرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا كَذَبَا أَوْ خَانَا وَنَحْوَ هَذَا مِمَّا هُوَ إِثْمٌ، حَلَفَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمَوْصِي فِي السَّفَرِ وَغَرَمَ الشَّاهِدَانِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِمَا.

المطلب الثاني: العدل مع الخصوم.

قال تعالى: (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة: 42). سماعون للكذب أحبارهم سماع قبول، أكالون للمال الحرام كالرشوة والربا وأجر الزنا، فإن احتكموا إليك أيها الرسول، فلك الخيار بين الحكم فيهم أو الإعراض عنهم، ثم نسخ التخيير بقوله تعالى: (وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَآخِذْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (المائدة: 49). وأن تعرض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك، ولن يقدرُوا على الأضرار بك، وإن حكمت بينهم فاحكم بالعدل إن الله يحب العادلين في الحكم ويرضى عنهم.⁽¹⁵⁾ قال تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) (النحل: 126).

قال صاحب الظلال⁽¹⁶⁾: فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله اعزازا لكرامة الحق، ودفعاً لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفطيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه أهل البغي ولا يبغى). هذا هو نهج الإسلام منذ بدء الخليقة ألا يظلم ولا يدعو إلى الظلم والتظالم إلا بحدود الدفع والمدافعة إن وقع الظلم عليه فيا لسماحة هذا الدين.

(15) التفسير الوجيز، ص 125.

(16) في ظلال القرآن، ج 4، ص 2202.

المبحث الخامس

العدل في العمران الاسري مع الأزواج

قال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) (النساء: 3).

معنى الآية: إن خفتن أيها الأولياء من الظلم أو عدم العدل في أموال اليتامى، وتخرجتم من أكلها بالباطل، فخافوا من الوقوع في ظلم آخر أشدّ ضرراً وهو ظلم النساء بالتزوج بنساء كثيرات، فكان العربي في الجاهلية يتزوج العشر أو أكثر أو أقل، وفي هذا ظلم مؤكد، وطريق إنهاء هذا الظلم هو بالاعتصام على الزواج عند الحاجة أو الضرورة على أربع كحد أقصى دون تجاوز، بشرط توافر العدل المادي في المعاملة، وبشرط توافر القدرة على الإنفاق، وبما أن تحقق العدل بين النساء أمر صعب ونادر، فإن الشريعة أمرت بالاعتصام على زوجة واحدة، وهذا هو الأصل العام في الإباحة كما قال الله تعالى هنا (فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة) وقال في آية أخرى: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (النساء: 129).

ومن الظلم في مجال الزواج ما يفعله كثير من الرجال من إلقاء المرأة للتنازل عن مهرها كله أو بعضه ليوافق على طلاقها، فالله تعالى أمر بإعطاء النساء كامل مهورهن دون أخذ شيء منه المعجل والمؤجل، فإن حدث التنازل عن بعض المهر من الزوجة أو من وليها تلقائياً وبرضاء مطلق واختيار دون إكراه مادي أو أدبي جاز ذلك، إن تعدد الزوجات جائز مباح في الإسلام، وليس كل مباح مرغوباً فيه، فهو غير مرغوب فيه إلا لحاجة أو ضرورة، مثل معالجة ظرف طارئ عقب الحروب وقتل الرجال وكثرة النساء الأرامل فيكون التعدد عملاً إنسانياً وإنقاذاً، وقد يكون التعدد بسبب عقم المرأة، أو بسبب نهم الرجل، أو الأغراض تتعلق بنشر الدعوة الإسلامية مثل تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم⁽¹⁷⁾.

والحق أن هذا حق شرعي للرجل ولا يعني بضرورة تقصير المرأة كما يفهم بعض الناس، فإن استطاع الزوج العدل فله أن يمارس التعدد.

قال صاحب التفسير الواضح، للرجل المسلم أن يتزوج من واحدة إلى أربع ما دام يثق في أنه يعدل ولا يجور، وإن خاف عدم العدل فلا يتزوج إلا واحدة ومعها ما شاء من الجوازي؛ والعدل المطلوب بين النساء يكون في القسم بينهن في المبيت والتسوية في المأكل والمشرب والمسكن والأمور المادية، أما الأمور القلبية كالميل والحب فهذا ما ليس في وسعه، ولذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول [هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني

(17) تفسير الوسيط، أ.د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط2، ج1، ص282.

فيما لا أملك⁽¹⁸⁾. وقد كان يحب عائشة أكثر من غيرها ومع هذا ما كان يخصها بشيء إلا بعد أن يستأذن أخواتها.⁽¹⁹⁾

المبحث السادس

في العمران الاجتماعي في العدل مع اليتامى

رعى الإسلام شؤون الأيتام رعاية تامة تشمل النفس والمال وفرض تنصيب الأولياء الكبار الراشدين من الأقارب كالأب والجد للإشراف على مصالح اليتامى في حال الصغر، واليتيم هو من فقد والده حال الصغر⁽²⁰⁾.
 خص الفقهاء اليتيم بما دون البلوغ قال تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) (الضحى: 9).
 قال ابن كثير⁽²¹⁾: أي كما كنت يتيماً فأواك الله، فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، قال قتادة كن لليتيم كالأب الرحيم.

قال تعالى: (وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) (النساء: 2). تطالب هذه الآية إعطاء الأيتام حقوقهم كاملة سواء من إرث غيرهم، أو بتسليم مالهم إليهم عند البلوغ، فيجب على الأولياء والأوصياء دفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، ينهي عن أكلها وضمها إلى أموال الأوصياء، أيها الأوصياء إياكم أن تتمتعوا أو تنتفعوا بمال اليتيم في موضع يجب أن تتمتعوا فيه بمالككم، فإنكم إن أخذتم من ماله وتركتم مالككم، تكونوا قد استبدلتم الخبيث بدل الطيب والحرام بدل الحلال، وهذا منهي عنه شرعاً وموقع هذا في الإثم والذنب العظيم.⁽²²⁾

قال تعالى: (وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا) (النساء: 6).

يجب عليكم أن تختبروا اليتامى، لتعرفوا مدى عقلهم وحسن تصرفهم للمال، وهذا الاختبار يكون عند البلوغ أي بلوغ سن الزواج والاكتمال العقلي، فإن تبينهم رشدهم فآتوهم أموالهم، ولا تأخذوها وتأكلوها عن طريق الإسراف والتبذير، فإن طبيعة النفس التبذير في مال الغير، ولا تأكلوها مسرعين قبل أن يصل اليتيم إلى مرحلة البلوغ والإدراك السليم، أما الأكل من إسراف ولا تبذير وبلا إسراع ومبادرة، فحكمه أن من كان غنياً فيطلب العفة، وفي هذا إشارة إلى طبيعة النفوس ميالة إلى الاعتداء على حق الغير وإن كان صغيراً ضعيفاً، ومن كان فقيراً محتاجاً فليأكل بالمعروف شرعاً وعرفاً بلا إسراف وتبذير حتى قال بعضهم، إن الولي ليس له أن يأكل

(18) ضعيف، أخرجه ابن ماجه، 427، والترمذي 1155/93، والنسائي 3943/261، وأبو داود 2134.

(19) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ج 1، ص 336.

(20) تفسير الوسيط، ج 1، ص 283.

(21) تفسير القرآن العظيم، دار الحديث، ج 4، ص 524.

(22) تفسير الوسيط، ج 1، ص 285.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إلا قرضاً أو بأجر المثل، وفي المخالطة خير لليتيم، فإن كان الولي غنياً كانت المخالطة لمصلحة اليتيم، وإن كان فقيراً فالواجب عليه أن يأكل بالمعروف من كسب المال وثمرته، وليس له أن يجمع من مال اليتيم شيئاً خاصاً به، فإذا اختبرتم اليتيم وتبينتم صلاحيته لإدارة المال فادفعوا إليه بحضور الشهود قطعاً للنزاع.⁽²³⁾

وكفى بهذه الدقة المتناهية في الإسلام لإيصال الحقوق إلى الأيتام منذ الصغر إلى الكبر.

قال تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا) (النساء الآية: 9-10). قال القرطبي:⁽²⁴⁾ هذه الآية اختلف العلماء في تأويلها فقالت طائفة: هذا وعظ للأوصياء؛ أي افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم وقالت طائفة المراد جميع الناس أمرهم باتقاء الله في الأيتام. وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسددوا لهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يفعل بولده بعده، والمراد بالآية الأخرى الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبيع لهم من مال اليتيم قال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء والصغار، وسعى أخذ المال على كل وجوهه أكلاً، لما كان المقصود هو الأكل وبه أكثر إتلاف الأشياء، وخص البطون بالذكر لتبين نقصهم والتشنيع عليهم بصد مكارم الاخلاق وسعى المأكل نارا بما يؤول إليه.

هذه الآيات من أحرص ما ذكر في المحافظة على أموال اليتامى وتوعدت كل من لم يحافظ عليها ويؤديها بالمعروف إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً.

(23) التفسير الوسيط، ج1، ص339.

(24) الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص233.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث السابع

العدل أساس الحكومات

إن العدل هو جذر القيم الإسلامية والنبع الذي يتفرع منه ما سواه من قيم ومبادئ، وقد عبرت النصوص الإسلامية عن هذا المبدأ أحياناً بتعابير؛ القيام بالقسط والقيام بالحق والحكم بالحق، ولتعبيرى القيام بالقسط والقيام بالحق دلالة خاصة، وهي أن المقصود ليس العدل فكرة مجردة، بل المقصود الجهد البشري الإيجابي لتحقيق هذه الفكرة على الأرض⁽²⁵⁾.

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: 58) قال د. محمد المختار الشنقيطي: أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل والذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر ما تستقيم مع الظلم في الحقوق وأن لم تشترك في أثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.⁽²⁶⁾

وقال صاحب أحكام القرآن⁽²⁷⁾: اختلف الناس في الأمانات، فقال قوم: هي كل ما أخذته بإذن صاحبه، وقال آخرون، هي ما أخذته بإذن صاحبه، لمنفعته، والصحيح أن كليهما أمانة، ومعنى الأمانة في الاشتقاق أنها أمنت من الإفساد، أمر الله تعالى بأدائها إلى أربابها وللآية سبب نزول شهير، قيل نزلت في عثمان أبي طلحة أخذ النبي صلى الله عليه وسلم منه المفتاح يوم الفتح ودخل الكعبة فنزل عليه جبريل بهذه الآية، ولو فرضنا هذه الآية نزلت في سبب فهي عامة بقولها شاملة بنظمها لكل أمانة: (إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) هم السلاطين بدأ الله سبحانه بهم فأمرهم بأداء الأمانة، وكل ما يدخل إلى بيت المال حتى يوصلوه إلى أربابه، وأمرهم بالحكم بين الناس بالعدل وأمرنا بعد ذلك بطاعتهم فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء: 59)

(25) الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي، د. محمد المختار الشنقيطي، ط1، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة قطر، 2008م، ص147.

(26) المرجع السابق، ص151.

(27) أحكام القرآن، لابن العربي، ج3، ص570.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء: 135).

قال صاحب الظلال⁽²⁸⁾: يبدأ الدرس ببناء الذين آمنوا ليقوموا هذا العدل بصورته هذه، ومُنزل هذا القرآن يعلم حقيقة المجاهدة الشاقة التي تتكلفها إقامة العدل على هذا النحو، وفي النفس البشرية ضعفها المعروف، وعواطفها تجاه ذاتها وتجاه الأقارب، وتجاه الضعاف من المتقاضين، وتجاه الأقوياء أيضاً، تجاه الوالدين والأقربين، وتجاه الفقير والغني، وتجاه المودة وتجاه الشنئان، ويعلم أن التجرد من هذا كله يحتاج إلى جهاد ساق، جهاد للصعود إلى هذه القمة على سفوح ملساء، لا تتعلق فيها النفس بشيء إلا بحبل الله.

(28) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج2، ص774.

المبحث الثامن

بيان أن الإمامة لا تورث

قال تعالى: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 247)

قال أبو بكر الجصاص⁽²⁹⁾: يدل على أن الإمامة ليست وراثية لإنكار الله تعالى عليهم ما أنكروه من التملك عليهم من ليس من أهل النبوة ولا الملك، وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب. ودل ذلك أيضاً أنه لا حظ للنسب مع العلم وفضائل النفس وأنها مقدمة عليه، لأن الله أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته وإن كانوا أشرف منه نسباً، وذكره للجسم ههنا عبارة عن فضل قوته، لأن في العادة من كان أعظم جسماً فهو أكثر قوة، ولم يرد بذلك عظم الجسم بلا قوة، لأن في القتال بل هو وبالاً على صاحبه إذا لم يكن ذا قوة فاضلة. وهذا من أعظم قيم العمران السياسي في القرآن الكريم.

(29) أحكام القرآن، للجصاص، دار الفكر، لبنان، 2008م، ج1، ص617.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

- (1) إن إقامة الحدود والقصاص بين الناس يحفظ الحياة ويسود العدل بين الناس.
- (2) إن فقدان العدل سبب في فقدان الأمن وقيام القتال بين البشر.
- (3) العدل أساس الحكومات أي الحكم بين البشر.
- (4) جعل الله القيام بالقسط غاية كل الرسل والرسالات.
- (5) يكون العدل في الأفعال وفي الأقوال.
- (6) إن العدل هو جذر القيم الإسلامية والنبع الذي يتفرع منه سواه.
- (7) إن الله يقيم دولة العدل وإن كانت كافرة، ولا يقيم دولة الظلم وإن كانت مسلمة.

ثانياً: التوصيات

- (1) أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله سبحانه وتعالى.
- (2) ينبغي إقامة العدل ولو على نفسك فإن الله إذا أمرنا بأمر بدأ فيه بنفسه.
- (3) يجب الاتصاف بالعدل والنصفة بين الناس في الحقوق وغيرها.
- (4) يجب أن يكون العدل هو الأصل في كل العقود التي يبرمها البشر.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

- (1) أحكام القرآن، لابن العربي، دار الكتب العلمية، ط4، 2008م.
- (2) أحكام القرآن، للجصاص، دار الفكر، لبنان، 2008م.
- (3) الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية الفتنة إلى الربيع العربي، د. محمد المختار الشنقيطي، ط1 منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، 2008م.
- (4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الحديث، ط6، 1993م.
- (5) التفسير الواضح، د محمد محمود حجازي، دار التفسير، الزقازيق، ط12، 2002م.
- (6) التفسير الوجيز، أ. د وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1996.
- (7) التفسير الوسيط، أ. د وهبة الزحيلي، دار الفكر ط2، 2006م.
- (8) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، مكتبة الإيمان، 2006م.
- (9) سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد، دار الفكر، بيروت، بدون.
- (10) سنن أبي داؤود، سليمان بين الأشعث، دار الفكر، بدون.
- (11) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1996.
- (12) سنن النسائي، أحمد بن شعيب، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1986.
- (13) صحيح الجامع الصغير، الإمام جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون.
- (14) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار التقوى، بدون.
- (15) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط37، 2008م.
- (16) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، دار الفكر، 2006م.
- (17) المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث، ط1، 2000م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

(18) المعجم الوجيز- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم- مصر، مجمع اللغة العربية، 2004م.

(19) المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين المعروف بالأصفهاني، المكتبة التوفيقية، بدون.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مركزية دور الإنسان في بناء العمران من خلال القرآن الكريم

د. فاطمة الزهراء دوقيه

دكتوراه في الدرس القرآني والعمران البشري

بجامعة مولاي إسماعيل

مكناس - المغرب

duquehfatimazahra@gmail.com

ملخص البحث:

إن أهم قضايا فكر الأمة الإسلامية المعاصرة صياغة فقهها العمراني الحضاري، الذي يبحث لها عن سبيل خروجها إلى بر الأمان، ليعيدها إلى موقع إعرابها وشهادتها على الناس وخيريتها في العالمين. ومصدر هذا الفقه "القرآن الكريم"؛ منشئها وسبيل عزها وهدايا الوحيد إلى الحالة العمرانية الحضارية السوية. وأعظم مباحثه بيان ما يتحمله إنسانها من دور مركزي ومسؤولية عظمى في البناء العمراني، وهو المخلوق المكرم صاحب المكانة الرفيعة في الوجود، والخليفة في الأرض.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم- الإنسان - الدور المركزي - العمران .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مقدمة

لا تخفى الحاجة الملحة لأمتنا الإسلامية إلى النهوض لاستعادة تألقها العمراني الحضاري، فيلزمها صياغة فقه للعمران شامل ومتكامل ومتجدد، يعبر عن أنموذجها الخاص؛ ينطلق من "القرآن الكريم"، مصدر فكرها ومعرفتها الأول، وسبب نشأتها وعزها، الذي يهديها إلى التي هي أقوم، وإلى حالة السواء للعمران الحضاري؛ من خلال الإمداد بالرؤية السديدة في مبادئه وقواعده، وتقويم وسائله وآلياته، وترتيب أولوياته، ورسم مقاصده ومنهجه. وجعل العنصر الأساس والأعظم في هذا الفقه العمراني، ما يتعلق بفاعل العمران، وهو "الإنسان"، الذي بوأه الله مكانة متميزة بين سائر المخلوقات في هذا الكون، وأمره بالعمران: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود: ٦١، وهو المفهوم القرآني المركزي المعبر عن رؤيته لوظيفة الإنسان، صاحب الدور المركزي فيه، وإيرادته وحركته يتحقق. فما شأن صاحب هذه المكانة الرفيعة؟ وكيف أبرز القرآن مركزية دوره في البناء العمراني؟

إن بيان هذا الدور له عدة جوانب ومستويات، لكننا نتناول بعضها فحسب في ثلاث مباحث، حسب ما يسع له المقام..

المبحث الأول: الإنسان في التصور القرآني

إن أول البيان القرآني لمركزية الدور الإنساني في الإنجاز العمراني الحضاري، كائن في تعريفه لحقيقة الإنسان ووظيفته. ومعلوم أن تأسيس أي نظام للحياة والعمران يقوم على تصور معين للإنسان وقيمه في الكون والحياة، والبناء القرآني لمفهوم العمران ومنهجه، متأسس على هذا التصور الذي يمثل رؤيته الكونية المعبرة عن فطرة الإنسان السوية، والمحددة لمعنى حياته، وغاية وجوده، ودافعه إلى الفعل، ودوره في "الكون" وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وبذاته وبالآخر وبسائر الخلق، والمحددة لمنهج حياته وطبيعة عمرانه في الأرض، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج المنبثق من تلك الرؤية انبثاقاً ذاتياً¹.

فلا بد من الانطلاق من هذه الرؤية للإنسان "حجر الزاوية لكل أفكار العالم"²، وصاحب الدور المركزي في إعمارها من المنظور القرآني، بدءاً بتعريفه كلفظ لغةً وقرآناً، مروراً بمعرفة هويته الأولى الجامعة التي منحها الخالق سبحانه إياه، وصولاً إلى معرفاته الكبرى التي تأتي تفصيلاً وخدمةً لتلك الهوية.

المطلب الأول: تعريف الإنسان لغةً والاستعمال القرآني

أولاً: الإنسان لغة

ورد في المقاييس أن "الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش. قالوا الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم، يقال أنست الشيء إذا رأيته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ النساء:6، ويقال أنست الشيء إذا سمعته، وهذا مستعار من الأول"³.

واختلف في اشتقاق اسم "إنسان"؛ فقيل من الأُنس ضد الوحشة، وسمي بذلك "لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه"⁴. وقيل من النوس بمعنى الحركة ضد السكون، وقيل من النسيان ضد الذكر الذي "لا يكون إلا بعد العلم فسمي الإنسان إنساناً، لأنه ينسى ما علمه، وسميت الهيمية بهيمية لأنها أهدمت على العلم والفهم، ولا تعلم ولا تفهم، فهي خلاف الإنسان، والإنسانية خلاف

¹ -يراجع عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، ط1، (1430هـ-2009م)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا، ص54. وسيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق- القاهرة، ط17، (1407هـ/2007م)، ص5-6.

² -علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ط1، (1414هـ/1994)، مجلة النور الكويتية - الكويت، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات - ألمانيا، ص47.

³ -أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ص145.

⁴ - الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط4، (1430هـ/2009م)، ص94.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الهيمنية في الحقيقة، وذلك أن الإنسان يصح أن يعلم إلا أنه ينسى ما علمه، والهيمنة لا يصح أن تعلم" ⁵. وقيل من الإيناس بمعنى الإبصار ⁶.

والحاصل في هذا الاختلاف هو أن كل رأي ذهب إلى تبني معنى اشتقائي واحد، مُعتبرهُ المعنى الحصري دون غيره. مما يجعلنا نتساءل: ألا يمكن جمع هذه الاشتقاقات ومعانيها وتركيبها في معنى واحد، كما هو واقعياً كيان واحد؛ إذ الإنسان في حقيقته كل ذلك مجتمعاً: أنس وحركة، وعلم وسمع وبصر وعقل ومشاعر وأحاسيس ووجدان وقيم وأخلاق، دون إغفال أنه ينسى، وأنه ظاهر باد للعيان يستأنس لا خفي كالجن؟! ⁷.

ثانياً: لفظ الإنسان في الاستعمال القرآني

عند استخدام القرآن للفظ "إنسان"، يلحظ إيراده في معرض نعته بصفات متصلة بالأخلاق والقيم النفسية سلبية كانت أم إيجابية؛ كظلم، وجهول، وكفار، ويؤوس، وقنوط، وجزوع... ⁸، فخص كل موضع اعتبر منه أبعاده الروحية والنفسية بلفظ "إنسان"؛ إذ ليس مناط إنسانيته فيما تم الاستقراء من آيات القرآن "مجرد كونه منتمياً إلى فصيلة الإنس... كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض، واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات" ⁹.

إن لفظ "إنسان" ينطوي أساساً على معنى الدين والروح والمتعلقات الأخلاقية؛ وقد نبه الخالق سبحانه "على أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين، ولا ذا بيانٍ إلا بقدرته على الإتيان بالحقائق الدينية، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن: 1-4. فابتدأ بتعليم القرآن، ثم بخلق الإنسان، ثم بتعليم البيان، ولم يدخل الواو بينهما، وكان الوجه على متعارف الناس أن يقول خلق الإنسان، وعلمه البيان، وعلمه القرآن. فإن إيجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان، وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن، لكن لما لم يُعدَّ الإنسان إنساناً ما لم يتخصص بالقرآن، ابتدأ بالقرآن، ثم قال: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ"، تنبيهاً على أن بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة، ثم قال: "عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"، تنبيهاً على أن البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن، فنبه بهذا الترتيب المخصوص، وترك حرف العطف منه،

⁵- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة، ص 274 - 275.

⁶- يراجع عادل العوا، الإنسان ذلك المعلوم، منشورات عويدات- بيروت، باريس، ط 2، 1982م، ص 19-25.

⁷- نفسه، ص 25 - 26.

⁸- يراجع مفاهيم التنمية البشرية في القرآن، فريدة زمر، مجلة الفرقان الأردنية، العدد 72، (محرم 1429هـ/يناير 2008م)، الأردن، ص 23.

⁹- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مقال في الإنسان دراسة قرآنية، دار المعارف- القاهرة، ط 2، (1389هـ/1969م)، ص 15.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها، لا عطفاً على أن الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصصاً بها لا يكون إنساناً، وأن كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً¹⁰.

وعلى هذا سُمي الإنسان إنساناً إحالةً إلى أربع حيثيات فيه تناسباً معها: تكوينه وتركيبه المزدوج¹¹، شرفه وفضله، وغاية وجوده، وفعله المختص به؛ ف"الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالأخر كما قيل: فالأرض من تربة والناس من رجل. وإنما شرفه بأنه يوجد كاملاً في المعنى الذي أوجد لأجله، وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه فإنه أوجد لفعل يختص به، (ولولاه لما وجد، وله غرض لأجله خص بما خص به) ... والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: ١- عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود:61؛ وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره. ٢- عبادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:56، وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه. ٣- وخلافته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف:129، وغيرها من الآيات؛ وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة¹².

فالإنسان إنسانٌ إذًا لهذه الاعتبارات، وخاصة باعتبار شرفه وما أوجد لفعله؛ "فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه"¹³.

ويسمى هذا الكائن "إنسان" أيضا بلفظ "بشر"، فما الفرق؟؟

ثالثاً: الفرق بين "إنسان" و"بشر"

إن الإطلاق على الإنسان بلفظ "بشر" يأتي للإحالة على جانبه المادي الظاهر فحسب؛ وهو ما تؤكد اللغة والاستعمال القرآني.

* أما في اللغة فقد جاء أن "الباء والشين والراء أصل واحد: ظهور الشيء مع حسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان... وسمي البشر بشراً لظهورهم"¹⁴؛ فيسمى بشراً لظهور بشرته، وتجردها من الشعر والصوف والوبر، ويتميز عن جميع الحيوان أنه بادي البشر. فحين يتم التعبير بأن الشيء بشري يراد به اعتبار "معناه

¹⁰- الراغب الاصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، منقولة من نسخة خطية قديمة ومقابلة على نسخة أخرى كتبها لنفسه الشيخ رضي الدين بن أبي بكر الحلبي سنة 963، ومصححة في غاية الدقة والاعتناء بمناظرة الشيخ طاهر الجزائري، طبع في بيروت، 1319هـ، ص 72-73.

¹¹- سيأتي الحديث عن هذه المسألة في المطلب الثاني من هذا المبحث.

¹²- الراغب الاصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد أبو زيد العجفي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط ١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ٨٢-83.

¹³- نفسه، ص 83.

¹⁴- مقاييس اللغة، مرجع سابق، ص ٢٥١/١.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الأصلي من غير تعلقات أخلاقية"¹⁵، وفي الفروق اللغوية: "سعي الناس بشرا لأنهم أحسن الحيوان هيئة... وسُمُّوا بشراً لظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد: بشرة"¹⁶.

* وفي الاستعمال القرآني "خص كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر، نحو: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ الفرقان: 54. وقال عز وجل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ص: 71... وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ آل عمران: 47، مريم: 20، فخص لفظ البشر. وقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم: 17، فعبارة عن الملائكة ونبه أنه تشبه لها وتراءى لها بصورة بشر"¹⁷.

وعليه، يأتي لفظ "بشر" بياناً لـ "جنس الإنسان في مقابل أجناس مخلوقات أخرى كالملائكة، أو غيرها من المخلوقات المفارقة"¹⁸، واستقراء وروده "يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الأدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق. وفيها يلتقي بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة"¹⁹.

وعليه، يتبين الفرق بين "بشر" و"إنسان"، وما يشير إليه كل لفظ؛ فالتعبير بـ "الإنسان" هو المطابق لخلقته الكاملة وطبيعته وميزته، بينما يشير لفظ "بشر" إلى جزئه المادي البادي. فوجب مراعاته عند صياغة المفاهيم المتعلقة بهذا الكائن، أي "وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به، فإن كل شيء عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه"²⁰.

وهذا يعكس من وجه ثراء اللغة العربية ودقتها وحسها الأصيل، وكذا البيان القرآني الذي عهدناه في عاداته النظامية واستعمالاته اللغوية دقيقاً غاية الدقة، ولا مجال فيه للاعتباط أو اللفظ كيفما اتفق. وبناءً عليه، ينبغي التعبير بـ "العمران الإنساني" عوض البشري، لتنبهه إلى الصورة الكاملة، والحاجات الشاملة. وهذا الاستنتاج لا يصحح الصياغة الشكلية لمصطلح "العمران البشري" فحسب، بل يدخل في صميم تأصيل مفهوم خاص له²¹، ولغيره من الصياغات والمفاهيم كالتنمية أو الحضارة أو التقدم... فوصفها بالإنسانية يجعلها لا تنحصر في المعايير المادية الضيقة أو الإشباع المادي وما شابه، بل يمتد إلى الجوانب المعنوية التي تؤكد الكمال الإنساني.

¹⁵- هادي العلوي، قاموس الإنسان والمجتمع، سلسلة المعجم العربي المعاصر، قواميس عربية مبوبة على الموضوعات (١)، دار الكنوز الأدبية- بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٧١.

¹⁶- الفروق اللغوية، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

¹⁷- المفردات، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

¹⁸- مفاهيم التنمية البشرية في القرآن، مرجع سابق، ص ٢٢.

¹⁹- مقال في الإنسان، مرجع سابق، ص ١١.

²⁰- المفردات، مرجع سابق، ص ٨٢٩.

²¹- يراجع مفاهيم التنمية البشرية في القرآن، مرجع سابق، ص 23.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ويبدل هذا على أن قيمة هذا المخلوق متأتية من إنسانيته لا من بشريته، فالأولى أصل والثانية تبع، أو الأولى راكب والثانية مركوب. ويكون الإنسان إنساناً باعتبار ما له من فضل نوعاً على غيره من المخلوقات؛ أي "ما به صار إنساناً وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل، ولهذا قيل الناس أبناء ما يحسنون، أي ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة"²².

وهذا المفهوم لـ"إنسان" وأبعاده هو ما تناسب وما كلف به من وظيفة في الحياة وتطلبته مهمته في الأرض، فكان اسمه على مسماه ..

المطلب الثاني: معرّفات الإنسان في القرآن

نظراً لرفعة شأن الإنسان، ومركزية دوره في الوجود؛ فقد ظل "المحور الأساسي في البيان القرآني يدور عليه القول في سائر الأغراض، وتعود إليه المعاني في سائر المقامات، وليس ذلك في مجال الخطاب التكليفي فحسب مما يبدو بدهياً؛ إذ القرآن خطاب من الله تعالى للإنسان، ولكن في كل مقامات الشرح الوجودي في مختلف الأغراض، وهو ما يشهد بأن للإنسان مقاماً في القرآن الكريم يغير في النوع مقام الموجودات الأخرى جميعاً"²³. وبيان هذا المقام كما يلي:

أولاً: المعرّف الأكبر والهوية الأولى

حين أعلن الله تعالى لملائكته عن مقدم الإنسان، عرفه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠، أي سماه حصراً "ال خليفة في الأرض". بهذا الإعلان تبدأ قصة الإنسان في القرآن، ليرز مركزه الرفيع، وميزته الأولى في الوجود، ودوره المركزي في الحياة والعمران، ما أثار تساؤل الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة: ٣٠. ويتأكد تميزه ورفعته في معنى استخلافه؛ وهو "الخلافة عن الله تعالى لتنفيذ مراده في الأرض وإجراء أحكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها المستخلف-الله- ائتماراً بما أمر وانتهاءً عما نهى"²⁴. أي أن استخلافه اقتضى أن يسلم مقاليد الأرض، ويطلق فيها يده، ويوكل إليه إبراز مشيئة الخالق في عمارتها بشتى ألوان النشاط الحيوي، عبر كشف ذخائرها وإمكاناتها، لتسخيرها في مهمته لتحقيق "إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي"²⁵.

²²- الذريعة الى مكارم الشريعة، مرجع سابق، ص 79.

²³- عبد المجيد عمر النجار، قيمة الانسان، سلسلة الانسان في العقيدة الإسلامية (٢)، دار الزيتونة للنشر- الرباط، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص ٦-٥.

²⁴- عبد المجيد عمر النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص 47- 48.

²⁵- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، دار الشروق- مصر، ط ٩ الشرعية، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ٣٣٨٧.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ومفاد ذلك أن موقع هذا المركز الإنساني الرفيع ضمن التصور الكلي للوجود؛ أي من الله ومن الكون هو "موقع الوسط، العدل، الحق"، فهو ليس محور الكون وسيده، وإنما هو خليفة الله فيه، وسلطانه في عالمه، وسيادته على الطبيعة ليس مطلقاً، ولا هي بالسيادة المطلقة، وإنما يحكمه ويحكمها إطار وبنود عهد الاستخلاف²⁶، لتضبط حركته الاستخلافية العمرانية. وتمثل فيما شرعه الله تعالى من أحكام وتشريعات، عليه اتباعها ليفلح في مهمته، وقد قال سبحانه في ختم مشهد إعلان استخلافه: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: 38؛ فقله: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، "هو في معنى العهد أخذه الله على آدم، فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله ... وأولى الهدى وأجدره بوجود اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر، وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم"²⁷.

وحين قضى الله تعالى باستخلاف الإنسان، زوده بلوازمها وخصائصها؛ فوهبه الملكات والصفات التي "لا بد منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه"²⁸. وعلى رأسها ملكة "العقل"، مناط تكليف الإنسان وسبب تميزه عن جميع الخلق، ولعلها المقصودة حين أجاب الله تعالى الملائكة: ﴿قَالَ إِنِّي أَنزَلْتُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ بِمَا صَدَّقْتَ وَالْحِجْرَةَ﴾ البقرة: 30؛ فبين أن ميزة هذا الخليفة ما يملكه من القدرة على العلم والتعلم وإدراك ما يتعلمه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: 31. ولعل شأن هذه الميزة العقلية فيه، كان أول الوحي في الرسالة الخاتمة للبشرية: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ العلق: 1. فالقراءة والعلم أولى الفرائض القرآنية، وفي ذلك دلالة قوية على أنها الأساس والعمدة لإنجاز كل ما يأتي بعد من المسؤوليات والتكليفات.

إن العقل هو أداة الخليفة الكبرى للقراءة في آيات الله في الكتابين الوحي والكون²⁹، ليحصل معارفه اللازمة (تيسيراً وتسخييراً)³⁰، لاستثمارها في إنجاز استخلافه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة: 242. فالمقصود بالعقل "تلك القوة الإدراكية المعيارية في الإنسان التي على أساسها حمل أمانة الخلافة، والتي على أساسها خوطب بالوحي ليتحملة فهماً وتطبيقاً. وهذا المفهوم يتجه في التحديد وجهة المقابلة بين وسيلة إلهية للكشف عن الحقيقة هي الوحي، ووسيلة إنسانية هي العقل الذي يتسع بهذا المفهوم ليصبح

²⁶- محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا، ط1، (1429هـ- 2008م)، ص 37-38.

²⁷- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، الدار التونسية للنشر- تونس، ط 1984م، ص 443-444.

²⁸- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية؛ وجود الخالق ووظيفة المخلوق، دار الفكر المعاصر- بيروت، ودار الفكر- دمشق، ط 25، (1426هـ/ 2005م)، ص 65.

²⁹- يراجع طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين؛ قراءة الوحي وقراءة الكون، سلسلة دراسات قرآنية (2)، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ط 1، (1427هـ/ 2006م)، ص 14-20.

³⁰- يراجع أحمد عبادي، الوحي والإنسان؛ نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، دار النيل للطباعة والنشر- تركيا، ط 1، (1434هـ/ 2013م)، ص 73.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مستجمعاً لكل قوى الإدراك والتمييز في الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: 36³¹.

فيتبين أن الإنسان جعل مستخلفاً على أساس ميزته العقلية، ومعناه "ابتداءً أن منهج الخلافة بأسره متأسس على العقل الإنساني في تنزيهه على الأرض، فهو وسيلة ذلك التنزيل، ولولاه ما كان وجد منهج للخلافة أصلاً. وهذا الوضع الذي تبوأه العقل في التنزيل الأرضي لمنهج الخلافة يجعل دوره عظيماً في إنجاز ذلك التنزيل، لما يستلزم ذلك الإنجاز من التحرك بين ذلك المنهج في صورة الوحي الإلهي المتعالي، وبين الواقع المادي لحياة الإنسان في دائرة الكون حركة تجعل من ذلك الوحي الإلهي في صورته المجردة واقعاً حياتياً نافذاً، وهو ما يقتضي استيعاب الوحي من جهة، وتكميل ما تركه للتفصيل بحسب المنقلبات المستمرة من جهة أخرى، والعمل على سوق هذا وذلك في سبيل التنفيذ العملي من جهة ثالثة"³².

ثانياً: معرفات كبرى للإنسان

مما تقدم، تبرز "الخلافة في الأرض" هوية للإنسان الأولى في القرآن³³، لتأتي المعارف القرآنية الأخرى تفاصيل تخدمها؛ ننضم إلى سياقها وتنسق معها، وتعبّر كل واحدة عن جانب من جوانبها، وصورة من صور أدائها³⁴، وهي ترد كحقائق أساسية كبرى، يتشكل بمجموعها كامل التصور الكوني الكلي حول الإنسان وموقعه في الكون ودوره في الحياة. نذكرها مختصرة فيما يلي:

١- **المعرف التكويني:** يوفر لنا القرآن الكريم عرضاً شاملاً ويقينياً لمسألة خلق الإنسان وطبيعة تركيبه، يجمله قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: ٤، ويفصله في قوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ السجدة ٧-٩. فهذه هي البنية الخلقية الإنسانية المسواة؛ جانبها الأول مادي من طين الأرض؛ والثاني نوراني من روح الله، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يلتقي فيه الجانبان في أحسن تقويم وقوام، "أي عدل وتسوية، وحسن التقويم أكمله وأليقه بنوع الإنسان، أي أحسن تقويم له، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة"³⁵.

³¹- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق، ص ٥٨-٥٩.

³²- نفسه، ص ٥٩.

³³- يراجع علي شريعتي، الإنسان والإسلام، ترجمة: د.عباس الترحمان، مراجعة: حسين علي شعيب، سلسلة الآثار الكاملة (22)، دار الامير للثقافة والعلوم- بيروت، ط 2، (1428هـ - 2007م)، ص ١٥-١٦.

³⁴- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق، ص ٤٧.

³⁵- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣/423-424.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وهذا القوام الأحسن الذي تفرد به الإنسان وتميز، يأتي ليتطابق مع اسمه "إنسان" -كما سبق-، تناسباً مع ما أوكل إليه من الأدوار الأساس في المهام الاستخلافية؛ إذ يساعده على تأديتها على الوجه الأصح والأكمل؛ فجانبه الروحي يمكنه من السمو والعلو نحو الأفق الإلهي ليقبس منه مضمون الخلافة أمراً ونهياً على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمل، وجانبه المادي الأرضي يمكنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها لعمارتها³⁶.

٢- معرّف قيمته في الكون: مما يبرز مركزية دور الإنسان في إعمار الأرض، هذا الجانب المتعلق بقيمته في الكون وعلاقته به؛ فمعلوم أنه يتساوى معه من حيث المخلوقية والمعلولية لله تعالى، لكنه يتميز عنه قيمة؛ ويستقل بسلم قيمي خاص، يجعله يتبوأ فيه مركزاً مستعلياً عليه، متصرفاً فيه بمقتضى مقام الخلافة³⁷؛ إذ جعل استخلافه متعلقاً بالمسرح الكوني؛ "بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشمس والكواكب... وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة"³⁸.

ولهذا، يرد الحديث القرآني عن الكون دائماً مرتبطاً بوظيفة الإنسان ببعديه، فجاءت وظيفته مقيسةً على وظيفة الإنسان خادمةً لها، بما هي "مباشرة الإنسان للكون بالروح وبالجسم: اعتباراً به، واستثماراً لمنافعه وخيراته"³⁹. وهكذا تتحدد الوظيفة الكونية بمستويين:

* مستوى التدليل: حيث تعرض عليه آيات الكون في سياق الاستدلال على سائر مسائل الإيمان وحقائقه، لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت:53؛ فلقد جعل سبحانه ملكوته أكبر دليل على ربوبيته وألوهيته، وهو ما يمثل مصدر التزويد بالحاجات الروحية والمنافع الإيمانية للإنسان. ف"وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى، المعرفة التامة، أن يفحص عن منافع الموجودات"⁴⁰.

* ومستوى التسخير: وذلك في سياق المن بالنعيم، والأمر بالسير فيه لكشف نواميسه، لتوظيفها في القيام بالأداء العمراني، وتلبية حاجاته المادية، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية:13. ومعنى التسخير أن الله تعالى "هياً العالم بحيث يكون صالحاً لاستقبال الإنسان، وسخر موجوداته لخدمته تسخيراً، فحدد الأبعاد والقوانين والأحجام بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في الأرض، وما

36- النجار، قيمة الإنسان، مرجع سابق، ص 19.

37- يراجع نفس المرجع، ص 6-7.

38- في ظلال القرآن، مرجع سابق، 60/1.

39- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق، ص 49.

40- ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة، مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام، تحقيق: محمود قاسم، سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية، مكتبة الانجلو مصرية، ط 1964م، ص 101.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يستجيب لقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًا فعالاً⁴¹. فهو تفويض الإنسان حق التصرف في خيارات الطبيعة والكون بما يرضي الله، ليحقق مصالحه المادية ويلبي حاجاته.

وهكذا، يبرز البيان القرآني الكون خادماً للإنسان مهياً ليلبي حاجاته الروحية والمادية، فهو كتاب الله المنظور الذي تُقرأ فيه حقائق الوجود والإيمان، وكذا يوفر له كل ما يلزمه لممارسة فعله العمراني. إنه "مسرح العمل الإنساني، إن بالمباشرة الفعلية، وإن بالتأمل والتدبر"⁴².

3- معرّف الغرض الوجودي

يعتبر الغرض الوجودي للإنسان أهم حلقة في سلسلة التصور القرآني الكوني المبين في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:56، الذي يتناول أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم الحياة الإنسانية بدون إدراكها واستيقانها. إنها العبودية لله وحده، فلسفة القرآن للحياة والأحياء التي بها يفهم الوجود كله؛ فتحده كثنائية طرفاها خالق وكون (إنساناً وطبيعة)، أي مقام الألوهية بخصائصها، الصادر منه كل شيء وإليه يرجع، ومقام العبودية بخصائصها، مقام كل مخلوق. فتتنوع صور هذه العبودية تبعاً لهذه الثنائية؛ كل طرف يعبد الله على شاكلته التي جبل عليها، فيصبح لها صورتان:

* الأولى: تخص كل الموجودات ما عدا الإنسان، تعبد الله بالتسخير؛ فلا حرية ولا اختيار ولا إرادة: ﴿إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم:93، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد:15. فقد رُها أن تظل ساجدة لله على الدوام، آخذة بموقعها ثابتة منذ لحظة خلقها⁴³.

* الثانية: تخص الإنسان المخلوق المتميز، الذي يعبد ربه عبادة خاصة؛ تتناسب وامتيازاته وخصائصه من حرية الإرادة والاختيار، وخلقته المزدوجة التي ركب بها، عبادة ارتكزت على الكدح والمكابدة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ البلد:4، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ﴾ الانشقاق:6. فقد ر "أن يكدح ويكابد ليتبوا موقعه، ويقوم بتعريف نفسه، قدره أن يعمل لتحقيق السجود، ويقتمح كل العقبات المانعة له من ذلك: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ البلد:8-16⁴⁴.

وتشمل العبادة الإنسانية في معناها القرآني كل صور الحياة وشتى الأعمال فيها المادية والمعنوية التي بها تعمُر الأرض بالخير المادي، إلى جانب الفضيلة والسمو الأخلاقي، فيحقق كماله الإنساني؛ فهي ليست قضية

41- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق، ص 42 ..

42- قيمة الإنسان، مرجع سابق، ص 57.

43- الوحي والإنسان، مرجع سابق، ص 91-92.

44- نفسه، ص 91-92.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

شعائر فقط؛ "وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة، وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة"⁴⁵، فلا تعني الانقطاع والتجرد عن الدنيا، بل هي تطويع الإنسان لكل طاقاته لله؛ فيضع بصماته المؤمنة على الأرض ويجعلها وكل ما فيها ساجداً له، تؤدي وظيفته وتحمل طابعه وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده. وهل ملك الله الأرض للإنسان إلا لهذا!!⁴⁶، بل وهل معنى الخلافة في الأرض عن الله إلا تعبيدها له!!؟.

جملة القول إذاً أن قصة الإنسان في القرآن التي عنوانها "الخلافة في الأرض"، قد سيقت لتبرز مكانته وما أدت إليه من "تغير جذري في النسب بين الموجودات، حيث أصبح القطب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقات جميعاً، وتتحدد قيمتها بقدر ما تقترب منه أو تبتعد عنه، وما جاء من سجد الملائكة لأدم وقد كانوا أشرف المخلوقات ونيلهم بذلك الرضا الإلهي، ومن امتناع إبليس من السجود ونيله بذلك اللعنة والخسران، إنما هو رمز لتحول في قطبية المخلوقات لتكون في صالح هذا القادم الجديد"⁴⁷. إنها تأتي لتنبئ بما يحمله ويتحمله من دور عظيم هو الأول في أداء مسؤوليات الحياة الأرضية التي أمر بالهبوط إليها؛ "فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها؛ وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر!"⁴⁸.

ولكي يستحق هذه المكانة ويفلح في تأدية مهامه، يلزمه شرط صحة، ومؤهل لا غنى عنه، وإلا لا يصلح لها.. وهو محور المبحث التالي .

⁴⁵- في ظلال القرآن، ١٩٤٣/٤.

⁴⁶- محمد الغزالي، علل وأدوية؛ دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الإسكندرية، ط. ٦، (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م)، ص ١٨.

⁴⁷- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق، ص ٤٠-٤١.

⁴⁸- في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٦٠/١.

المبحث الثاني: المؤهل القرآني للإنسان لبناء العمران

لما كان الإنسان بهذا التميز في الوجود، وسيدا في الكون، فقد اهتم به القرآن الكريم من جهة كيف ينبغي أن يكون إضافة إلى كيف كان فكان، تأهيلاً له ليؤدي وظيفته الاستخلافية العمرانية بنجاح. فيعد هذا الجانب بدوره مبرزاً لدور الإنسان المركزي في إعمار الأرض. فكيف يريد أن يكون؟

اقتضت رحمة الله تعالى حين استخلف الإنسان في الأرض ألا يدعه لنفسه، يفعل ما يشاء كيفما يشاء من دون توجيه ولا إرشاد، بل شرع له طريقاً جعله شرط صحة، ومؤهلاً لازماً ليستحق صفة السيادة في الكون، والاستخلاف عن الله، ولهذا اهتم القرآن غاية الاهتمام بهذا الشرط، في كل مواضعه وأغراضه التي خاطب بها الإنسان تأهيلاً وإعداداً للبناء العمراني على الوجه الأصح والأكمل. إنه شرط التزكية المؤهل الاستخلافية العمرانية الأعظم، ذلك المقصد العالی القرآن، الملحوظ في كل أغراضه.

المطلب الأول: أهمية التزكية في القرآن

يعتبر مفهوم التزكية من مفاهيم القرآن الكلية، ومن مقاصده العليا، الذي يُلمس في كل مواضعه، ويُلاحظ في جميع أغراضه. عليه يتوقف نجاح الإنسان في مهمته، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ الشمس: ٩، و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الأعلى: ١٤. وموضوعه إصلاح الخليفة في الأرض، بغرض الإصلاح فيها وعمارتها بالخير والفضيلة.

أولاً: مفهوم التزكية

من أصل زكاً، ومنها زكّي وتزكّي، ويدور معناها لغةً حول معاني الخير والنماء والزيادة والصلاح والإصلاح والطهارة والمدح. وهي نفس المعاني التي استعملها بها القرآن؛ ف"أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية. يقال زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة. وقوله: ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ الكهف: ١٩، إشارة إلى ما يكون حالاً لا يستوخم عقباه، ومنه الزكاة: لما يُخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس، أي تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعاً، فإن الخيرين موجودان فيها"⁴⁹. وفي التوقيف: "التزكية إكساب الزكاة، وهي نماء

⁴⁹- المفردات، مرجع سابق، ص ٣٨٠-٣٨١.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم ... وأصل التزكية نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان⁵⁰.

وحالة التزكية التي نقصدها هي ما تأتي كفعل للإنسان وكسبه؛ وهي حالة التطهير والإصلاح. وفسر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٩، أن الإنسان جعل فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما⁵¹، وكذا معنى "تزكى" في: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الأعلى: ١٤، أي "عالج أن يكون زكياً، أي: بذل استطاعته في تطهير نفسه وتزكيتها ... فمادة التَّفَعُّلِ للتكلف وبذل الجهد"⁵².

وعليه، يكون معناها عملية إنسانية يقوم بها لنفسه بنفسه، يبذل جهده ليصلحها بالخير والفضيلة لأجل الفلاح، لقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس: ٩، فَيُجَنَّبُ جَهَنَّمَ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ الليل: ١٧-١٨، ويجازى الجنة: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ طه: ٧٥-٧٦. ومن عمل الصالحات يذكر سبحانه الذكر والصلاة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ الأعلى: ١٤-١٥، وإنفاق المال فيما يرضيه، في قوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ الليل: ١٨، وقس على ذلك كل الأعمال الصالحة التي تتوسل لاكتساب حالة التطهر والإصلاح. وعائد التزكية ونفعها يكون لصاحبها: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ فاطر: ١٨.⁵³

ثانياً: أهمية التزكية في البناء العمراني

إن موضوع التزكية هو "الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، إصلاح الفرد والجماعة والأمة. والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح. وأي موضوع عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا انطبق على الإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية"⁵⁴.

ومقصدها تأهيل الإنسان لخلافة الله وإقامة هديه في الأرض؛ فلا يصلح لها "إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء به تعالى على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس

50 - عبد الرؤوف بن المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب- القاهرة، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص 96.

51 - جار الله أبو القاسم بن عمر الزمخشري، الكشاف، ج ٣٠، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيجا، دار المعرفة- بيروت، ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص 1205.

52 - التحرير والتنوير، مرجع سابق، 287/30.

53 - يراجع فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- عمان، ط١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص ٨٢.

54 - نفسه، ص ٨١.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

لم يكن طاهر القول والفعل؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح ... ولهذا قيل: من طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله"¹. ومن ثم يتلخص دور التزكية وأهميتها في حياة الإنسان وانسجامها مع ما لأجله أُوجد؛ كونها السبيل الذي باتباعه تتسامى نفسه وترتقي، وتطهر من آفاتها ورعوناتها، فتتكفل بتنمية نزوعه إلى التقوى والإصلاح، وبإضعاف نزوعه إلى الفجور والإفساد، سنة الله التي لا تبدل لها ولا تحوّل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٧-١٠، فبمقدار ما تتحقق النفس الإنسانية بالتزكية، تتطهر و"يخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب أن يتحملة في جنسه من المهام والواجبات المختلفة. وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية..."².

وبيان ذلك أن الإنسان لما أُقدر بما وهب من الاستعدادات والملكات على التصرف في إدارة شؤون الحياة وعمارة الكون؛ حيث "بث فيه صفة العقل وما يتفرع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها، والوصول إلى ما وراءها، وبث فيه معنى الأنانية، وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والتملك، وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بث فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات، تعد متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها، كالحب والكرهية والغضب وما إلى ذلك"³، احتاج معها إلى ما يوجهها في اتجاه صلاحه وإصلاحه في الأرض، وتيسير مسؤولياته، فالمعلوم أن "لهذه الصفات شرة كبيرة، ولها آفات عظيمة؛ وهي أسلحة ذات حدين، إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون وبالخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الآخر، أو استعملهما معا جاء ذلك بالشر الويل والفوضى الهائلة وأورث الإنسانية شقاء لا آخر له"⁴. فخطورتها تكمن في أن من شأنها أن تسكر تسكر الإنسان وتطغيه، وتنسيه حقيقته وقدر نفسه، ودوره المحدود في الوجود في إطار المشيئة الإلهية، وتجعله ينصب نفسه في مقام الألوهية، فيطغى ويفجر، لقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا فَاكِرًا﴾ الأعراف: ١٧-١٨، وما الطغيان البشري في واقعنا بشتى صورته، إلا تعبير عن تحرر الملكات الإنسانية عن الضوابط الأخلاقية فيعتقد صاحبها ألا رقيب عليه، ولا محاسب له، ولا عقوبة تنتظره؛ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

¹- الذريعة إلى مكارم الشريعة، مرجع سابق، ص 86-87.

²- محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر- دمشق، ط ٢، (١٣٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص 25-26.

³- كبرى اليقينيات الكونية، مرجع سابق، ص 65.

⁴- نفسه، ص 65.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إنه بدون التزكية تحصل التدسية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ الشمس: ١٠؛ أي النقص والإخفاء بالفجور¹، فمعنى "دَسَّهَا" "حالَ بينها وبين فعل الخير. وأصل فعل (دَسَّى): دس، إذا أدخل شيئاً تحت شيء فأخفاه"²، أي "أغواها إغواءً عظيماً وأفسدها ودَّس محيائها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وقبائح النيات والأحوال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، والجلافة والعقوق"³.

وتفاديا لهذا الحال يحتاج الإنسان قوة التزكية الدافعة والدافعة التي توجهه إلى الصلاح، وتمنعه من أن يستعمل ملكاته إلا من حدها المفيد، لأنها "تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتتجه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها تستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها.. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية. والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد. وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله، أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة، من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً! وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور، في دفعة الحركة ودفعة الحياة.. وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج؛ فلا يعتدي، ولا يتهور، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح"⁴.

ثالثاً: منهج القرآن في تزكية الإنسان فرداً وجماعة

تتبين أهمية التزكية إذاً في تمكين الإنسان من التسامي المتواصل نحو كماله، وإعداده لحالة السواء، تأميناً للحياة من الشر والفساد، وتعميراً بالخير والصلاح، وهو الفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الأعلى: ١٤، من أجل ذلك رسم القرآن منهجاً فريداً للتزكية يحقق إصلاحه، وذلك على مستويين:

* على مستوى الفرد؛ تشكياً لعقليته القويمة، عبر إصلاح التفكير والاعتقاد والتصورات، وصياغةً لنفسيته المستقيمة بإصلاح القلب وتصفية النفس بما شرعه من العبادات ووضعها من الأخلاق والقيم⁵.

* وعلى مستوى الجماعة تعاملاً وفق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل: 90، أي وفق قيمتي العدل والإحسان الكليتين اللتين تجذبان باقي القيم الجماعية، فتضبط العلاقات الاجتماعية، على أساس التراحم والمواساة، لا

1- الكشاف، مرجع سابق، ١٢٠٦/٣٠.

2- التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٣٧١/٣٠.

3- برهان الدين أبو الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ٢٢، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ط ١، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ٧٨-٧٩.

4- في ظلال القرآن، مرجع سابق، 1339/3.

5- يراجع طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران؛ محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ١١١-١١٢.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يداخلها التناكر ولا التناحر، فيبنى المجتمع الصالح المزكّي؛ الذي يتحفز للعمل لتحقيق الأهداف الجماعية التي نشأ من أجلها¹..

فقضية القضايا إذاً تزكية الإنسان وإصلاحه، فرداً وجماعةً، ليصلح واقعه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١، بشأن الفكرة الإيمانية الامتداد من الداخل إلى الخارج؛ فإن تزكت النفس انعكس تزكّيها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح تزكياً على مستوى جماعي، لتمتد إلى الإنجاز في الأرض عمراناً راشداً مهتدياً.

هكذا جاء المنهج القرآني في التغيير والإصلاح الإنساني العمراني؛ حيث "عالج صلاح الإنسان بصلاح أفراد الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعته وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة بإصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكير الإنساني الذي يسوقه إلى التفكير الحق في أحوال هذا العالم. ثم عالج الإنسان بتزكية نفسه، وتصفية باطنه، لأن الباطن محرك الإنسان إلى الأعمال الصالحة... ثم عالج بعد ذلك إصلاح العمل، وذلك بتفنن التشريعات كلها. فاستعداد الإنسان للكمال وسعيه إليه يحصل بالتدرج في مدارج تزكية النفس"².

وهكذا نخلص إلى أن مطلوب القرآن من معالجته شؤون الإنسان من جهة كيف يكون، إخراج "إنسان التزكية"، المتحقق بحقائق الإيمان والتوحيد، العامل بها بالعمل الصالح علة الخلق، ومادة الابتلاء والاختبار في المعاش: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: 2. وما هذا العمل الأحسن والصالح إلا البناء العمراني الراشد³؛ حيث تبرز فيه عملياً طاقات الإنسان وإبداعه في بناء العمران.

¹ - يراجع محمد عبد الفتاح الخطيب، قيم الإسلام الحضارية: نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، العدد ١٣٩، السنة ٣٠، المحاكم الشرعية والشؤون الدينية- قطر، ط ١، (رمضان ١٤١٦هـ/غشت شتنبر ٢٠١٠م)، ص ٧٣-٨٢.

² - محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ٦٢.

³ - يراجع التوحيد والتزكية والعمران؛ مرجع سابق، ص ١١٩.

المبحث الثالث: الدور الإنساني في البناء العمراني في القرآن

يشغل موضوع العمران مساحة كبرى في القرآن الكريم جاعله رؤيته لوظيفة الإنسان المستخلف في الأرض، المتعلقة بالجانب المادي من حياته، وما به تزجية معاشه، فأرشدته إلى مواده الأساسية المبتوثة في الكون، عليه اكتشافها والتعامل معها وفق سننها، لاستخراج خيراتها واستثمارها في حياته، ولكنه يشترط عليه أن يكون مؤهلاً محققاً للتزكية التي شرعها سبحانه لهذا الغرض، وهو الامتداد في الواقع، والانعكاس رشداً واهتداءً في العمران. هذا فضلاً عن أنه ينظم له بتشريع الكلي لتلك المجالات الاجتماعية مسرح المناشط الإنسانية؛ إذ يهديها إلى الأقوم والأصلح فيها، بما وضعه من مبادئ عامة وقواعد كلية فيما يتطور فيها ويتغير بتغير الزمان والمكان، إلى جانب ما وضعه من أحكام تفصيلية فيما لا يتطور ولا يتغير.

ويأتي هذا المبحث لبيان دور الإنسان المركزي في البناء العمراني حسب بعض مجالاته، بعد بيان معناه ومفهومه ..

المطلب الأول: مفهوم العمران في القرآن

أولاً: العمران في اللغة:

أصله "عمر" لغةً، وهو الحياة. يدل على بقاء وامتداد زمانٍ، والعمر: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء. والعمارة نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، وأعمرته الأرض واستعمرته: إذا فوّضت إليه العمارة، ويقال: عمّرتُ بمكان كذا، أي: أقمتُ به، والمعمّر: المسكن يكون عامراً بسكّانه. والعومرة: صحبٌ يدلّ على عمارة الموضع بأربابه. والعماز: ما يوضع على الرأس عمارة كالعمامة والقلنسوة ...¹

إن المعنى الذي تدور حوله مادة "عمر" "شغل فراغ الأثناء بمناسبٍ يثبّتها أو يبرز نفعها ويديمه؛ كالعمور بين الأسنان، واليدين في الكمين، والثوب الصفيق بكثافة خيوطه فيه ... والعماز يجعل على الرأس تدخل في فراغه فتملؤه، وعمّر المال (قعد): صار كثيراً وافراً، فدام، والمعمّر كمسكن: المنزل الكثير الماء والكلأ والناس، وهو وجود دائم في أثناء، ومن ذلك عمّر المنزل: سكنه فشغل فراغه وأقام فيه. وملاء الفراغ بسده أو الإقامة فيه، استغلالٌ له وتحصيلٌ لفائدته. ومن هذا تؤخذ العمارة بمعنى تشغيل الشيء العاطل أو المهمل لتحصيل فائدته: ﴿وَأَثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ الروم: ٩، ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود: ٦١؛ أسكنكم أو أمركم بعمارته. والمعنى: شغل فراغ الأثناء لم تذكره المعاجم، ولكنه معنى صحيح في ضوء تحليل التركيب"².

¹- يراجع المفردات، مرجع سابق، ص ٥٨٦-٥٨٧، ومقاييس اللغة، ٤/١٤٠-١٤١.

²- محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ١٥٢٢-١٥٢٥. بتصرف.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ثانياً: العمران في القرآن:

يرد مفهوماً مركزياً محددًا لوظيفة الإنسان المستخلف في الأرض، ومجلى نتائج تزكيه ومحلّ "الترجمة العملية والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حددتها فلسفة التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق، والكون والحياة، والإنسان والآخرة"¹. ومفهومه قرآنيًا متسق مع ما سبق، ذكره تعالى في قوله الجامع: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود: ٦١، أي ما يتعلق بالواقع المادي من الحياة الإنسانية ونظام معاشهم، من أعظم مهام الخلافة في الأرض؛ إذ يُعد "الركن المكمل لعملية "الاستخلاف"، والقيمة الحضارية الكبرى في الإسلام التي تؤطر حركة الاستثمار في الكون، والتعامل مع الأشياء وفق منهج الله في أمره ونهيه؛ حيث المقصد العام للشريعة الإسلامية: إصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله ... فهمة الخلافة تقتضي التعمير في الأرض تعميرًا ماديًا بالمنشآت الصالحة وبالصناعة والزراعة ومقتضياتها، وتعميرها معنويًا بإقامة العدل وإشاعة الإحسان بين الناس"².

ومعنى الاستعمار في الآية طلب التعمير والعمارة في الأرض واستصلاحها بالبناء والغرس والزرع، وإنشاء المصانع، وسائر المنشآت النافعة للإنسان، الملبيهة لحاجاته، والمقومة لمتطلبات حياته، وذلك باستثمار المسخّرات في الأرض ومقدراتها، فكان ذلك عمرانًا لها نقيضًا لخرابها وإهمالها وتعطيل مواردها³، حتى تكون أهلةً بما يجعلها تصير "إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترتبة منها؛ كعمارة الدار للسكنى، والمسجد للعبادة، والزرع للحرث، والحديقة لاجتناء فاكهتها والتزهر فيها"⁴. ولحصول ذلك لا بد من اجتماع الناس وإقامتهم واستقرارهم في مكان وموطن، وتعاونهم على إنجاز أغراضهم، وذلك عبر مساحة الزمن وامتداده، المتمثل في الأعمار الإنسانية التي يتمتع بها الناس.

بهذه الدلالات المتداخلة والأبعاد المتشابهة جاء مفهوم العمران في القرآن:

- بعد العمل والسعي والنشاط.
- بعد المكان للاجتماع والسكن والإقامة والاستقرار ..
- بعد الزمن والعُمُر وامتداده.
- البعد الثقافي والمعرفي وتراكم الخبرات مما يترتب من اجتماع الناس.

¹- ماجد عرسان الكيلاني، مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، كتاب الأمة، العدد ٢٩، المحاكم الشرعية والشؤون الدينية- قطر،

ط١، شوال ١٤١١هـ، ص ٤٢.

²- قيم الإسلام الحضارية، مرجع سابق، ص ٩٩.

³- يراجع التحرير والتنوير، مرجع سابق، ١٢/١٠٨.

⁴- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٢٩٨.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وكلها أبعاد ومعان تضمنها القرآن الكريم في استعماله لمادة 'عمر'¹، واحتوتها آية الاستعمار؛ يقول الطبري في تفسيره ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: "يقول: وجعلكم عمارة فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم"².

وعليه، يتم عمران الأرض، بالعمل الإنساني وشتى المساعي من البناء والتشييد والزرع، وما يستتبعه ويترتب عنه وما يعرض له من أحوال، نتيجة اجتماع الناس وإقامتهم على الأرض في هذا الزمن والعمر الإنسانيين. إنه "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتناء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش"³، أو "هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس، والعصبية وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيمهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"⁴.

وعليه، يكون العمران من منظور القرآن قيمة حاكمة "معيارية تقاس بها قيمة الحياة في عمر الإنسان الفرد، أو عمر الجماعة أو الأمة، وقيمة معيارية تُقَوَّم بها "الجهود والإنجازات الحضارية" العمرانية" للفرد أو الجماعة أو الأمة"⁵.

ولكي تنشط الأعمال، وتشتغل الأيدي والأبصار، وتحقق تلك الإنجازات، فلا يبقى شيء معطل غير مُتَنَفِّع به، ولا يُعطل ولا يُعاق الإنسان عن العمل العمراني، يلزم توفير الشروط اللازمة، وعوامل الجذب وظروف التحفيز لها في المجتمع، وخاصة ما يتعلق بنظم إدارة الشؤون الإنسانية وحفظ المصالح. وهنا يأتي العامل التشريعي القرآني، واضعاً أطراً تنظيمية كاملة لمجالات الحياة الإنسانية الاجتماعية؛ فشرع الله تعالى مبادئ وقواعد عامة تؤهل الواقع، وتبرئ العوامل والظروف التحفيزية للعمل وإثارة الفاعلية الإنسانية، دفعاً للعطالة والجمود والفساد نقائص العمران.

المطلب الثاني: العمران في القرآن ... مجالات ومبادئ

من أهم المباحث في الفقه العمراني القرآني ما يتعلق "بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس بتيسير سبل الحياة لهم، ورفع الحرج والمشقة عنهم"⁶. وقد جاء التشريع القرآني كاملاً وشاملاً لمختلف مجالات الحياة الإنسانية بنظم تامة ضابطة لها، وضامنة للعوامل اللازمة للأداء الإنساني الاستخلافي؛ بما وضعه من المبادئ والأسس العامة والقيم العليا التي تمثل بنود عقد وعهد استخلاف الإنسان، على هديها يكون رسم القوانين والخطط، والاجتهاد

1- يراجع منظومة القيم العليا، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٤٣.

2- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج ١٢، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٤٥٣.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤٢٦-١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ٥٦.

4- نفسه، ص ٥٠.

5- منظومة القيم العليا، مرجع سابق، ص ٦٩.

6- نفسه، ص ١٢٧.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والتجديد للوسائل مواكبة لتجدد الحياة. التي وضعها الشارع حمايةً لمصالح الإنسان، وترشيدهاً لمهمته، بل وحفظاً وصوناً لدوره المركزي في العمل العمراني.

وفيما يلي نقتصر على مجالين من أكبر المجالات العمرانية المؤثرين بشكل عميق في فاعلية الإنسان، وهما مجال السلطان والمال.

أولا الحكم والسياسة:

لا شك في أهميته ودوره الأساس؛ فبه تتقوم الدنيا وتنتظم شؤونها؛ إذ "تتألف برهبتها الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتتكف بسطوته الأيدي المتغالبة، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية، لأن في طباع الناس من حُبِّ المغالبة والمنافسة على ما أثره، والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه، إلا بمانع قوي، وراذع ملي"¹.

وقد خصه القرآن بتشريعه الجامع من خلال مبادئ وقيم عليا، تمثل ما يطلق عليها "أصول السياسة الشرعية". ومن آياتها الكبرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿ النساء: ٥٨-٥٩، فهاتان الآيتان تتضمنان الإفاضة في بيان شرائع العدل والحكم، ونظام الطاعة²، أعلاها:

١- أداء الأمانات؛ إذ تخاطبان ممن تخاطب "الولاية فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلمات والعدل في الحكومات"³. وسياسة الناس من أثقلها لأنها تحمّل لمسؤوليات تدبير شؤون الناس ورعاية مصالحهم وضمن أمنهم، ولهذا "فقد أمر الله أن تؤدي إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون، فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصالح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصالح المتولين والرؤساء فيها، والمدبرين لها، والعاملين لها، ويجب تولية الأمثل فالأمثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ القصص: ٢٦، فصالح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة، وضده بضده"⁴. وما سميت الأمانة أمانة إلا لأمن الناس من الخوف، فحين تنعدم مسبباته تطمئن النفوس، فتنتقل للعمل، وتحصل الانجازات العمرانية المختلفة؛ ف"لما كان الأمين إنساناً مأمون الجانب، لا يخشى عدوانه على حقوق غيره، كانت ساحته ساحة أمان، ليس فيها أي مثير للخوف على المال، أو على العرض، أو على الحياة"⁵.

¹- أبو الحسن الماوردي، أدب الدين والدنيا، ط دار المنهاج- بيروت، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص ٢١٨.

²- التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٩١/٥.

³- محمد أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٦، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع-

بيروت، ط ١، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ٤٢٥.

⁴- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان في تفسير القرآن، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع- الرياض، ط ١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ١٠٧.

⁵- عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، دار القلم- بيروت، ط ٥، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ٦٤٦.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

٢- إقامة العدل: الذي جعله الله ميزاناً يحدث التوازن في الحياة؛ "ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال؛ وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع. ميزانا لا يحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع"¹. كما أنه "يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر البلاد، وتنمو الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلاً: (عدلت فأمنت فمنت)². إنه ضرورة عمرانية لسكن النفوس، وتحفيز الهمم للعمل، وانطلاق الطاقات الإنسانية للفعل والإنجاز، بدونه يسود الظلم المخرب للعمران، لأنه مجلبة للخوف، والخوف إعاقة وحال "يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم، لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدل"³. ولهذا يعد الأمن العام من قواعد صلاح الدنيا؛ حيث "تطمئن إليه النفوس، وتنتشر به الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة"⁴.

٣- طاعة الأمة لأولي الأمر: بها يحصل التوازن واستقرار النظام، وأمن البلاد، وانتظام مصالح العباد في معاشهم، فكانت مما أمر الله به "لأن الإمام إذا لم يكن مطاعاً يؤدي ذلك إلى إخلال نظام الدين والدنيا من الفساد ما لا يحصى"⁵، ولكنها مشروطة أن تكون في طاعة الله لا معصيته، وللناس فيها مصلحة⁶، وفي ذلك دلالة على احترام كرامة الإنسان، وحفظاً لدوره في البناء العمراني الواعي؛ فطاعة الولاة بالمنظور القرآني لا تجعل من الإنسان "بهيمة في القطيع؛ تزجر من هنا أو من هنا، فتسمع وتطيع، فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة"⁷، فالمطلوب أن تكون واعيةً مبصرةً لا عمياء، حفظاً للوعي الإنساني، وضماناً لممارسة حق التفكير والنقد والمشاركة في اتخاذ القرار، والصناعة المشتركة للحياة السياسية.

ومن أصول السياسة الشرعية الواردة في مواضع قرآنية أخرى:

٤- الشورى؛ التي تعتبر "من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه"⁸، مدحها الله صفةً للمؤمنين: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: ٣٨، وفرضها فلسفةً وآليةً تدبير الأمور في الجماعة، سواء داخل مؤسسات الدولة، أو في العلاقات بينها وبين جمهور الأمة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

¹- في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٦/٣٤٩٤.

²- أدب الدين والدنيا، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

³- نفسه، ص ٢٣١.

⁴- نفسه، ص ٢٣١.

⁵- جمال الدين الغزنوي، أصول الدين، تحقيق: عمر وفيق الداوق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص ٢٨١.

⁶- يراجع تفسير الطبري، مرجع سابق، ٧/١٨٢.

⁷- في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٢/٦٩١.

⁸- عبد الحق بن غالب ابن عطية الاندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ١، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٥٣٤.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿١٥٩﴾ آل عمران: ١٥٩، والعزم تنفيذ القرار ثمرة الشورى واشتراك الناس في إنضاج الرأي وصناعة القرار، فيضعه ولادة الأمر قيد التنفيذ¹. ففي تطبيقها يُحفظ دور الإنسان في بناء العمران، من خلال الإدلاء بالرأي أو إنضاجه، والمشاركة في صنع القرارات أو تصحيحها، منعاً للاستبداد بالرأي والتسلط، وكل أسباب التعطيل للإرادة الإنسانية، والإطفاء لفاعليته. إنها "أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفسدات... وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصالح الديني والديني هو طريق الشورى، فالمسلمون قد أرشدهم الله إلى أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة"².

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: 104. والآية من أصول السياسة الشرعية "التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكلم بالحق مع من كان، وفي أي حال من الأحوال، وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم"³، فوجب "أن يكون في الدولة الإسلامية جماعة من أهل الحل والعقد يمثلون الأمة، وينوبون عنها ويراقبون سياستها ونظم حكمها... وظيفتهم الإشراف على الحكام ليكونوا مرجعاً لهم في تشريعهم، وليكونوا دعاءً إلى الخير، وناهين عن المنكر وناصحين للرعية"⁴. إنه عامل الصيانة من الفساد والاختلال، وحارس السيادة للحق والعدل، وضامن استمرار الرقابة في الأمة يعبر به الإنسان عن اهتمامه بشؤون مجتمعه وعمرانه، ويُبقي دور الوعي والتوعية فاعلاً غير معطل، فيتحمل مسؤولياته في حفظ نظام مجتمعه، وبناء عمرانه موافقاً لشرع الله وهديه.

ومن صور تطبيق هذا المبدأ، ما يسمى بالمعارضة السياسية الأمانة التي تنوب عن الأمة في التعبير عن أفكارها وهمومها، والقيام بفريضة المراقبة والمحاسبة لولاة الأمور، كوظيفة سياسية عامة دائمة في المجتمع، للرقابة والمحاسبة، ووجودها من عوامل قوة الحكم واستقراره؛ إذ نقدها للأحوال نقد يبني ولا يهدم، ويصوب مسيرة الحياة، ويقوم الاعوجاج، وينبه إلى العثرات والتجاوزات⁵.

خلاصة القول أن المجال المتعلق بالحكم والسلطان لا يستقيم أمره إلا باهتدائه بهذه المبادئ العليا والقيم الربانية، ففي خير سبيل إلى السياسة العادلة الراشدة، كركيزة أساس في بناء العمران، وتحقيق الحياة الآمنة المستقرة، وتوفير الشروط اللازمة لفاعلية الإنسان وحافزته للعمل والبناء العمراني.

1- محمد عمارة، هل الإسلام هو الحل؛ لماذا وكيف؟، دار الشروق- القاهرة، ط ٢، (١٤١٨هـ/١٩٨٩م)، ص ٧٨-٧٩. بتصرف

2- القواعد الحسان، مرجع سابق، ص ١٠٥.

3- نفسه، ص ١٠٨.

4- عفيف عبد الفتاح طيارة، روح الدين الإسلامي؛ عرض وتحليل لأصول الإسلام وأدابه وأحكامه تحت ضوء العلم والفلسفة، دار العلم للملايين- بيروت، ط ٢٧، ١٩٨٨م، ص ٣٠٤-٣٠٥.

5- هل الإسلام هو الحل؟، مرجع سابق، ص ٩٩.

ثانياً: مجال المال والثروات

حيث لا تصلح الدنيا ولا يقوم عمرانها بدونها، فهو عمدة البناء، وزاد السير والتقدم، فكان نموه وخصبه ضرورياً؛ إذ "تتسع به الأحوال، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال. فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع، وتكثر المواساة والتواصل ... الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والسخاء"¹.

ولأهمية هذا المجال، فقد نظمته الشارع بقواعد عامة وقيم هادية، تضبطه من خلال وعي الإنسان بها وتمثلها فكراً وسلوكاً، ليتسنى له القيام بمهمة عمارة الأرض كما يرضى الله تعالى. نقتصر على أهمها فيما يلي:

١- ملكية الله .. وخلافة الإنسان: إن القانون الحاكم في مسألة ملكية المال والثروات أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لها جميعاً ملكية حقيقية؛ فهو الخالق لكل شيء، المالك المدبر له: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ الشورى: 4، ويدخل في ذلك ما في أيدي الناس جميعاً من أموال؛ إذ هي لله في الأصل، لقوله عز وجل ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ النور: 33، ومقتضاه أن يتصرف فيما يملك كما يشاء مطلقاً. أما ملكية الإنسان لها، فمجازية أي ملكية انتفاع ومنفعة واستخلاف؛ يتصرف فيها بموجب ما أمره به الله المالك الحقيقي القائل: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد: 7، فيتصرف فيها باعتباره وكيلًا ونائبًا. وهذا لا يجرده من حق الملكية والحيازة لها، وإنما يكون محكوماً بجملة من الضوابط، التي تنظم حريته في التملك والتصرف؛ تمثل إرادة المالك الحقيقي أمراً ونهياً. وهذا الحال هو ما يتفق مع تصور القرآن لمكانة الإنسان في الكون، وهي مكانة الخليفة في الأرض المكلف بعمارته، التي جعلته السيد الحاكم فيها، المتميز بالحرية، لكنه في نفس الوقت مقيد وملزم ببند وعهد الاستخلاف الإلهي.

ولمبدأ الاستخلاف والوعي به ثمرات إيجابية عظيمة في نفس الإنسان تنعكس في تصرفه الاجتماعي والاقتصادي خاصة؛ التزاماً ورشداً واستقامةً، وعمراناً عابداً؛ إذ يتحرر الإنسان من غرور نفسه وطغيانها: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَنْ رَأَاهُ آسْتَفْتَى﴾ العلق: 6-7، فلا يفرغ المال، ولا يطغيه الغنى، ولا يقع في صور التجاوز المذمومة: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فصلت: ٥٠، و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص: ٧٨، بل يتقي ويقول: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل: ٤٠. كما يتحرر الإنسان من استعباد المال له، فيهون عليه ويوجد به، ويسهل عليه الإنفاق كلما دعت الواجبات الاجتماعية، فينفع ويعمر الأرض بالخير والصالح.

٢- "لا ندرة اقتصادية .. بل مشكلة إنسانية": لا يعترف القرآن بدعوى ندرة الموارد المادية وعدم توازنها مع الحاجات، بل يقر بوفرته بما يكفي لتأمين متطلبات الناس المتعددة والنامية، بتوازن وقدر معلوم.. والإيمان بهذا المبدأ واجب، بمقتضى الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

¹ - أدب الدين والدنيا، مرجع سابق، ص ٢٣٢-٢٣٣.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مَوْزُونَ* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ* وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿الحجر: ١٩-٢١﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّالِينَ﴾ فصلت: ١٠. فعبارات مثل: ("مَوْزُونَ"، "بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ"، "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ"، "وَبَرَكْنَا فِيهَا"، "سَوَاءً لِلسَّالِينَ")، تجتمع وتتضافر لتقر حقيقة أن ما سخره الله تعالى للإنسان من الإمكانيات المادية، مقدَّرٌ بتوازنٍ وبقدر الحاجة والكفاية، لا زيادة ولا نقصان، متساوٍ مع ما يحتاجه، وينتفع به، و﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وذلك على جهة الدوام؛ فهي متزايدة بقدر زيادة حاجات البشر، على ما بهم إليه الحاجة وما يصلحهم¹، فدعوى الندرة غير واردة²، وهو ما يجعل المنظور القرآني يتسم بالتفاؤلية والإيجابية من خلال نفيه لها، ويجعل "القانون الإلهي الذي يحكم الموارد الطبيعية - من الناحية الديناميكية هو قانون الوفرة"³.

إلا أن هذا لا ينفى وقوع المشكل ولا يمنعه، لكنه لا يفسر بنظرية "الندرة"، بل: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٦٥؛ أي أن المشكل من كسب الإنسان ومن سلوكه الخاطئ، وأسلوب استخدامه للإمكانيات والموارد؛ "سواء بإهدارها أو بعدم الاستفادة الكاملة منها أو تعطيلها، أو الصراع على الاستيلاء عليها من جانب البعض دون البعض الآخر من بني البشر"⁴، مما يجعل الحل يرتكز بتزكيتة وإعادة بنائه وإصلاحه قبل بناء المصانع واستصلاح الأراضي وحبك الخطط⁵. وإن النظر إلى المشكل بهذه الكيفية هو ما يتسق مع حقيقة حرية الإنسان في الوجود ومسؤوليته، وكذا دوره الأساس في تحمل أعباء عمارة الكون، من خلال استغلاله لما وهب من الإمكان المادي المتوفر، بل ويتأكد من جهة تفسير القرآن لحصول النقص والندرة في المعايير بارتباطه بالحالة الإيمانية والعبادية للمجتمع؛ إذ يقع عند الغفلة والإعراض، لتذكير الناس بواجبهم نحو خالقهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَدْغُرُونَ﴾ الأعراف: ١٣٠. وفي المقابل فإن التقوى والإيمان مجلبة للوفرة وسبب الازدهار: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ الأعراف: ٩٦.

٣- الإنتاج الحلال:

يعد الإنتاج من المراحل المهمة في العملية الاقتصادية العمرانية، التي يضبطها الشرع بمنطق أحكام الحلال والحرام؛ فيلزم الإنسان فرداً وجماعاً في إنتاجه بالوقوف عند ما أحل الله تعالى، والتورع عما حرمه، وهو القائل

¹ -يراجع تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٠/٣٩٠.

² -يراجع رفعت السيد العوضي، عالم إسلامي بلا فخر، كتاب الأمة، العدد ٧٩، ١٤٢١هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص ٤٩-٥٠.

³ - نعمت عبد اللطيف مشهور، الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، سلسلة الرسائل الجامعية (٢)، المعهد العالمي للفكر

الإسلامي، ط ١، (١٤١٣هـ/٢٠١٣م)، ص ١٥٢.

⁴ - عبد الهادي علي النجار، الإسلام والاقتصاد؛ دراسة من المنظور الإسلامي لأبرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، سلسلة عالم

المعرفة (٦٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس ١٩٨٣م، ص ٢٠.

⁵ - يوسف إبراهيم يوسف، المنهج الإسلامي في التنمية، أبحاث ندوة إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، منشورات جامعة الأزهر

الشريف، مركز صالح عبد الله كامل للأبحاث والدراسات التجارية والإسلامية بجامعة الأزهر، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١،

(١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ٣٩٧.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الاحزاب:36. وله أن ينتج ويستمتع بالطيبات من الثروات والخيرات، عملا بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف:32. فالآية واضحة في الدلالة على الحظ على الاستمتاع بخيرات الأرض وتنمية ثرواتها، لكن في إطار الامتثال للهدى الرباني في هذا الاستمتاع؛ بأن يكون منضبطا بالتزام الحلال منها وعدم الاقتراب إلى الحرام، كما يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص:77.

٤- عدالة التوزيع:

قد سبق الحديث عن العدل، فلا نكرهه، لكن نضيف ما يتعلق بعدالة توزيع الثروات على أفراد المجتمع، التي تعد مطلباً عمرانياً قرآنياً؛ بدونها يحصل ما يحذر منه القرآن الكريم، من تركز الثروة في يد قلة وترفها، وحرمان أكثرية؛ فحرّم الكنز: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة:34، وحذر من الترف: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَدَّيْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء:١٦، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ النساء:29.

ولا يخفى ما في ذلك من عدوان على حقوق الناس في المال، فخراب للعمران؛ فمعلوم "أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت أموالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب ... والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم في المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتفضت الأحوال، وابدع الناس في الأفاق، من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخرجت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة"¹.

ولذلك يأمر سبحانه الأغنياء والموسرين بإيتاء حقوق الفقراء والمحتاجين من الزكوات والصدقات وما شرعه من وجوه الإنفاق الواجب أو المندوب. فكانت عدالة التوزيع خير وقاية للمجتمع من مفسد وشور لا تحصى. وليس معناها المساواة؛ فالتفاوت والتفاضل في الأرزاق أمر مفهوم حصوله، تبعاً لسنة الله في تفاوت الناس في استعداداتهم الطبيعية وقدراتهم. بل تعني "التوازن" يحقق كفاية الجميع، ويضبط التفاوت بما يمنع الاحتكار والأثرة والطغيان لفئة وحرمان أخرى..

¹- مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٢٩٠-٢٩١.

خاتمة:

حاولنا من خلال هذه الدراسة بيان دور الإنسان المركزي في بناء العمران من خلال القرآن الكريم الذي أبرزه أعظم ما يكون الإبراز من عدة جوانب ونواح. فاقصرنا على أربع منها:

- من حيث هويته الأولى ومعرفه الأكبر؛ أنه الخليفة في الأرض بما يعنيه من جعله السيد فيها والمتصرف في خيراتها ومواردها بانضباط للقيود والحدود ..
- من حيث تكوينه وخلقه المزدوج الذي جعله الله تأكيداً لتلك الهوية، وإبرازاً للرسالة المنوطة به، وفعله المختص به، فتناسب مع تسميته بالإنسان.
- من حيث تأهيله في نفسه بالتزكية؛ فلا يصلح لدوره المركزي المختص به إلا بها، ليُنتج عمراناً راشداً مهتدياً.
- من حيث تأهيل واقعه ونظم حياته حفظاً لفاعليته، وتوفيراً للعوامل المناسبة واللازمة لأداء دوره المركزي الاستخلافي في الأرض، وذلك بما وضعه الشارع من مبادئ وقيم عليا تنتظم بها كل مجالات الحياة الإنسانية. وعليه، يمكن طرح التوصيات الآتية:

- إدراج مادة "التزكية" ضمن المناهج التربوية والتعليمية في كل المستويات والتخصصات، بمفاهيمها الاستخلافية، وأبعادها ومحتوياتها الاجتماعية والحضارية، وعدم قصرها في بعد الإصلاح الفردي والذاتي.
- تخصيص أبحاث عن منهج تعدية مفهوم التزكية من أبعاده الذاتية إلى أبعاده الجماعية والعمرانية والحضارية.
- توسيع البحث والمدارسة لموضوع فقه العمران من منظور إعادة إخراج الأمة المسلمة الخيرة المتشعبة بمفاهيم التزكية والعمران والاستخلاف والشهادة على الناس، بما يستجيب لمستجدات العصر وتحدياته وتهديداته، مع تحديد شروط هذا الإخراج ومواصفاته وظروفه ومناهجه.
- تبسيط مفردات الخطاب الإسلامي بما يحقق التوعية للإنسان المسلم بالمسؤولية العمرانية الاستخلافية المنوطة به حسب موقعه الذي جُعل فيه، مع تعزيز الشعور بالانتماء للأمة، والاهتمام بشؤونها الحضارية ..

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- ١- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- ٢- أبو الحسن الماوردي، أدب الدين والدنيا، ط دار المنهاج- بيروت، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
- ٣- أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.
- ٤- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة.
- ٥- أحمد عبادي، الوحي والإنسان؛ نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، دار النيل للطباعة والنشر- تركيا، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
- ٦- برهان الدين أبو الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ط ١، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- ٧- جار الله أبو القاسم بن عمر الزمخشري، الكشاف، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة- بيروت، ط ١، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- ٨- جمال الدين الغزنوي، أصول الدين، تحقيق: عمر وفيق الداغوق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- ٩- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط ١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- ١٠- الراغب الاصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، منقولة من نسخة خطية قدسية ومقابلة على نسخة أخرى كتبها لنفسه الشيخ رضي الدين بن أبي بكر الحلبي سنة 963، ومصححة في غاية الدقة والاعتناء بمناظرة الشيخ طاهر الجزائري، طبع في بيروت، 1319هـ.
- ١١- الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط ٤، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- ١٢- رفعت السيد العوضي، عالم إسلامي بلا فقر، كتاب الامة، العدد ٧٩، ١٤٢١هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
- ١٣- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق- القاهرة، ط ١٧، (١٤٠٧هـ/٢٠٠٧م).
- ١٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق- مصر، ط ٩ الشرعية، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- ١٥- طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران؛ محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- ١٦- طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين؛ قراءة الوحي وقراءة الكون، سلسلة دراسات قرآنية (٢)، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ط ١، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- ١٧- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان في تفسير القرآن، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع- الرياض، ط ١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- ١٨- عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم- بيروت، ط ٥، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- ١٩- عبد الرؤوف بن المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب- القاهرة، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- ٢٠- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤٢٦-١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- ٢١- عبد الحق بن غالب ابن عطية الاندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- ٢٢- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي؛ عرض وتحليل لأصول الإسلام وآدابه وأحكامه تحت ضوء العلم والفلسفة، دار العلم للملايين- بيروت، ط ٢٧، ١٩٨٨م.
- ٢٣- علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٤)، مجلة النور الكويتية- الكويت، مؤسسة بافاريا للنشر والاعلام والخدمات- ألمانيا، الطباعة والتوزيع: مؤسسة العلم الحديث، بيروت.
- ٢٤- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مقال في الإنسان دراسة قرآنية، دار المعارف- القاهرة، ط ٢، (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).
- ٢٥- عادل العوا، الإنسان ذلك المعلوم، منشورات عويدات- بيروت، باريس، ط ٢، 1982م.
- ٢٦- عبد المجيد عمر النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- ٢٧- عبد المجيد عمر النجار، قيمة الانسان، سلسلة الإنسان في العقيدة الإسلامية (٢)، دار الزيتونة للنشر- الرباط، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
- ٢٨- علي شريعتي، الإنسان والإسلام، ترجمة: د.عباس الترجمان، مراجعة: حسين علي شعيب، سلسلة الآثار الكاملة (22)، دار الامير للثقافة والعلوم- بيروت، ط 2، (1428هـ- 2007م).
- ٢٩- عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية .. المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، ط 1، (1430هـ- 2009م) دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا.
- ٣٠- عبد الهادي علي النجار، الإسلام والاقتصاد؛ دراسة من المنظور الإسلامي لأبرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة (٦٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس ١٩٨٣م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- ٣١- فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا؛ التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- عمان، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
- ٣٢- محمد أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ١، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- ٣٣- محمد بن أحمد ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة، مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام، تحقيق: محمود قاسم، سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية، مكتبة الانجلو مصرية، ط ١٩٦٤م.
- ٣٤- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- ٣٥- محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة، ط (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- ٣٦- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر- تونس، ط ١٩٨٤م.
- ٣٧- محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م.
- ٣٨- محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة، والمعهد العالمي للفكر الاسلامي- فرجينيا، ط 1، (1429هـ- 2008م).
- ٣٩- محمد عمارة، هل الإسلام هو الحل؛ لماذا وكيف؟، دار الشروق- القاهرة، ط ٢، (١٤١٨هـ/١٩٨٩م).
- ٤٠- محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر- دمشق، ط ٢، (١٣٠٧هـ/١٩٨٧م).
- ٤١- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيّات الكونية .. وجود الخالق ووظيفة المخلوق، دار الفكر المعاصر- بيروت، ودار الفكر- دمشق، ط 25، (1426هـ/٢٠٠٥م).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

٤٢- ماجد عرسان الكيلاني، مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، كتاب الأمة، العدد ٢٩،

المحاكم الشرعية والشؤون الدينية- قطر، ط١، شوال ١٤١١هـ.

٤٣- محمد عبد الفتاح الخطيب، قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، العدد ١٣٩،

السنة ٣٠، المحاكم الشرعية والشؤون الدينية- قطر، ط١، (رمضان ١٤١٦هـ/غشت شتنبر ٢٠١٠م).

٤٤- أبحاث ندوة إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، منشورات جامعة الأزهر الشريف- مركز صالح

عبد الله كامل للأبحاث والدراسات التجارية والإسلامية بجامعة الأزهر- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١،

(١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٤٥- محمد فتحي الدريني، منهج الأصوليين في التقريب بين المذاهب الإسلامية، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٨،

<http://www.altaghrib.net/001/03/05.htm>

٤٦- مجلة الفرقان الأردنية، العدد ٧٢، (محرم ١٤٢٩هـ/يناير ٢٠٠٨م)، الأردن.

٤٧- نعمت عبد اللطيف مشهور، الزكاة؛ الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، سلسلة الرسائل

الجامعية (٢)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، (١٤١٣هـ/٢٠١٣م).

٤٨- هادي العلوي، قاموس الإنسان والمجتمع، سلسلة المعجم العربي المعاصر، قواميس عربية مبوبة على

الموضوعات (١)، دار الكنوز الأدبية- بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المعرفة المتخصصة ودورها في العمران في ضوء القرآن الكريم

د. يحيى مقبل الصباحي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية وجامعة إقليم سبأ - اليمن

yahyam1977@gmail.com

ملخص البحث:

يتناول البحث المعرفة المتخصصة ودورها في العمران في ضوء القرآن الكريم ، ويناقش إشكالية التفاعل بينها والعمران الحضاري ، ويهدف إلى فهم المعرفة المتخصصة ودلالاتها وكيفية بنائها ، و المواءمة بين المجالات التي تستهدفها وخدمتها للعمران الحضاري، و تكمن أهمية الدراسة في تقديمها صورة واضحة لبناء المعرفة المتخصصة للإنسان وأثرها في العمران الحضاري. و اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي وعلى المنهج الاستقرائي، وخلص إلى أن المعرفة المتخصصة هي التي تركز على مجال معين، وفق حاجة محددة، تهدف إلى تلبية احتياجات العمران والبناء الحضاري . وأن القرآن الكريم قدم أركان عملية العمران والبناء الحضاري، من خلال منظومة البناء المعرفي، ولذا يجب أن يراعى فيه المكونات الثلاث (الروحية ، والعقلية ، والجسدية) ولا يمكن لأمة أن تنهض وتستمر مالم تراعى ذلك .

وأوصى البحث، المؤسسات التعليمية ربط المعرفة بأثرها في المجتمع، وكذا الباحثين بمزيد من البحوث عن علاقة المعرفة بالعمران والبناء الحضاري ، وإقامة مراكز أبحاث تهتم بقضايا العمران والمعرفة .

الكلمات المفتاحية: المعرفة، المتخصصة، العمران الحضاري.

Abstract:

The research deals with specialized knowledge and its role in urbanization in the light of the Holy Qur'an. It discusses the problem of interaction between urbanization and civilized construction.

The research aims to understand the specialized knowledge and its significance, and how to build it, and to harmonize between the areas targeted and their utilization for civilized urbanization.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

The importance of the study lies in presenting a clear picture of building specialized knowledge for man and its impact on civilized urbanism. The researcher used the descriptive analytical method and the inductive method.

The study concluded that specialized knowledge is focused on a specific field, according to a specific need, aimed at meeting the needs of urbanization and civilized construction. It revealed that the Holy Qur'an presented the pillars of the process of urbanization and civilized construction through the knowledge-building system, and therefore the three components (spiritual, mental, and physical) must be taken into account, and a nation cannot rise and continue unless it takes that into its consideration.

The research recommended that educational institutions should link knowledge with its impact on society, as well as researchers should carry on more researches on the relationship of knowledge with urbanization and civilizational construction, and there should be research centers to give more concern to issues of urbanization and knowledge.

Keywords:

knowledge, specialized, civilized urbanization.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وهاديا إلى صراط الله المستقيم ،
وبعد :

يندرج البحث المقدم ضمن المحور الثاني من محاور المؤتمر، والذي سيناقش إشكالية التفاعل بين المعرفة المتخصصة والعمران في ضوء القرآن الكريم، إذ إننا نعيش في عصر توسعت فيه المعارف وتنوعت وكثرت مؤسسات التعليم وتيسرت سبل الحصول على المعلومة ، ولكن مع هذا الكم الهائل من المعارف وتنوع مصادرها لازالت أمتنا في ذيل القافلة ومؤخرة الركب، وعالة على سائر الأمم في كثير من مقومات حياتها ، وهنا تبرز التساؤلات الآتية:

ما هي المعرفة المتخصصة وعلاقتها بالعمران والنهوض الحضاري؟ وكيف تبني المعرفة المتخصصة لتحقيق العمران الحضاري؟ ماهي المجالات التي تستهدفها المعرفة المتخصصة وأثرها في العمران الحضاري ؟

أهداف البحث: يسعى البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

- 1- فهم المعرفة المتخصصة ودلالاتها على العمران والنهوض .
 - 2- بيان كيفية بناء المعرفة المتخصصة في الفرد والمجتمع وأثرها لتحقيق العمران والنهوض .
 - 3- المواءمة بين المجالات التي تستهدفها المعرفة المتخصصة وخدمتها لنهوض الحضاري .
- أهمية البحث: إن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة خطيرة من مراحل حياتها تستهدف فيها قيمها ومعارفها ، وبالتالي تعيش متلق لما عند الآخر ، بل أصيبت بالعجز عن الاسهام الحضاري الفاعل كحالة جماعية للأمة بغض النظر عن الاسهامات الفردية .

ومن خلال البحث والتأمل لكثير مما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم، وما تعيشه من مشاكل تبرز ظاهرة التخلف في النهوض والعمران الحضاري، رغم أن القرآن الكريم يقدم التصورات الواضحة، والحلول المناسبة، والعلاج المتكامل لمجالات الحياة المختلفة، وما الحث على المعرفة من أول يوم، ورفع شأن أهلها والثناء على مكتسبها ، والتأكيد على ملازمة الأفعال للأقوال إلا صورة منهجية واضحة المعالم لوضع الإنسان على جادة طريق الاستخلاف والتمكين الذي أراده الله ، وعمارة الأرض وفق هدايه ومنهجه .

لذا تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تقدم صورة واضحة لبناء المعرفة المتخصصة للإنسان وأثرها في العمران الحضاري.

منهج البحث :

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي للآيات القرآنية التي تتحدث عن العلم و المعرفة وبنائها، مستلهما أسلوب القرآن الكريم في تناول الأحداث والقضايا المختلفة، وعلى المنهج

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الاستقرائي في بناء المعرفة لدى المكلف من خلال سرد القرآن الكريم لآيات الكون، والوجود الإنساني، وقصص الأمم والشعوب وسنن بقائها وعوالم اندثارها، ومن ثم استخلاص النتائج منها .

الدراسات السابقة :

توجد دراسات عدة، تحدثت عن المعرفة، وكذا عن الحضارة بشكل منفرد ، فمن الدراسات التي تحدثت عن المعرفة في القرآن الكريم ،(مصادر المعرفة في القرآن الكريم والفلسفات التربوية دراسة مقارنة، بحث منشور في مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات – العدد الثلاثون حزيران 2013: د. عماد الشريفين ،د. أحلام مطالقة، د. رائدة نصيرات) ركزت الدراسة على الكشف عن مصادر المعرفة في الفلسفات التربوية، ونقده في ضوء مصادر المعرفة في القرآن الكريم ، ولم تتعرض الدراسة إلى علاقة الحضارة بالمعرفة.

وكتاب نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية ،للدكتور أحمد الدغشي من سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، و الكتاب يركز على المعاني الإيمانية والتربوية للمعرفة، ولم تتطرق كذلك للحضارة أو علاقة المعرفة بها.

وهناك دراسات حاولت استخلاص القيم الحضارية في قصص القرآن الكريم ، مثل دراستي زكريا على الخضر : القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ ،والقيم الحضارية في قصة سيدنا شعيب.

وللأسف نجد أغلب الدراسات عن القصص القرآني اقتصر على الناحية البلاغية ، أو الأمور الوعظية المجردة من الغوص في قوانين النهوض والاندثار.

ولذا فالدراسة المقدمة تبين بناء المعرفة المتخصصة ودورها في العمران الحضاري، فجمعت بين بناء المعرفة والأثر الحضاري لها .

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث جعله في ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: مفهوم المعرفة المتخصصة ودلالاتها العمرانية.

المبحث الثاني: بناء المعرفة المتخصصة لاحتياج العمران الحضاري .

المبحث الثالث: مجالات المعرفة المتخصصة وعلاقتها بالعمران الحضاري .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الأول: مفهوم المعرفة المتخصصة ودلالاتها العمرانية

المعرفة لغةً: يقول ابن فارس: العين والراء والفاء واصلان صحيحان يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً ببعضه ببعض، والأخرى على السكون والطمأنينة... تقول عرف فلان فلاناً عِرْفَانًا ومعرفة، وهذا أمر معروف، وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه لأن من أنكر شيئاً توحش منه ونبا عنه¹.

و حسب تعريف معجم المعاني الجامع: "هي جمع معارف، والمصدر الميمي من عَرَفَ، فالمعرفة إدراك الشيء على ما هو عليه، ويُقال حدث هذا بمعرفته أي: بعلمه واطلاعه، والمعرفة حصيلة التعلم عبر العصور، ويُقال نظرية المعرفة أي: البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع أو بين العارف والمعروف².

ويُقال معرفة الذات أي: تفهم الشخص لطبيعته أو قدراته، والمعرفة في النحو: هي الاسم الدال على معين، ويُقال عَرَفَ الشيء أي: أدركه بحواسه جميعاً أو بوحدة من الحواس، ويُقال عَرَفَ الشيء أي: حدد معناه بتعيين جنسه ونوعه وصفاته³.

أما في المعجم الوسيط، فإنّ المعرفة تعني: "يُقال معرفة مكتسبة أي العلم بالعالم الخارجي من المصادر المتعددة، ومعرفة مباشرة بالأشياء أي علم بها دون واسطة، وتطلب المعرفة أينما كانت إدراك مكنون الأشياء وحقيقتها، وهي ضد النكرة وتشير إلى الاسم الدال على معين مثل: الكتاب، قلم الحبر"⁴.

والمعرفة من العُرْف مضاد النكر، والعرفان مضاد للجهل، كما وردت المعرفة والعرفان بمعنى العلم بالأمر والسكون له، واستخدمها الزمخشري بمعنى المجازاة وذلك في قوله: لأعرفن لك ما صنعت، بمعنى لأجازيك به⁵، واستخدمت كلمة المعرفة للدلالة على الشيء العالي والطيب، كأن يقال هذا الإنسان عُرُ المعرفة أي تطيب معرفته، والمعرفة تحصل بعد العدم، ويكون العدم بسبب الجهل بالأمر أو نسيانه واختفائه من الذهن، وبالمعرفة يكمن تمييز الشيء عما يشبهه أو يختلط به.

من المعاني السابقة نستنبط دلالات معاني المعرفة على الآتي:

- 1- المعلومات المترابطة المتتابعة في نظم واحد .
- 2- مقابل العدم وعلى هذا هي: وجود الشيء وحيازته سواء أكان معنوياً أو حسيًا .
- 3- تقوم المعرفة على الاكتساب، وتزداد بكثرة العلم، والتزود الدائم بالبيانات والمعلومات .

1- ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م. 281/4.

2- فريق المعاني، "معنى "معرفة""، المعاني، اطّلع عليه بتاريخ 2021/9/15. بتصرّف.

3- جامعة بسكرة، مدخل مافيهي حول المعرفة، دراسة ادارة المعرفة، رسالة ماجستير، 2004 صفحة 2. بتصرّف .

4- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط ، الطبعة الخامسة عام 2011 .

5- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة (ت 538هـ) الناشر: دار صادر الطبعة: الاولى - 1979 ص328.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

4- تهدف المعرفة إلى استكشاف مكنونات الذات والكون، ومعرفة قوانين الله وسننه في خلقه، فهي أوسع من العلم وأكثر شمولاً والتعلم أداة من أدواتها.

المعرفة في القرآن الكريم:

لم ترد مفردة المعرفة في القرآن الكريم بهذا اللفظ، ولكن وردت مادة عرف بصيغ متعددة في سياقات مختلفة منها: قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾ (البقرة: 88)، وقوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ (البقرة: 145)، وقوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾ (آل عمران: 104)، وقوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾ (النساء: 5) وقوله: ﴿تري أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ (المائدة: 85)، وقوله: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم﴾ (الأعراف: 47)، وقوله: ﴿خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: 199)، وقوله: ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ (يونس: 45)، وقوله: ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ (الحج: 70)، وقوله: ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة، إن الله خير بما تعملون﴾ (النور: 51)، وقوله: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ (النمل: 95)، وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ (الأحزاب: 59)، وقوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ (محمد: 31)، وقوله: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: 13).

والمتمأل في السياقات التي وردت فيها الآيات السابقة، يمكن أن يستنبط المعارف المقصودة وعلاقتها بواقعها التاريخية وعمارة الأرض، وتفيد أن المعرفة الإنسانية هي "إدراكه للشيء بتفكير وتدبر لأثره"⁶، ويظهر بهذا أن بين مفهوم المعرفة ومفهوم العلم تلازماً فرض على الباحثين في مصطلحات العلوم والفنون، بيان أحدهما في ضوء الآخر، كما قال التهانوي⁷: "المعرفة تطلق على معاني منها العلم بمعنى الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً، ولهذا قيل كل معرفة وعلم فإما تصور أو تصديق، ومنها إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية أو تصديقاً بأحوالها، وإدراك المركب سواء كان تصوراً أو تصديقاً، على هذا الاصطلاح يخص بالعلم. فبين المعرفة والعلم تباين بهذا المعنى وكلاهما أخص من العلم بمعنى الإدراك مطلقاً، وكذا الحال في المعنى الثاني للمعرفة والعلم، وبهذا الاعتبار يقال عرفت الله دون علمته"⁸.

وقد قدم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري تعريفاً لكلمة معرفة، بقوله: "المعرفي هو الكلي والنهائي، وتعبير الكلية هنا يفيد الشمول، والعموم، في حين أن النهائية للوجود تعني غائيتها، وآخره، وأقصى ما يمكن

6- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، بيروت: دار المعرفة، ط1، 1998، ص347.

7 - هو: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي، الحنفي التهانوي، باحث هندي له «كشاف اصطلاح الفنون» وسبق الغايات في نسق الآيات، توفي سنة 1158هـ. الأعلام.

8- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: دار صادر، د.ت. 994/3.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

أن يبلغه الشيء، ويمكن التوصل للبعد المعرفي لأي خطاب أو أي ظاهرة من خلال دراسة ثلاثة عناصر أساسية: الإله و الطبيعة والإنسان⁹.

أما العلم "بالكسر وسكون اللام في عرف العلماء: يطلق على معاني منها الإدراك مطلقاً، تصوراً كان أو تصديقاً يقينا أو غير يقين، وإليه ذهب الحكماء. وقد عرفه الباقلاني: أنه معرفة المعلوم على ما هو به، فيخرج عنه علم الله تعالى؛ إذ لا يسمى علمه معرفة إجماعاً لا لغة ولا اصطلاحاً، مع كونه معترفاً بأن لله تعالى علماً حين أثبت له تعالى علماً وعالمية"¹⁰.

وعلم الإنسان نسبي مرادف للمعرفة، يختلف باختلاف الأشخاص ومصادر عملهم واكتساب المعرفة، وفي هذا يقول جميل صليبا: "وفرقوا بين المعرفة والعلم، فقالوا إن المعرفة إدراك جزئي والعلم إدراك كلي، وإن المعرفة تستعمل في التصورات، والعلم في التصديقات، لذلك تقول عرفت الله دون علمته؛ لأن من شرط العلم أن يكون محيطاً بأحوال المعلوم إحاطة تامة، ومن ذلك وصف الله بالعلم لا بالمعرفة، فالمعرفة أقل من العلم؛ لأن للعلم شروطاً لا تتوفر في كل معرفة، فكل علم معرفة وليس كل معرفة علم"¹¹.

وهذه العلاقة تفيد أن العلم أدق من المعرفة وذلك باعتباره: "منهج بحث لإنتاج المعرفة، أو .. مجموعة من الإجراءات المعروفة التي تراجع وتصوب باستمرار وتقود إلى خلق نظريات تتطور في كنف المعرفة نفسها بحسب توجه العلم؛ باعتباره نشاطاً دائماً في حل المسائل، وبحسب كيفية اعتبار أن مثل هذه القضايا هي قضايا أولية أو جوهرية في بناء المعرفة يحدد قبول العلم نفسه وتتحدد صلاحيته"¹².

من خلال التعاريف السابقة يتبين أن مفهوم المعرفة له ارتباط بمصدره وأولها هو التلقي من الوحي ثم من واقع الناس ومجالات حياتهم، وأن المعرفة سلسلة ممتدة بين البشر تورث من جيل إلى آخر مع نموها بحسب جهد الناس وسعيهم لاستكشاف الجديد من خلال البحث في ملكوت الله الواسع.

وبعيداً عن الخوض أكثر في الفروق بين المعرفة والعلم، وأنها أخص وأعم، فإننا نجد أن أغلب الباحثين يذكروا بأن مفهوم المعرفة ليس مرادفاً لمفهوم العلم، فالمعرفة شيء أوسع حدوداً ومدلولاً وأكثر شمولاً وامتداداً من العلم، والمعرفة في شمولها قد تتضمن معارف علمية وغير علمية، وتقوم التفرقة بين النوعين على أساس قواعد المنهج العلمي وأساليب التفكير التي تتبع في تحصيل المعارف، فإذا اتبع الباحث قواعد المنهج العلمي في التعرف على الأشياء والكشف عن الظواهر فإن المعرفة الحاصلة هي معرفة علمية¹³.

9- صابرين زغلول، محاضرات في نظرية المعرفة، ص7.

10- المرجع نفسه، 3/1055.

11- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتب اللبنانية، د.ت. ص332.

12- باتريك هاييلي، صور المعرفة، ترجمة نور الدين شيخ، ص11.

13- صابرين زغلول، محاضرات في نظرية المعرفة ص9.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المتخصصة: هي المنصبه على شيء ما منفردة بدراسة متخصصة، ويقصد بها هنا: بأنها التي تركز على مجال معين، وفق حاجة معينة، أو استهداف نمو في جانب من الجوانب الذي يحتاج إليه المجتمع، وبالتالي تحدد هذه المعرفة سمات المجال واحتياجاته الخاصة التي تهدف إلى تلبية احتياجات العمران والبناء الحضاري .

المعرفة العامة والمعرفة المتخصصة:

المعرفة العامة مهمة في ثقيف المجتمع وتحصينه فهي تشمل طائفة واسعة من مجالات المعرفة ، لكن العمران الحضاري بحاجة إلى معرفة تخصصية تنطلق من احتياجاته بناء على دراسة القصور لديه، ومن ثم تصميم برامج النهوض ، وتضع الأولويات من مدخلات ومخرجات ، وهذا ما قصه القرآن الكريم علينا في قصص الأنبياء عليهم السلام ونهوضهم بأقوامهم ومعالجة مشاكلهم ، فبعد الدعوة إلى التوحيد والمعرفة العامة بالله، عالجوا مشاكل الأقسام الخاصة كما سيأتي بيانه بإذن الله .

فالمعرفة لن تبني الحضارة وتنشأ العمران ما لم تكن منظمة هادفة، ومفعلة في خطط عملية محددة للبناء والتعمير، والافتقار إلى فهم هذه الحقيقة تسبب الارياك ، وتجمع حشوا من البيانات والمعلومات قد تضل صاحبها ، وينسلخ منها كما قال تعالى في شأن اليهود: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ الجمعة: 5.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف/175-176-177 .

العمران لغة واصطلاحًا:

العُمُرَانُ في اللغة: نقيض الخراب، وما يُعَمَّرُ به البلد ويُحَسِّنُ حاله بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدُّن، وحَضَارَةٌ وَعُمُرَانٌ: أي حَرَكََةٌ وَأَعْمَالٌ وَتَشْيِيدٌ وَتَمَدُّنٌ، قال أحمد بن فارس: "وَمِنَ الْبَابِ عِمَارَةُ الْأَرْضِ، يُقَالُ عَمَّرَ النَّاسُ الْأَرْضَ عِمَارَةً، وَهُمْ يَعْمُرُونَهَا، وَهِيَ عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ. وَقَوْلُهُمْ: عَامِرَةٌ، مَحْمُولٌ عَلَى عَمَرَتِ الْأَرْضِ، وَالْمَعْمُورَةُ مَنْ عُمِرَتْ. وَالْإِسْمُ وَالْمَصْدَرُ الْعُمُرَانُ: وَاسْتَعْمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ فِي الْأَرْضِ لِيُعْمَرُوهَا."¹⁴

العُمُرَانُ في الاصطلاح: ما ذكره ابن خلدون في مقدمته؛ للدلالة على نمط الحياة بوجه عام، جامعاً إيَّاه أحد الخواص التي تميَّز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، فالعُمُرَانُ عند ابن خلدون هو ما يسمى الآن (علم الاجتماع) يعني عمران الأرض باجتماع الناس بعضهم إلى بعض ووجود روابط تربطهم وقوانين تنظم حياتهم فقال: "العُمُرَانُ وهو: التَّسَاكُنُ والتَّنَازُلُ في مصر أو حَلَّةٍ لِلأُنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما فيه

14- ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، ج4، ص 141 .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

من طباعهم من التعاون على المعاش¹⁵، وقد استلهمه ابن خلدون من قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:6)، والعمران عند ابن خلدون نوعان: "ومن هذا العمران ما يكون بدويًا وهو الذي يكون في الضواحي، وفي الجبال، وفي الحلال المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريًا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها.¹⁶ فالعمران عند ابن خلدون إما أن يكون حضريًا أو بدويًا..

والعمران الذي نحن بصده في هذا البحث هو العمران الحضاري، والذي يشمل البشري والمادي والثقافي، والذي يعني بالضرورة: التوظيف الإيجابي للمنجزات الحضارية¹⁷. وتوظيفها إيجابًا للوصول إلى البناء الحضاري، وهذا ما سنتناوله في المباحث الآتية.

15 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ، 1988م، ص53.

16 - المرجع نفسه.

17- أحمد صدقي الدجاني، في بحث له بعنوان: مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة، ألقى في المؤتمر الرابع عشر: حول حقيقة الإسلام في عالم متغير، من تنظيم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ما بين 20.25 ماي 2002.

المبحث الثاني: بناء المعرفة المتخصصة لاحتياج العمران الحضاري

لا يتوقف المنهج القرآني في العمران والبناء الحضاري على القوى المادية وحدها ليحدث التغيير والتحول في المجتمعات البشرية من خلالها ، فالله سبحانه لما كلف الإنسان بعمارة الأرض لم يتركه ضائعاً تائهاً ، بل أعطاه مقومات الإعمار وتمثل في أمرين:
الأول: الإمكانيات المادية أو ما تسمى بالثروات الطبيعية .

الثاني: القدرة العقلية، والقدرة على اكتساب المعرفة التي تجعله قادراً على الاستفادة من هذه الثروات. ولذا كان التركيز ابتداءً في الخطاب القرآني على الإنسان في تفكيره، وتصوره، وفي نفسه، وروحه، فهو الذي يتجلى في التغيير والذي يحدثه في مجالات الحياة المختلفة ، وعليه فإن الإسلام يرى في الإنسان الخليفة الكائن المحوري في الأرض، والظروف من حوله الخارجية مهما كان تأثيرها، فسيظل الإنسان ذاته هو العامل المحوري في التغلب عليها وتسخيرها لصالحه، ومن هنا تأتي أهمية المعرفة المتخصصة في صياغته وتأهيله لعمران الأرض والقيام بعملية الاستخلاف .

المقصود ببناء المعرفة المتخصصة لاحتياج العمران: هو بناء التصور الذي وضعه القرآن الكريم، والذي من خلاله يفهم الإنسان الظواهر من حوله ، وكيفية التعامل معها ، بالاعتماد على العقل وبنائه بالعلم والمعرفة التي تورث الفهم والحكمة، والتحكم في بيئة الحياة، والعمل على تحسينها وتطويرها، ومواجهة مشاكلها للوصول إلى تحقيق الاستقرار النفسي والوجداني والاجتماعي للناس كافة في جميع مجالات الحياة المختلفة .

إن الارتقاء الحضاري لأي أمة من الأمم ، والتحويلات الكبرى في الحياة هي صورة لما هو في أذهان الناس، وتصورات المجتمع الناهض، وما يحمل من هواجس، وأفكار، وقيم يريد تحقيقها، وبلورتها في أرض الواقع . وبما أن الناس في أصل خلقهم سواسية ثم يقع الاختلاف في الأفهام والتصورات ، إلا إن الكون بما فيه مبني على سنن من أخذ بها أفلح ونجح في العمران الحضاري بغض النظر عن ما يحمل من معتقد أو تصور قال تعالى: ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هُوْلَاءِ وَهُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ الإسراء: 20.

إن منهج القرآن الكريم في بناء الحياة، يستهدف بناء المعرفة التي تعيش "في الواقع" ، وتتوفر للأشخاص للعمل عليها والاستفادة منها، ولذا ذم القول بلا علم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ سورة الصف: 2-3 .

وإذا كانت المعرفة: هي الإدراك الواعي وفهم الحقائق ، أو اكتساب المعلومة عن طريق التجربة ، أو من خلال التأمل في طبيعة الأشياء، وتأمل النفس، أو من خلال الاطلاع على تجارب الآخرين، وقراءة استنتاجاتهم ، وهي مرتبطة بالبدية والبحث لاكتشاف المجهول، والسعي نحو الكمال البشري ، نجد أن القرآن الكريم وضع منهجاً لبناء الإدراك والوصول إلى فهم الحقائق واكتساب المعلومة من خلال الآتي:

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

1- القراءة: أول أمر وجه للنبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده لأمته ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ سورة العلق:1 .

فبالقراءة تتوسع مدارك الإنسان، وينمو فهمه، وتتكون عنده التصورات الصحيحة والمنضبطة حول ما يحيط به ، كما يحل من خلال القراءة مشاكله التي تواجهه، وهذا كان شأن القرآن الكريم ينزل معالجا لمشاكل الناس، ومصححاً لمفاهيمهم، ومبيناً لطريق الهداية وسبل الرقي الإنساني .

القراءة: هي نقطة البداية في بناء المعرفة، فيعرف الإنسان من خلالها ظواهر الحياة من حوله ومدلولاتها. وليس المقصود من القراءة الاطلاع المجرد وتلقين المعرفة فحسب، بل تفعيلها في الحياة وتفجير الطاقات الإبداعية.

وأولى ما يستحق القراءة هو القرآن الكريم فهو دائرة المعارف ومنبعها، يقول السيوطي في هذا الأمر: " وإن كتابنا لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، وأودع فيه سبحانه وتعالى كل شيء، وأبان فيه كل هدي وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد " ¹⁸.

وعلاقة القراءة بالعمران والبناء الحضاري علاقة متلازمة ، إذا إن البناء يحتاج إلى علم مدرك، ومعرفة مستوعبة وأولها

قراءة الواقع والحياة ومتطلبات النهوض، ومعرفة مكان الشر، وأسباب الانحدار والسقوط . ولا يمكن أن يتصور تقدم أمة ما دون أن تكون قارئة ومطلعة على ما يدور حولها، ذلك أن القراءة تجعل الإنسان على دراية بمحيطه، وقادراً على مواكبة التطورات المعرفية والعلمية التي تُستحدث كل يوم، ولا طريق للعمران والتطور والتحضر والوصول إلى التمكين إلا بالقراءة، وإذا ما نظرنا إلى الأمم المتقدمة والقائدة للعالم الآن سنجد أنها أهتمت بالعلم والتعليم، وأوجدت سبل القراءة، ودعمت مراكز العلماء في الابداع والاختراع .

والقراءة باسم الله حتى لا ينحرف العقل، فيبتكر ما يدمر لا ما يعمر ، باسم الله لتعمير الكون والقيام بواجب الاستخلاف في الأرض، إذا انحرفت القراءة صنعت الدمار كما حدث في صناعة القنبلة الذرية واستخدامها في تدمير الحياة ، والاسلحة الفتاكة التي أبادت المدن وما فيها ، والابتكارات التكنولوجية واستخدامها السيء في تدمير قيم الإنسانية ومسحها عن فطرتها التي فطرها الله عليها .

2- والكتابة بالقلم: لها أهميتها في ترسيخ المعرفة إذا به تحفظ وتصان عن التحريف والتزوير ، وتنقل للأجيال ، ولقيمتها أول ما أقسم به الله تعالى في القرآن الكريم؛ هو: ﴿ ن والقلم وما يسطرُونَ﴾، في سورة "القلم"، وهذه السورة نزلت بعد سورة "العلق" ¹⁹، التي تبدأ بأول ما أنزل من القرآن الكريم، وهو الأمر الإلهي الخالد: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. العلق:1

18- السيوطي، "الإتقان في علوم القرآن"، دار الكتاب العربي، ج1/6، 1419هـ الموافق 1999م.

19- القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة ، ط2006، ج1، ص21، ص135.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

هذا القسم ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾، جاء لكي يؤكد الله تعالى بها، نبوة الرسول الكريم، محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بكل ما يعنيه ذلك من أمور عظمى، أو بمعنى أدق، هي أعظم وأخطر أمور الدنيا؛ عقيدة التوحيد، الإسلام، الدين الخاتم.

بذلك رسَّخ القرآن الكريم أهمية المعرفة واللغة في هذه الأولوية، وفي هذا الترتيب، لأن المعرفة تكتسب من خلال القراءة ثم تدون وتحفظ بالكتابة بالقلم.

3- النظر في المخلوقات من حوله: يتسم منهج القرآن الكريم في بناء المعرفة من خلال النظر في الكون، والتأمل في المخلوقات باعتباره الكتاب المنظور أمام الإنسان المستخلف، والنسق المفسر لمكونات المعرفة الوجودية في عالمي الغيب والشهادة، فالنظرة القرآنية للكون على أنه ميدان واسع للمعرفة منه تؤخذ وعليه تنزل فهو " يبحث بشكل رئيسي في مسألة تبين عالم الوجود في منظور هذا الكتاب الكريم، وما هي مكونات هذا العالم وكيف تتعاقب في ما بينها. وبهذا الفهم، فإن علم دلالة القرآن سيكون نوعا من الأونطولوجيا (مبحث الوجود)، ولكنها أونطولوجيا عيانية حية حركية، لا ذلك النوع من الأونطولوجيا النظامية السكونية التي يقيّمها فيلسوف على أرضية تجريدية من التفكير الميتافيزيقي. إن هذا العلم سيقوم أونطولوجيا على أرضية عيانية من الكينونة والوجود كما انعكست في آيات القرآن".²⁰

من خلال الرؤية القرآنية للكون تتكامل المعرفي لدى المخاطب لجمعها بين ترتيب الكتاب المسطور، والتأمل في الكتاب المنظور، وإدراك ترابط القوانين بينهما، ودلالة أحدهما على الآخر، فيكتشف الإنسان من خلالهما ذاته ومكان قوته وضعفه، ويدرك سنن الاستخلاف، وطرق الإعمار، والقيام بما أمره الله به، قال تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ آل عمران:190.

إن الكون كلمات قرآنية، وهذه الكلمات أكوان " فكل الأشياء في الحقيقة آيات الله، ولا يمكن إدراك طبيعتها إلا من قبل أولئك الذين لديهم عقل، ويستطيعون التفكير بالمعنى الحقيقي للكلمة "²¹.

بل إن مسألة تطوير الإنسان لنموذج معرفي من خلال الموجودات المحيطة به، هي أحد أهم المسارات التي يمكن أن يصل الإنسان بها إلى الإيمان بالله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة "فصلت" - الآية 53].

فالإنسان لديه مهارات تكوينية، تدفعه نحو معرفة الأشياء واستكشافها، والتعامل مع محيطه الزماني والمكاني مندفعاً نحو المعرفة، فحب الاستطلاع، فطرة بشرية، ومكون أصيل في النفس الإنسانية، وبالتالي:

20- توشيهيكوي إيزيتسو، الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة هلال محمد الجهاد، ص32.

21- الله والإنسان في القرآن، مصدر سابق، ص216.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فإن القرآن الكريم، من خلال ما دعا إليه في صدد التدبر في الخلق الإلهي، والقراءة والاطلاع، والسعي إلى الفهم؛ هو ذاته، دعا الإنسان والجماعة البشرية، إلى تكوين النموذج المعرفي الخاص بها، وفق ما تقتضيه مصلحتها، ولكن في سياق ما وضعه الله تعالى من قوانين، سواء قوانين الخلق والعمران النافذة، أو قوانين الشريعة الإسلامية، التي سوف يُحاسب الإنسان على مدى التزامه بها.

"إن الكون في الفلسفة القرآنية نفيس القيمة غال عند صاحبه ، لا لأنه بذل فيه جهدًا ، أو دفع ثمنًا، كلا ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، إن غلآه راجع إلى دلالاته على خالقه، فقد بني لبنة لبنة بالحق، وانتظمت أرجاءه قوانين محكمة، وتجلي فيها المجد الإلهي في أبهى صورته ، قال تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ الأحقاف:3. ولن يحسن معرفة الله امرؤ يعى عن سنن الحق، ولن يخدم رسالات الله جهول بهذه السنن، وإنه لمن المزعج أن يعيش سواد المؤمنين في هذه السنن العجاف مسخرًا في الأرض، والمفروض أن الله سخر له ما في السموات والأرض " 22.

ويؤكد الغزالي هذا المعنى بقوله: " إن انفتاح المرء على الكون، وفقهه لما فيه، واستمكانه منه، هو التوجه القرآني الأوحى لجملة العقائد، والمعالم التي يقوم الدين عليها " 23.

ويتابع في موضع آخر قائلاً: " إن دراسة الكون نهج قرآني واضح لبناء الإيمان أولاً، ولدعمه وحراسته ثانياً، ولمنافع البشر ومتاعهم ثالثاً، ومع ذلك فإن أجيالاً كثيفة غلقت مشاعرها دون الدراسة... إن الإيمان- كما يفهم من القرآن- قدرة الحياة في جميع دروبها، قدرة علمية ومادية يصحبها تطويع كل شيء لإرضاء الله وابتغاء وجهه " 24.

فالمنهج القرآني منهج معرفي شامل ، ينظر إلى الكون نظرة حضارية، وبالتالي؛ فنحن أمام جوهر الحضارة الإنسانية في كتاب الله تعالى، وكل ما يُقال خلاف ذلك؛ إنما هو ضمن مساعي التشويش التي تواجهها الأمة، مما يستدعي من أهل المعرفة؛ العمل على مواجهتها، وأول وأهم خطوة هو تفكيك بعض المكونات المعيقة لذلك، والتي ترسّخت في الذهنية المسلمة في قرون التخلف الحضاري التي مرت بها الأمة، ضمن قوانين الله عز وجل في صعود وهبوط الأمم والحضارات.

4- القصص القرآني: تأخذ القصص القرآني وأخبار الأمم السابقة مساحة واسعة في القرآن الكريم ما يقارب الثلث، وما أحوجنا أن نبني المعرفة على تجارب مشاهدة للقارئ والسامع فيها من العبر والعظات، وبيان سنن

22- الغزالي، محمد ، كيف نتعامل مع القرآن ، دار نهضة مصر للنشر ط.2014، ص109.

23-المرجع السابق، ص53.

24- المرجع السابق، ص 56 .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

التعمير والخراب، قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يوسف: 111.

وقد بين القصص القرآني البناء المادي والحضاري، للأقوام المذكورة سيرتهم، والأمم التي حكمت أخبارهم، وأبرزت الرقي والتقدم والعمران لتلك الشعوب، وما كانت عليه من حياة البذخ والترف، وما انغمست فيه من الفسق والعصيان، وفشو الظلم والطغيان، فاستحقت بذلك عذاب الله فانهار بنيانها، وخرب عمرانها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ النمل: 52. وختمت الآيات لقوم يعلمون، لارتباط المشاهدة بالمعرفة والمعاناة بتحقيق العلم ووقوعه، وهذا يقتضي أخذ العبرة من خلال المعرفة بأحوال من خرب عمرانهم وعدم تكرار أسباب انهيار بنيانهم وخراب دولتهم.

يقدم القرآن الكريم، من خلال القصص القرآني مختلف أركان عملية العمران والبناء الحضاري، فمنظومة البناء المعرفي تبدأ من تناول المعرفة واستخدامها، وتنتهي في الثمرة لهذا الاستعمال، ومن هنا كانت الدعوة إلى معرفة السنن الإلهية مثل سنة البناء الحضاري، وسنن المدافعة، وسنن التسخير والتمكين في الأرض، وإدراك أهميتها، "فالسنن هي القانون المطرد، فلقد تحدث القرآن عن السنن التي تسير الحياة والأحياء، وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية، سنن سقوط الأمم ونهوضها، وغالبا ما يعي في أعقاب القصص القرآني، تنبيه المخاطبين إلى أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومُعْظَمِ أحوالها، قال مُشِيرًا إِلَى غَفْلَتِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ إبراهيم: 45.²⁵

وأكد القرآن أن هذه السنن جارية على الناس جميعا، وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لا بد منه للشهود الحضاري، واكتشاف السنن هو الذي مكن من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف، وبالتالي أصبحوا مسخرين بدل أن يكونوا مسخرين " ²⁶.

يقول عبدالحليم عويس في مقدمته لكتاب الغزالي: "المقصد العام من وجود القصص القرآني أن يفهم المسلمون سنن الله الكونية والاجتماعية، أولا يحاولوا القفز من فوق السنن، وأن يعوا أنهم لن يتمكنوا في الأرض إلا إذا تفاعلوا التفاعل الصحيح مع هذه السنن... وأن يفهموا أيضا أن التاريخ ذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل، وهو (الكمبيوتر) الذي يغذي الحاضر بالمعلومات الصحيحة، فيمكن الوصول إلى القرار المستقبلي الصحيح " ²⁷.

25- ابن عاشور، التحرير والتنوير ج1، ص 67.

26- الغزالي، محمد: كيف نتعامل مع القرآن، ص 184. بتصرف.

27- المرجع السابق، ص 6.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وما تعمقه القصص من معرفة، " أن ينشئ في المسلمین همة السعي إلى سيادة العالم كما سادته أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً فكان منتهى السيد منهم أن يغم صريمته، ومنتهى أمل العاصي أن يرعى غنيمة، وتقصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس والرؤم، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس، والشام ومشارفه تبع لسيادة الرؤم، وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الإغترار بمملوك العجم والرؤم في رحلاتهم وتجاريتهم"²⁸.

ونرى ابن عاشور رحمه الله، يبدع في استنباط المعرفة من القصص القرآني وأثرها في العمران والبناء الحضاري من خلال قصة يوسف فيضيف: "وكذا أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإمام بقوائد المدينة كقوله تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ يوسف: 76 (في قراءة من قرأ دين) بكسر الدال، أي في شرع فرعون يومئذ"

29

متلازمات البناء المعرفي لتحقيق العمران الحضاري :

1- الفاعلية: البناء المعرفي المتخصص يحتاج إلى الفاعلية، فهي مقوم من مقومات الاستجابة مع ما سبق من القراءة والتعلم بالقلم، والاعتبار بمن سبق، والنظر في الكون وما حوله، وهو ما سماه القرآن بالفقه والفهم، فقال في عديي الفاعلية: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ سورة الأعراف 179 ...

ذلك أن الفاعلية تجدد المدارك، وبها يحدث التغيير الممنهج والهادف، ومن أبرز ملامح الفاعلية في بناء المعرفة للوصول إلى البناء والعمران الحضاري، اقتناع المكلف بمنهجه، ويقينه في صلاحه لكل زمان ومكان، مع مثول المقاصد الشرعية أمام عينيه، وأعماله في انسجام تام مع الخطاب الرباني، بما يمكنه من إثبات أهليته المعرفية، وكفايته لتحقيق الاستخلاف في الأرض، ولن يمكن مالم تتحقق المعرفة له، كما تحققت لأبيه من قبل ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: 31.

28- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، د، ت، ج، 1، ص 68.

29- المرجع نفسه .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والاستخلاف رهين باستكمال الإنسان بناؤه المعرفي بناء على المعرفة الالهية، حتى يقوم بمهمة النهوض العمراني وهذه تشترط الثبات المعرفي والمنهجي، وتفعيل المعرفة القرآنية في الواقع الإنساني، على هدى تعاليم الخطاب الشرعي التي ياتمر فيها المستخلف في الأرض، بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قل إن صلواتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ الأنعام: 164-165.

و الفاعلية الذاتية للبننة الأولى في تفعيل كيان المجتمع ودفعه نحو إعمار الكون وإحداث التغيير، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الرعد: 12.

2- التوازن: فالميل في جانب من الجوانب ضياع للإنسان و للحياة والعمران، قال تعالى عن أهل الكتاب من النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد: 27.

فالمعرفة المتوازنة تضبط إيقاع الحياة، وتؤدي إلى الاستقامة والاستمرار في دروب النهوض الروحي، والمادي، وتنشئ كيانا فاعلا، به تتحقق الخيرية لهذه الأمة، ومن هنا اهتم الإسلام بفروض الكفايات، وأتم الأمة في حالة تركتها.

وندرك التوازن في البناء المعرفي من خلال توجيه القرآن الكريم للعقل للاستمداد المعرفي من الوحي الذي يضمن صدقه ويقينه وأنوار هدايته، ويستدعي هذا الاستمداد الإدراك والاستبصار بما يمكن للحواس إدراكه من عالم الشهادة، وما لا يمكن إدراكه من عالم الغيب، وكيف يتعامل مع كليهما، ويتفاعل مع ما حوله من الكائنات .

وكذا يوجد التوازن من خلال إثارة الدافعية لدى المتلقي لإنشاء الوعي الحضاري لاستخلاف الأرض وعمارتها، من خلال أسلوب خطابي يلامس أوتار القلب والروح، ويداعب الحس، ويأخذ بالعقل نحو الوعي، وإدراك أهمية الخطاب والالتزام عملا، أو امتناعا كالتحريم وما ينتج عنه من ثمرة في النفس والروح، ووعيا في العقل، وإدراكا في الحواس .

يتميز المنهج القرآني في بناء المعرفة الإنسانية لتحقيق العمران، بأنها تكاملية متوازنة يعضد بعضها على بعض، فلا تطغي حاجات الروح على حاجات الجسد والعقل ولا العكس، على عكس المناهج المادية.

الرؤية القرآنية للمعرفة " تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤية توحيدية تكاملية، تتكامل فيها مختلف الكيانات، لتكوين علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هي لب الفطرة الإنسانية السوية، ومناطق وجودها، واستخلافها في الأرض، فلا مجال فيها للمغالاة الفردية، ولا للتطرف الجماعي، بل هي في كل أبعادها فطرة تكامل وتوازن واعتدال وسلام"³⁰.

30- أبو سليمان ، عبدالحميد، مختصر كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، فيرجينا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2014، ص30.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فغاية التوازن والفاعلية في بناء المعرفة، القيام بعملية الاستخلاف والتمكين، ذلك أن عمران الأرض مأمور به الإنسان شرعا، وهو مقصد الشريعة الكبرى، كما نص على ذلك فقهاء المقاصد كالشاطبي وابن عاشوره وغيرهم.

يقول علال الفاسي رحمه الله: " المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها وتديير لمنافع الجميع.."³¹.. ولن يكون صلاح المستخلف إلا بالمعرفة يدرك ماذا يعمل ولما يعمل وكيف يعمل ومتى يعمل؟! قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الزمر:9. وقال: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ الرعد:19.

فخلق آدم عليه السلام غايته عمارة الأرض، ولن تكون إلا بالعلم، كما ورد سابقا، بل هو التكريم الذي كرم من أجله بسجود الملائكة له، ولذا أصبح مقصد المقاصد "والنظام المقاصدي ركب أصلا من أجل تحصيل مقصد كلي عظيم هو مقصد الاستخلاف الذي عنه تصدر المصالح البشرية... ففي كلية الاستخلاف وهي أصل الكليات الخمس وغيرها، نجد مصالح الفرد ومصالح المجتمع، بل ومصالح الإنسانية كلها"³².

فالمعرفة من خلال القرآن تبلور " رؤية توحيدية غائية أخلاقية إيمانية حضارية، تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وهي بذلك، وبالضرورة، رؤية علمية سننية تسخيرية، تهدف إلى جعل عناصر الفطرة الإنسانية السوية في ثورة الوعي الإنساني، لتهدى مسيرة الحياة الإنسانية، وترشيدها، كي يحقق الإنسان ذاته السوية في أبعادها الفردية والجماعية، ويستجيب في وسطية واعتدال لحاجاتها ومتعتها، على مدى أفق الوجود الإنساني بكل أبعاده الروحية والإبداعية العمرانية"³³.

فالعمران الحضاري هو التفاعل، والتكامل بين أنواع المعرفة، وهي الخاصية التي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، تدركها الفطرة في البحث عن الاستقرار والأمان، وتوفير سبل العيش الكريم، وتدفعه إلى تطويرها وتحسينها عن طريق المعرفة والتعلم المستمر، والرقى في مسالكها.

31- علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها ط ثانية، مطبعة الرسالة، الرباط 1979 ص:41، 42.

32- عبد العزيز برغوت، المنهج النبوي والتغيير الحضاري كتاب الأمة ع: 43 فبراير 1995، ص: 46، 47.

33- أبو سليمان، عبد الحميد، مختصر كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، فيرجينا، مرجع سابق، ص:24.

المبحث الثالث: مجالات المعرفة المتخصصة والعمران الحضاري

يخبرنا التاريخ البشري أن علماء المسلمين بما امتلكوه من المعرفة في كافة مجالات الحياة وجوانبها، أقاموا أسس الحضارة الحديثة، وهو ما قال به الفلاسفة الغربيين، مثل جوستاف لوبون و جورج سارتون، الذي قال في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم": "إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فالفارابي أعظم الفلاسفة، والمسعودي أعظم الجغرافيين، والطبري أعظم المؤرخين"³⁴.

فالإسلام هو الذي أخرج العرب من براثن التخلف إلى سعة الحياة ، ومن خلال منهج القرآن فتح عقول الناس على أنواع المعرفة ومجالاتها المتنوعة، وجعل من ثمارها عمارة الأرض واستخلافها، وفي هذا المبحث سنركز على الجوانب التي تهض بالعمران الحضاري وكيف وضع القرآن أسسها، ولا يتحقق عمران الأرض من دون فهم حقيقة الإنسان، والحياة من حوله، فما هو الإنسان ؟

للإجابة لا بد أن نعود إلى الإنسان الأول آدم عليه السلام، ونرى كيف خوطب هو ومن حوله ، وكيف خلق ابتداء، يخبرنا الله-عزوجل-أن الغاية من خلقه محددة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:30.

وبين أن الإنسان مكون من ثلاثة عناصر تمثل مجالات الحياة، فباجتماعها يحيا وينهض في الحياة ويستخلف ، وبتفريقها ينتهى دوره ويموت :

1- الروح : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ سورة الحجر :29.

2- العقل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة:31. إذ إن التعليم بحاجة إلى إدراك، والإدراك مكانه العقل.

3- الجسد : وهو الهيكل الذي فيه يُكون ويُصور، ومكان العقل والروح قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ غافر : 64. والآيات فيها ارتباط وثيق بين الإنسان بهيكله والسموات والأرض من حوله، وعلاقة الاستخلاف واضحة بينة من خلال الترابط في الآية ، فالأرض قرار والسماء بناء .

وهذا الثلاثة لا بد من معرفة للتعامل معها، وإدراك متطلباتها لتقوم بدورها في الحياة، فطغيان الاهتمام بأحدها على حساب الآخر، يخل بالإعمار في الأرض ، ويحرف مسار البشرية الذي حدده الله لها.

ولذا لا بد من إدراك التوازن فيما بينها ومعرفة مقاصدها، فالعبادة التي هي في الحقيقة متعلقة بالروح بحاجة إلى عقل ليؤديها صاحبها بما شرعها الله، ولذا كان العقل مناط التكليف فإذا غاب سقطت

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الأهلية ، وبحاجة إلى جسد صحيح قوي يقوم بالتكاليف المطلوبة في أتم صورة، فإذا ما أصيب الجسد بعلّة أو داء حدث الحرج ، واستلزم الرخص، بل وسقطت بعض التكاليف، ولعمق هذا التكامل بين المجالات الثلاثة، فلا تقتصر العبادة في الإسلام على جوانب الشعائر الظاهرة، ذات المردود الفردي، بل إن المعرفة بالشريعة الإسلامية تقودنا إلى استيعاب أن الخلافة التي أناطها الله بالإنسان في الأرض معنى أوسع وأشمل، فالعمران عملية شاملة لكل سبل الحياة الإنسانية في مجالاتها المادية والمعنوية، "إن التعمير المادي يسير مع التعمير المعنوي في آن واحد، لا ينقطع أحدهما عن الآخر، فكما ذكر البيت المعمور وهو بيت الله الحرام في مكة، ذكر (واستعمركم فيها) فكأن حياة الإنسان لا تستقيم بنوع واحد من العمارة"³⁵.

ولذا راعى المنهج القرآني في بناء وصياغة المعرفة لدى الإنسان، بما يؤدي إلى العمران والنهوض الحضاري فكان "موضوع القرآن صياغة الإنسان، ووظيفة الإنسان القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها، لذلك طلب القرآن: النظر والتدبر، والملاحظة، والاحتبار، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ص:88. وهذا يستدعي أن يستفيق المسلمون من سباتهم المعرفي والعلمي في حقول العلوم المختلفة، لتحقيق مقصد القرآن من الإعمار"³⁶.

ولتنوير العقل وليقوم الجسد إلى تحقيق الإعمار في الأرض أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة:2. "فآياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب عن أميتهم، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة"³⁷.

ولضبط التوازن بين احتياجات الروح والعقل والجسد، لا بد من الغوص في بحور العلم والتخصص فيه، فبه تعرف حدود كل منها، لذا "فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر، وأما الصلاح الجماعي، فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموآثبة القوى النفسانية. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح

35- الدغامين، زياد: إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد54، خريف2008م، ص27.

36- الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، المقدمة، ص30.

37- رضا، محمد رشيد، الوحي المحمدي، ص192.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع " 38.

وفي القصص القرآني نجد الاهتمام المتوازن بين تحقيق المعرفة في المكونات الثلاثة:

ففي قصة يوسف عليه السلام، وهو يدعو إلى العمران، والمحافظة على الاكتفاء الذاتي، وحسن تدبير الموارد، نجد أنها شملت المكونات الثلاث من خلال " الأسس النظرية للعملية الدعوية بصفة عامة، ، وأبرز الأسس النظرية يمكن إجمالها في الاعتزاز بالعميقة ونقد للعقائد الفاسدة وفهم التاريخ وتوظيفه، ثم إبراز روح الإسلام العامّة، والجانب المادي وما مثلته القصة من تحليل لتجربة يوسف التنموية وخاصة توصله إلى حلّ مشكل اقتصادية في عصره عبر تأسيسه لنمط اقتصادي يظهر لأول مرة في تاريخ البشرية وهو ما يعرف اليوم بصندوق الدولة الاستثماري والنجاح الذي حققه هذا الشكل الاقتصادي الجديد " 39.

فالمكون العقدي غذاء الروح وبلسمها، ومن خلالها تصاغ المعرفة الصحيحة التي تصوب طريق العمران، وتجعل من التحضر هدفاً له قيمة ومعنى في مسار عمارة الأرض ونشر الخير فيها، قال تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام وهو يخاطب السجينين قبل أن يفسر لهم ما رأوا "أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار".

التوحيد قضية محورية في القرآن الكريم وتأصيلها في النفوس يضبط السير والتصور، والقصة تعرّفنا "أنّ يوسف معتر بعقيدة التوحيد التي ورثها عن آبائه" 40، والتي صاحبتها وهو يعبر مؤامرات يتحدّث عنها في سجنه داعياً رفاقه إلى الإيمان ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ يوسف، 39.

هذه القضية المحورية هي التي رافقت يوسف من البداية، يوم أن رمي بالبئر، وواجه النسوة، ودخل السجن وخرج منه، وهي سبب الفوز النهائي بالملك في الدنيا ورضوان الله بالآخرة، لذا فتصحيح الاعتقاد، وصدق التوجه إلى الله يوجه سير النمو والعمران، ويضمن استمراره حتى تحقيقه، لأن غاية صاحبه ليس المتاع الدنيوي بل رضا الله وما عنده وهذا ما ختمت به قصة يوسف عليه السلام: ﴿ رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ يوسف: 101.

38- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مرجع سابق ج 1، ص 38.

39- حسن الطرابلسي، يوسف عليه السلام ونظريات الاندماج، نشر في الفجر نيوز يوم 20 - 02 - 2009. بتصرف.

40- الغزالي، محمد: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، الأجزاء العشرة الثانية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1414 هـ 1993 ص 32.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والمكون الثاني : العقل والتعلم وإنضاج منهج العمران والبناء بالمعرفة وهو ما نلاحظه من قوله : ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يوسف، 21 ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ يوسف:37.

وقوله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (يوسف، 38)، فكما حوت الآية على شرف الانتساب إلا أنها أشارت إلى شرف المعرفة بالتوحيد، وطريق الهداية الذي اخطه الآباء، فالتذكير بسيرتهم خصوصا، وهم أنبياء مصلحون دعوا إلى عمارة الحياة بالهدى ودين الحق، وأقاموا شعائر المعروف والخير، فالحديث عن تجربتهم والتذكير بطريقهم، يبعث في النفس العزيمة، وفي الفكر النضج، وفي الجسد المثابرة والبذل، فالعودة إلى التاريخ باعتباره ذاكرة البشرية ومحط تجاربها، معين معرفي لا ينضب، ودروس ماثلة للعيان خصوصا أن القرآن يجسدها كأنها مشاهدة، فالتاريخ ليس سردا للروايات وإنما هو "نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"⁴¹.

ولرفع كفاءة العقل بالمعرفة ، كان الحوار مبدأ أصيلاً في تخاطب يوسف عليه السلام مع غيره، سواء داخل السجن أو خارجه، وكان الحوار ملازماً لقضايا حاضرة يعيشها أصحابها ابتداء من حوار مع امرأة العزيز، ومع السجناء بخصوص الرؤيا، و حل المشكلة الاقتصادية من خلال رؤيا الملك، ثم حوار مع إخوته .

التركيز على القضايا التي تعيق العمران والبناء الحضاري، أو التي يحتاجها لعملية البناء هي ما ينبغي أن يركز عليه، كم من البرامج والأوقات تهدر في الكلام والنقاش على مسائل ماتت وانتهت، أو أخرى في طي المستقبل أو الوهم ، ناقش يوسف عليه السلام قضية واقعية، منتشرة في عصره، كما يقول المفسرون⁴² أنّ الواقع العام لذلك الزمان كان يوحى بانتشار الحديث عن الرؤيا والمؤولين لها، وهنا حقق يوسف مسألة مهمة، يطلق عليها عند الأصوليين "تحقيق المناط". و كل الأنبياء عليهم السلام تفاعلوا مع قضايا عصرهم وقدّموا حلولاً للمجتمع .

41- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، ص 3 و 4 .

42- ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج11، ص 344.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فالمعرفة المتخصصة قائمة على علم وإدراك، تحل مشاكل عصرها، فالعلم الذي رُزقه يوسف عليه السلام وقيمته، استطاع به أن يحل مشكلة اقتصادية كادت تسقط الدولة ويخرب بنايها، وهذا الحل لم يستهدف أجساد الناس من خلال طعامهم فحسب، بل حافظ على عمران البلاد وجعلها مقصدًا للبلدان الأخرى ليحصلوا على طعامهم وأولهم إخوة يوسف عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يوسف: 88.

يقول القرطبي: "ولمّا فوّض أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء... ثمّ دخلت السنون المخصبة فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة فلمّا أدركت الغلّة أمر بها فجمعت ثمّ بنى لها الأهرام، فجمعت فيها تلك السنة غلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثمّ جمع عليه غلّة كلّ سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجذبة"⁴³ و يتابع القرطبي حديثه عن تجربة يوسف عليه السلام واصفا إياه أثناء السنوات العجاف قائلا: "ولمّا أصاب النَّاس القحط والشدة ونزل بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للحيرة، وذاع أمر يوسف في الآفاق للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته، وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس للناس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم لكلّ رأس وسقا"⁴⁴.

إن أساس العمران والنهوض الحضاري هو الاستقرار وأمان الناس في أنفسهم وأموالهم، ولذا كان لعلم الحكام ومعرفتهم في كيفية إدارة شؤون الناس، وما يترتب عليها المرتكز الأساس في استقرارهم، فمعرفة متلازمات الاستقرار كالعدل وتلبية احتياج الناس وحل مشاكلهم لوازم للعمران، ولذا نجد ثمار علم يوسف عليه السلام الذي علمه الله من خلال إقامة العدل في توزيع الاحتياجات من الحبوب المخزنة ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾، فالعدل أساس العمران البشري كما يقول ابن خلدون⁴⁵ وهو فضيلة من الفضائل الأساسية، فبالعدل تنهض الحضارات، وبه يكرّم الإنسان ويعزّ.

كما اهتم بتوسيع الزراعة، قال القرطبي: "وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة"⁴⁶. ولمّا نضجت الزراعة واستوت أمر يوسف عليه السلام بجمعها كما هي دون طحنها لأنّ ذلك يحفظها أحسن، وتكرّرت عمليّة جمع الغلّة كلّ سنة حتى انقضت السنون الخصبة، وفي الأثناء أمر عليه السلام المخازن التي سوف تحفظ فيها الحبوب.⁴⁷

إضافة إلى العوامل السابقة، ثمة عامل مهم جدًا ساهم في إنجاح سياسة يوسف عليه السلام الاقتصادية والتنموية وهو التخطيط والحساب، فالعلماء يذكرون أن يوسف أول من كتب يقول القرطبي: "يوسف أول

43- المرجع السابق ص 366.

44- المرجع نفسه.

45- ابن خلدون، المرجع السابق، ص 256.

46- القرطبي، مرجع سابق.

47- المرجع نفسه.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

من كتب في القراطيس" ويقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمٌ﴾ (يوسف، 55). والحفيظ: هو الحاسب الكاتب..⁴⁸.

لقد كانت ثمار المعرفة التي أمتلكها يوسف عليه السلام، واستخدمها في وقتها ومساقها أنه نجح نجاحًا منقطع النظير، فتجاوز بالأمة كلها السنين العجاف بسلام حتى وصف القرطبي نتائجها بقوله "وذاع أمر يوسف في الآفاق"⁴⁹.. وهكذا نجح في حل الإشكال الذي هدد الاستقرار ووحدة البلاد.

وفي قصة شعيب عليه السلام، وهو يعالج مشكلة فساد الميزان، وما لها من أثر على عمران حياة الناس، وزعزعة استقرارهم، وفشو الظلم الناتج عن التطفيف بالميكال والميزان، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: 84 - 87.

فأمرهم بالأهم أولاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هود: 84، لتصويب الفكر وضبط التصور، وتوجيه الرؤية توجيهاً صحيحاً، فإذا صحت بني عليها كل خير، بل وتوجّه صاحب الفكر النير والعقيدة السليمة من تلقاء نفسه للخير؛ ، فبدأ شعيب عليه السلام في إدخال الإيمان إلى قلوب قومه أولاً، ليكون الأمر الثاني أسهل في الاستجابة والانقياد، لكنهم رفضوا الأمرين معاً بعناد وكبر، ثم أراد أن يعالج المشكلة الثانية المتفشية في مجتمعهم، وهو نهيمهم عن تطفيف الكيل والميزان، وسرقة أموال الناس بغير حق: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ هود: 84، وصاحب المعرفة لا يقف عند النهي أو إنكار المنكر فحسب، بل يدل الناس على الحلول: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ هود: 85؛ والغاية هو البعد عن الفساد، والسعي نحو إصلاح الأرض وإعمارها.

كذلك اهتم الإسلام بالصناعة والحرفة كسبيل من سبل الإعمار في الأرض القائمة على المعرفة؛ فقال تعالى مخبراً عن نبي الله داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الأنبياء: 80.

وهكذا نجد اهتمام الأنبياء عليهم السلام بإصلاح أحوال أقوامهم من خلال معرفة ما لديهم من قصور، وما هم واقعين فيه من انحراف يمنع من إعمار الأرض وقيام منهج الله فيها، وهذا التوجيه والدعوة قائم على العلم والمعرفة التي وهبهم الله إياها وأمدهم بوحيه.

48- المرجع نفسه.

49- المرجع نفسه.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فقد أودع الله في الأرض ما يلزم لتعميرها من ثروات وموارد طبيعية، وسخر لخلقها البحار والأنهار، وثبتت الأرض بالجبال الرواسي، وجعلها ممتدة سهلة لا تميد بأهلها، وأسبغ على بني الإنسان نعمًا ظاهرة وباطنة لا تُعدُّ ولا تحصى؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]. وهذه النعم بحاجة إلى علم ومعرفة لاستخراجها والاستفادة منها في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف .

عمران الأرض والوصول إلى الشهود الحضاري ، يجب أن يراعى فيه المكونات الثلاث (الروحية ، والعقلية ، والجسدية) ولا يمكن لأمة أن تنهض وتستمر مالم تراعى ذلك ، والتاريخ ينبئنا أن الحضارة الإسلامية علّمت الدنيا بأسرها، واهتمت بمجالات الحياة جميعها، فنشرت العقيدة، ودعت إليها، واهتمت بالعقل من خلال دور العلم ومدارسه، واهتمت بحاجات الناس المادية من خلال الزكاة وتوزيعها، وكذا تشجيع الأعمال التجارية، والعمرانية ، وبسط الأمن لتنتشر وتنمو، في الوقت الذي أطبق فيه الظلم على العالم أجمع، خاصة أوروبا، فيما يعرف ب: العصور المظلمة.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

النتائج والتوصيات

وختاماً: نحمد الله أولاً وأخراً، على تيسيره وعونه ، فهو صاحب الفضل والجود والكرم، كما تلخص أهم نتائج البحث وتوصياته فيما يلي:

أولاً: النتائج:

- 1- المتأمل في السياقات التي وردت فيها كلمة معرفة ومشتقاتها في القرآن الكريم، يجد أن لمفهوم المعرفة ارتباط بمصدره وأولها هو التلقي من الوحي، ثم من واقع الناس ومجالات حياتهم ، وأن المعرفة سلسلة ممتدة بين البشر تورث من جيل إلى آخر مع نموها بحسب جهد الناس وسعيهم لاستكشاف الجديد من خلال البحث في ملكوت الله الواسع .
 - 2- يقصد بالمعرفة المتخصصة : بأنها التي تركز على مجال معين، وفق حاجة معينة، تحدد سمات المجال واحتياجاته الخاصة بما يلي احتياجات العمران والبناء الحضاري .
 - 3- أن القرآن الكريم وضع منهجاً لبناء الإدراك والوصول إلى فهم الحقائق واكتساب المعلومة من خلال القراءة، والكتابة بالقلم، والنظر في المخلوقات من حوله، و القصص القرآني.
 - 4- متلازمات البناء المعرفي لتحقيق العمران الحضاري (الفاعلية و التوازن) وغايتها في بناء المعرفة، القيام بعملية الاستخلاف والتمكين، ذلك أن عمران الأرض مأمور به الإنسان شرعاً، وهو مقصد الشريعة الكبرى، كما نص على ذلك فقهاء المقاصد .
 - 5- العمران الحضاري هو التفاعل، والتكامل بين أنواع المعرفة، وهي الخاصية التي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، تدركها الفطرة في البحث عن الاستقرار والأمان، وتوفير سبل العيش الكريم، وتدفعه إلى تطويرها وتحسينها عن طريق المعرفة والتعلم المستمر، والرقى في مسالكها .
 - 6- عمران الأرض والوصول إلى الشهود الحضاري ، يجب أن يراعى فيه المكونات الثلاث (الروحانية ، والعقلية ، والجسدية) ولا يمكن لأمة أن تنهض وتستمر مالم تراعى ذلك .
- ثانياً: التوصيات: في ضوء مضامين البحث ونتائجه يوصي الباحث بما يلي:

- 1- يوصي القائمين على المؤسسات التعليمية ربط المعرفة بأثرها في المجتمع ، من خلال أساليب التدريس ومشاريع الطلاب في كافة التخصصات .
- 2- يوصي الباحثين بمزيد من البحوث عن علاقة العلم والمعرفة بالعمران والبناء الحضاري ، ويحيد تخصيص كل مجال من مجالات الحياة ببحث ، فالقرآن الكريم زاخر بالمعرفة المرتبطة بواقع الناس والملازمة لاحتياجاتهم .
- 3- إقامة مراكز بحوث في العالم العربي تهتم بقضايا العمران والحضارة وتقديم الاستشارات المعرفية لمؤسسات الدولة والمجتمع .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المصادر والمراجع

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ، 1988م.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ت.
3. ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م.
4. أبو سليمان، عبد الحميد، مختصر كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، فيرجينا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2014.
5. التهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: دار صادر، د.ت.
6. أحمد صدقي الدجاني بحث له بعنوان: مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة، ألقى في المؤتمر الرابع عشر: حول حقيقة الإسلام في عالم متغير، من تنظيم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ما بين 20.25 ماي 2002.
7. الدغامين، زياد: إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد54، خريف2008م.
8. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، بيروت: دار المعرفة، ط1، 1998.
9. السيوطي، "الإتقان في علوم القرآن"، دار الكتاب العربي، 1419هـ الموافق 1999م.
10. الغزالي، محمد: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، الأجزاء العشرة الثانية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1414 هـ 1993.
11. الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، دار نهضة مصر للنشر ط، 2014. ص14.
12. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، ط، 2006، 1م.
13. باتريك هايلى، صور المعرفة، ترجمة نور الدين شيخ.
14. توشيهيكو إيزيتسو، الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة هلال محمد الجهاد.
15. جامعة بسكرة، مدخل مفاهيمي حول المعرفة، دراسة ادارة المعرفة، رسالة ماجستير، 2004.
16. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتب اللبنانية، د.ت.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

17. حسن الطرابسلي، يوسف عليه السلام ونظريات الاندماج، نشر في الفجر نيوز يوم 20 - 02 - 2009.
18. رضا ، محمد رشيد، الوحي المحمدي ، مؤسسة العز الدين . سنة النشر: 1406.
19. صابرين زغلول، محاضرات في نظرية المعرفة
20. عبد العزيز برغوت، المنهج النبوي والتغيير الحضاري كتاب الأمة: ع 43 فبراير 1995.
21. علال الفاسي ، مقاصد الشريعة ومكارمها ط ثانية، مطبعة الرسالة الرباط 1979.
22. مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، المعجم الوسيط ، الطبعة الخامسة عام 2011.

" ثنائيات في نهضة الأمم والحضارات و انحطاطها من منظور قرآني "

د. المصطفى السماحي

دكتوراه في الفقه وأصوله

وزارة التربية الوطنية- المغرب

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد:

فإن المتأمل في القرآن الكريم يجده قد وضع تصورا متكاملا عن نهضة الأمم وتطور عمرانها، كما تحدث عن عوامل انهيارها وأفولها، فالكثير من الآيات تناولت حركة التاريخ البشري والأمم والحضارات وفق قوانين و سنن ثابتة مطردة لا تحابي أحدا، قصها الله تعالى علينا لنعبر بها حتى لا يحيق بنا ما حاق بالأمم الهالكة.

والأمة الإسلامية اليوم، وهي تتطلع إلى نهضتها من جديد، مطالبة بأن ترجع إلى كتاب ربها لمعرفة هذه السنن الثابتة، واكتشاف عوامل نهضتها وانتشالها من حال الضعف والانحطاط والتخلف التي وصلت إليها، فهذه السنن تعد منارات يستضاء بها في الطريق، لا يمكن للأمة أن تستعيد عزتها، وتهتدي إلى ما تصبوا إليه من بناء العمران الأخوي المنشود إلا باتباعها، فما أصاب الأمة مما أصابها من انكسارات تاريخية وانهزامات متتالية إلا بتخلفها عن سنن الله في الكون، فالنهضة لا تتحقق بالتغني بالأمجاد ولا بالأمانى المعسولة.

ترى ما أهمية القرآن الكريم في التأسيس لسنن ونواميس بناء العمران؟ وما هي أهم مقومات نهضة الأمم والحضارات في المنظور القرآني؟، وما أسباب وعوامل انهيارها وأفولها؟ وكيف تستفيد الأمة الإسلامية اليوم من هذه السنن وهي تتطلع إلى نهضتها من جديد؟

هذه الأسئلة وغيرها، ستشكل لنا دعامة في تناول هذا الموضوع المهم الذي تتوقف عليه حركة الكون وتغيرات حياة الأمم، مستعينين في ذلك بمنهج استقرائي تحليلي استنباطي يمكننا من تتبع الآيات التي عالجت الموضوع، وتحليلها، واستنباط عوامل بناء الأمم والحضارات وانهيارها.

وحتى نعرض الموضوع في قالب علمي ومنهجي رصين، وبغية تجلية وتمثل التصورات الواردة أعلاه والاقتراب من الإشكالات المثارة، ارتأيت تقسيمه بعد هذا التقديم إلى خمسة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: أهمية الرجوع إلى القرآن لمعرفة سنن الله في الأمم والحضارات

لقد أنزل الله القرآن الكريم لتتخذ الأمة منها جا ودستورا تهتدي به في دروب الحياة، قال تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الاسراء:9]، فهو مصدر تشريعها وتصورها للحياة، لأنه {تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:42]، يعلم ما كان وما هو كان وما سيكون، ربط حاضر الأمة بماضي الأمم والحضارات، وما تستشرفه في المستقبل من رقي وعمران، فتحدث عن حركة التاريخ وتعاقب الدول والأمم والحضارات في هذا التاريخ كتعاقب الليل والنهار؛ فحضارة يظهر نجمها، وأخرى تغيب شمسها أو يخفت ضوءها، "إلا أن هذه السنة تجري كما هو مقرر في علم المداولة السنني على استحقاقات التداول وشروطه؛ إذ هو تعاقب يجري على سنن العدل الإلهية فوق الأرض لمن يستأهله، فلا تسقط حضارة إلا إذا فقدت أهليتها الحضارية، ولا تحل محلها أخرى إلا إذا استكملت الأهلية لذلك، وصدق الله القائل: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:140]، والأمر هنا لا يقتصر في علم المداولة على تعاقب وتداول الحضارات والأمم مناصب الريادة وقيادة العالم، بل يتوسع الأمر ليشمل الدولة والأمة الواحدة، والبيان القرآني والنبوي واضح الدلالة على ذلك حين خاطب الحلقة الأولى من جيل النبوة قائلاً: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:38]"¹.

لذلك فإن خير ما تُوجَّه له البحوث والدراسات، وتُقام له المؤتمرات والندوات هو التماس هذه السنن والقوانين والنواميس الجارية في التاريخ والأمم والحضارات من القرآن الكريم، فما ذكره الله تعالى من أحوال الأمم والحضارات السالفة ليس الغرض منه التسلية العلمية والعقلية ومعرفتها كوقائع وأحداث مرت في التاريخ وانتهت، وإنما هي سنن ثابتة مطردة، وقواعد قانونية ينطبق عليها ما ينطبق على القاعدة القانونية من كونها قاعدة كلية عامة ومجردة، لا تحابي أحداً، مهما كان دينه أو لونه، {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح:23]، ويقول سبحانه: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر:43]، يقول سيد قطب "فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس.."².

ومن هنا وجب على المسلمين، في كل عصر ومصر، التوجيه إلى آيات القرآن الكريم وقراءتها قراءة عميقة تستدعي النظر والتفكير والاعتبار في أحوال الأمم الماضية، ومقارنتها بما تعيشه الإنسانية عامة والأمة الإسلامية خاصة، في حاضرها، قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} [آل عمران:137]، واكتشاف القوانين والسنن الإلهية، وهو ما يهتم به علم الاجتماع، وعليه بنى العلامة ابن خلدون نظريته، وهو ما ينبغي أن يتصدى له اليوم الباحثون والدارسون، وفي هذا يقول العلامة رشيد رضا: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم

¹ - فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري لعادل بن بوزيد عيساوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1433/1هـ-2012م، ص 229.

² - في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:1385)، دار الشروق-بيروت-القاهرة، ط 1412/17هـ، 1/478.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل³، وما تخلفت الأمة حين تخلفت إلا بجهلها أو تجاهلها لهذه السنن، أما اليوم وهي تستشرف مستقبلها وتتطلع إلى بناء العمران الأخوي المنشود، فلا مناص لها من إعادة الرجوع إلى هذه السنن، وحسن إعمالها.

بل يعد العلم بهذه السنن من فروض الكفاية على الأمة، لأن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جدا، والواجبة ديانة؛ لأن معرفتها معرفة لبعض الدين، ومن جملته معرفة أحوال الأمم مع أنبيائهم، وما حلَّ فيهم بسبب سلوكهم معهم وفقا لسنة الله، فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه⁴.

إن الإحاطة بعلم السنن الكونية لمن شأنه أن ينبه الإنسانية إلى أن لا شيء في هذا الكون وجد صدفة أو خلق سدى، بل كل شيء في الوجود وجد لهدف وغاية، وله قانون يسير وفقه⁵، فللإنسان قانون، وللتاريخ والحضارات قانون، ولتعاقب الليل والنهار قانون، وهكذا كل شيء له نظامه الخاص، يُتوصل إليه عقلا بالتفكير والتأمل في الوجود، ثم جاء القرآن للإرشاد والتنبيه عليه، فإذا به التطابق التام بين كتاب الله المسطور وكتاب الله المنظور في إقرار هذه القوانين، فيزول بذلك الشك باليقين.

والملاحظ أن هذا العلم مازال بكرا يحتاج، بالرغم مما كتب فيه⁶، إلى مزيد بحث وبيان، فالعلماء الأوائل لم يهتموا به كعلم مستقل، والمعاصرون لم يكتبوا فيه سوى القليل، فما زال يفتقد إلى مزيد تعقيد وتقنين وضبط ورعاية، حتى ينضج، كغيره من العلوم، فيستوي على سوقه، وقد أشار الشيخ رشيد رضا إلى القصور في التأليف في هذا الفن فقال "لم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنيانهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها"⁷، وما تم اكتشافه مازال يفتقر إلى حسن تسخير وإعماله، وكل ذلك إنما هو نتيجة لتقصيرنا في تدبر القرآن والنظر إليه نظرة شمولية كلية، والسؤال المطروح اليوم هو كيف يجب أن نتعامل مع القرآن؟ وكيف نجعله كتاب حياة لا كتابا يقرأ على الأموات؟ وبصيغة أخرى كيف

³- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1990م، 4/114

⁴- ينظر السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط 1413/1هـ-1993م، ص 16-17.

⁵- ينظر السنن الإلهية في السيرة النبوية للدكتور أبي اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، ص 83 وما بعدها.

⁶- لم تبدأ الكتابة في هذا الفن كعلم مستقل إلا عند المتأخرين مع دعوة الشيخ رشيد رضا وشيخه محمد عبده إلى ذلك، فبدأ الكتابات في هذا المجال، إلا مازالت قليلة مع ذلك، وما زال علم السنن لم ينضج بالشكل الكافي الذي يجعله علما مستقلا بذاته.

⁷- تفسير المنار 416/7

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

"يعود المسلمون إلى القرآن، أو يعود القرآن للمسلمين، ليكون مصدرا لشحن فاعليتهم، وبناء نهضتهم، والوصول بهم إلى موقع القيادة والشهادة؟"⁸.

⁸- كيف نتعامل مع القرآن للشيخ محمد الغزالي، في مدارس أجازها الأستاذ عمر عبيد حسنه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2005/7م، ص 25.

المبحث الثاني: ثنائية العدل والظلم في تحقيق نهضة الأمم أو أفلوها

يعد العدل من القيم العظيمة التي جاء بها الإسلام وحث عليها القرآن، بل هو صلب الدين وغايته، به بعث الله الرسل والنبیین وأنزل الكتب، وعلى أساسه قامت الأرض والسموات، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: 25]، وهي آية جامعة تبين تلازم العدل للشرع "فالشرع هو العدل، والعدل هو الشرع، ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع"⁹، وقد ذهب شيخ الإسلام ابن القيم في "إعلام الموقعين" إلى "أن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه"¹⁰.

وتكررت الآيات الداعية إلى العدل في القرآن الكريم، ابتداء من الأمر بالعدل في الحكم بين الناس في الخصومات والمنازعات كما في قوله تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: 42]، وقوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} [الأنعام: 152]، و: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} [المائدة: 8]، مرورا بالعدل في نظام الأسرة بين الأهل والأولاد: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوِلُوا} [النساء: 3]، والعدل في المعاملات: في الكيل والميزان: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [الأنعام: 152]، وفي الشهادات: {وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [الطلاق: 2]، وفي الديون: {وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ} [البقرة: 282]، والعدل في القسمة وتوزيع الأرزاق، وجماع ذلك في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90]، فهو عدل مطلق يشمل كل المجالات وكل الأحوال.

وفي نهضة الأمم والحضارات يعد "العدل أساس الملك" و"أساس العمران"، ولذلك ربط الله تعالى الاستخلاف في الأرض وعمارتها بتحقيق العدل فيها كما هو واضح في قوله تعالى: {يَا ذَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} [ص: 26]، فحياة الناس لا تستقيم إلا بالعدل، فهو منبع الطمأنينة واستقرار البلدان وازدهارها، فبه يتبدد الخوف ويطمئن الناس، وتتفجر طاقاتهم وتُحرر مبادراتهم، فيقبلون على البناء والتنمية وتعمير الأوطان والاستثمار فيها، لذلك كان العدل أهم مقومات العمران، يقول ابن تيمية رحمه الله: "وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة ولو كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل، والكفر، ولا تدوم مع الظلم،

⁹ مجموع الفتاوى لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (ت: 728هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط 1416هـ-1995م، 366/35.

¹⁰ إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن القيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية- بيروت، ط 1411/1هـ-1991م، 11/3.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والإسلام،... وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"¹¹، وفي الفتاوى قال إن: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"¹²، مستندا في ذلك إلى تفسير الإمام الرازي والقرطبي للآية { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:117]، حيث قال الإمام الرازي في معنى الآية "أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم،... ويقال في الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، ومعنى الآية { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ } أي لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد"¹³، ومثله قال القرطبي بأن الله تعالى "لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط، ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب"¹⁴.

ويؤيد هذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى تعنت قريش واستمرارها في التنكيل بأصحابه أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة قائلا لهم "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"¹⁵، فشهد صلى الله عليه وسلم للنجاشي بالعدل دون أن يلتفت إلى دينه، وفي هذا الحدث أن الدولة العادلة تكون كعب المظلومين وملجأ المقهورين في العالم.

وإذا كان العدل سببا في نهضة الأمم والحضارات واستمرارها واستقرارها، فإن الظلم والجور مؤذن بخرابها ومعجل بدمارها وزوالها، فمن سنة الله الثابتة في الظلم والظالمين هلاك الأمم بظلمها، كما تدل على ذلك الآيات الكثيرة، منها قوله تعالى: { فَاقْطِعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: 45]، وقوله سبحانه: { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس: 13-14]، وقوله عز وعلا: { فَكَايِنَ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُوءُ مَعْطَلَةٌ وَفَصْرِ مَشِيدٍ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ

¹¹- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية، ط 1418/1هـ، ص 29

¹²- مجموع الفتاوى 63/28.

¹³- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط 1420/3هـ، 410/18.

¹⁴- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط 1384/2هـ-1964م، 114/9.

¹⁵- السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري، أبي محمد جمال الدين (ت: 2123هـ)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 280/1.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

سَنَةِ مِمَّا تَعُدُّونَ، وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ} [الحج: 45-48]، فهذه الآيات، وما شابهها، جاءت عامة، ذكرت قرونا كثيرة في أزمنة مديدة في التاريخ، الجامع بينها الهلاك والإبادة، بعدما كانت عامرة تتمتع بنعم الله؛ قصورا وجنات وأنهارا، ومالا وبنين، فصارت بعد ذلك أطلالا خاوية، وبير معطلة، كل ذلك بسبب الظلم وانتشاره بين العباد.

ذكر الله ذلك للأمة تنبيها وتحذير من الانزلاق إلى مهاوي الظلم والاستبداد فيحقيق بها ما حاق بمن سبقها، ذلك أن سنن الله جارية بلا محاباة، وقد ذكرنا سابقا بأن "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"، وهو ما يفهم من قوله تعالى في الآيات السالفة {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ}، فهل من معتبر؟.

كما حفظ لنا القرآن مصارع أمم ودول وحضارات بعينها، كفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [التوبة: 70]، كلهم أصبحوا أثرا بعد عين، وعبرة لمن يعتبر {فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: 40]

فقوم عاد استكبروا في الأرض بغير الحق {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: 15]، فكانت النتيجة أن أرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية، لم تترك لهم من باقية.

وأما قوم ثمود فكانوا يتخذون من سهول الأرض قصورا وينحتون الجبال بيوتا، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وكذبوا نبيهم صالحا، {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: 77]، فكانت النتيجة أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: 78]

وأما فرعون فقد اغتر بملكه وسلطانه، {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24]، فطغى في البلاد وأكثر فيها الفساد، وسفك دماء بني اسرائيل، فكان {يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} [القصص: 4]، فكانت النتيجة ما قاله الحق سبحانه: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [القصص: 40].

يقص علينا القرآن الكريم نماذج كثيرة للظالمين المستكبرين في الأرض بغير الحق، المكذبين لدعوات الأنبياء والمرسلين، كقوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وغيرهم كثير، والذين حق عليهم القول، بعد إمهالهم وإقامة الحجة عليهم، فلما جاء أجلهم قطع الله دابرهم، قال تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مُوَعِدًا}{[الكهف:59]، لأن من سنة الله أيضا أنه يمهل الظالم ولا يهمله، كما قال: {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[يونس: 49]، وفي الحديث: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"¹⁶.

وقد أكد المؤرخ الحكيم ابن خلدون هذا القانون الثابت في انهيار الأمم والحضارات بسبب الظلم، من خلال استقرائه للقصص القرآني، مع تجارب التاريخ البشري، القريب منه والبعيد، فخلص إلى هذه القاعدة الذهبية "الظلم مؤذن بخراب العمران"؛ ثم بيّن في شرح هذه القاعدة كيف يحصل هذا الخراب فقال: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأموالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت أموالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عامّا في جميع أبواب المعاش، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالأمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونفّاق أسواقه، إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابدغرت [تفرقت] الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة"¹⁷.

وإذا نظرنا إلى ما ينتج عن الظلم وما يؤول إليه من خراب العمران أدركنا الحكمة المقصودة من تحريمه شرعا، كما يؤكد ذلك مؤرخنا الحكيم بقوله: "واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهما، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر"¹⁸.

¹⁶- أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: {وكذلك أخذ ربك القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}[هود:102]، رقم 4686.

¹⁷- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق أبو عبد الرحمن وائل حافظ محمد خلف، دار العقيدة- الاسكندرية، مصر،

ط 1429/1 هـ-2008م، ص 302-303.

¹⁸- المصدر نفسه ص 304.

المبحث الثالث: ثنائية التوسط والترف في قوة الأمم والحضارات أو انحلالها

يَعْتَبِرُ الْإِسْلَامُ التَّمَتُّعَ بِالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، أَكْلًا وَشَرِبًا وَلِبَاسًا وَمَسْكَنًا وَغَيْرَهَا، فَطَرَةً فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} {آل عمران: 14}، إلا أنه لم يُطْلَقِ الْعِنَانُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ، بَلْ هَدَيْهَا وَوَجَّهَهَا بِمَا يَتِمَّاشَى مَعَ الْهَدَفِ مِنْ وَجُودِ الْإِنْسَانِ وَوُضُوفِهِ الْإِسْتِخْلَافِيَّةِ.

وإن أهم توجيه لهذه الغرائز هو التزام منهج التوسط والاعتدال في التعامل معها، وهو منهج تميز به الإسلام في كل أحكامه، فلا غلو ولا حرمان، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} {الفرقان: 67}، وقال أيضا: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} {الأنعام: 141}، وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى أن ترشيد الإنفاق والاستهلاك سنة إسلامية حميدة، سواء في المأكل، أو المشرب، أو في الملابس، أو في المسكن أو في أي جانب من جوانب الحياة، مستشهدا على ذلك بنصوص كثيرة من القرآن والسنة¹⁹.

أما إطلاق العنان لهذه الغرائز والشهوات فإسراف وترف يؤدي إلى الطغيان ونكران النعمة، ولذلك ذمه الشرع في نصوص كثيرة، واعتبره طريقا لهلاك الأمم والحضارات.

وقد ورد لفظ الترف في القرآن الكريم في مواضع ثمانية هي:

1- وقوله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} {سبأ: 34-35}.

2- وقوله عز وعلا: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} {الزخرف: 23}.

3- وقوله عز من قائل: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} {المؤمنون: 33}.

4- وقوله عز في علاه: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ الْحِنثِ الْعَظِيمِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمِتْرَفُونَ وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} {الواقعة: 45-48}.

5- وقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} {هود: 116}.

6- قوله سبحانه: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا} {الإسراء: 16}.

¹⁹- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط 1/1415 هـ-1995 م، ص 217 وما بعدها

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

7- وقوله أيضا: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 11-13].

8- وقوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ، لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ} [المؤمنون: 64-65].

فالأيات الأربع الأولى (1-2-3-4) تربط الترف بالكفر وتكذيب المرسلين وإنكار البعث والنشور، مبررين ذلك بتقليد الآباء والأجداد، والحقيقة أن المترفين أبعد الناس عن الاستجابة لدعوة الرسل والأنبياء والمصلحين، فما بعث الله رسولا إلا سارعوا قبل غيرهم إلى تكذيبه وإذائته، وهي سنة ماضية، يدفعهم لذلك بطر النعمة والانغماس في الملذات والشهوات، فيقلبون الحقائق ويزيفونها، ويستخفون بعقول أتباعهم، قائلين: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}، وحقيقة الأمر أنهم المستفيدون من بقاء الوضع على ما هو عليه، لذلك كانوا ضد كل دعوة إلى إصلاح، وذلك أن الترف كما قال سيد قطب "يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة وبغشها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور. والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغريهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ}"²⁰.

والآيات الأربع الأخيرة (5-6-7-8) تربط الترف بالظلم والفساد في الأرض، وفسق الأمراء والكبراء، وسكوت المصلحين، فالأمة التي يدب إليها داء الترف تفسد أخلاقها وينتشر فيها الظلم والفساد والفسوق وغيرها من الرذائل، فتتسلل إليها عوامل الانهيار، فتستحق العذاب والدمار، وهي سنة ثابتة في تاريخ الأمم والحضارات، كما تدل على ذلك الآية: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا}، لذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من هذا المصير فقال: (فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوا فيها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)²¹، وفي حديث آخر قال: (سيصيب أممي داء الأمم، قالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: الأشرُّ والبَطْرُ، والتَّكَاثُرُ والتَّشَاخُنُ في الدُّنْيَا، والتَّبَاغُضُ، والتَّبَاغُضُ والتَّحَاسُدُ حتى يكون البغي)²².

إن الترف مفسد للفرد؛ لأنه يشغله بشهوات بطنه وفرجه، ويلهبه عن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ولأنه يقتل فيه روح الجهاد والجد والخشونة، ويجعله عبدا لحياة الدعة والرفاهية. وهو مفسد للجماعة، منذر بانهيائها، ولهذا قرنه القرآن الكريم بالظلم والإجرام، وسر ذلك أن الأقلية المترفة إنما تسرق بترفها حقوق الأكثرية المحرومة ظلما، وتسمن على حساب هزالتها إجراما، ومن هنا كان الترف في نظر القرآن من أظهر أسباب الانحلال الاجتماعي، والتدمير المعنوي للأمة، ولا سيما إذا كثرت المترفون، أو أصبحوا أصحاب السلطة²³.

²⁰- في ظلال القرآن 5/2910.

²¹- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدر رقم 4015. ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب رقم 2961.

²²- أخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب البر والصلة رقم 7311، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

²³- ينظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي ص 226.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ولقد كان للمؤرخ الحكيم ورائد علم الاجتماع العلامة ابن خلدون - بما حباه الله من نظرة قرآنية وتجربة تاريخية- وقفات مع الترف وما ينتج عنه من انهيار العمران، ففي فصول كثيرة من مقدمته، اعتبر الترف والمجد والدعة والسكون من طبيعة الملك، تنتقل به الأمة من عهد البداوة والخشونة وضرورات العيش إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والأثنية، فتكثر عوائدهم ونفقاتهم، فيؤثرون الراحة على المتاعب، فيؤول بهم الترف إلى تحلل الأخلاق وفسادها، وركود الهمة، وانكسار العصبية، فينعكس ذلك على الدولة فيصيبها الهرم وتُشرف على الفناء²⁴.

ولنا في التاريخ نماذج كثيرة من الأمم والحضارات التي كان الترف سببا في سقوطها وزوالها، فأصبحت أثرا بعد عين، فيذكر التاريخ الإسلامي أن دولا كالأُمويين والعباسيين والأندلسيين وغيرهم، قد تهاوت وسقطت بسبب الترف.

ففي آخر دولة الأمويين انغمس الملوك في الترف انغماسا كبيرا، فذهبت عزتها وانفلت حبلها، يقول ابن خلدون "ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابها من الترف فانقضوا، وجاء بنو العباس"²⁵.

وكان من المفترض أن يستفيد العباسيون من أخطاء سلفهم، لكن الترف قد أغراههم، فكان له الأثر البالغ في إضعاف دولتهم أيضا، حيث تسرب إليها تدريجيا حتى بلغ غايته بسقوطها أمام التتار سقوطا مخزيا، فقد كانت دولتهم "مليئة بالترف والإخلاق إلى الأرض، والرضا بمباهجها، والتوسع في ذلك توسعا عظيما، إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا في بناء القصور ذات الأواوين الضخمة، وتفننوا في البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأواني، وفي الطعام والشراب، كما تألقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب، كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان والشطرنج والبرد والصيد بالبزة، والصقور والشواهين والكلاب والفهود، وهذا يدل على الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والقادة، وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء والكتاب والمغنيين والعلماء. وأما الشعب فيكده ويعيش في بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد ... وكان هذا البذخ وما صاحبه من اعتصار الشعب من الأسباب في كثرة الثورات على العباسيين، ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بني العباس، لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم. فكان من الطبيعي -والحال هكذا- أن تسقط دولة بني العباس أمام زحف المغول"²⁶.

ونقل الدكتور الصلابي، في أسباب سقوط غرناطة والأندلس، عن شوقي أبي خليل قوله: "إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخشنة الجافية، وغدا التهلك والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللالئ. لقد دبست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف

²⁴- مقدمة ابن خلدون ص 174 وما بعدها .

²⁵- المصدر نفسه ص 312.

²⁶- دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار للدكتور علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة- بيروت لبنان، ط 1/1430هـ-2009م، ص

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُونَ في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفاء للحرب والمصاولة²⁷.

وما قيل عن أثر الترف في انهيار الدول الإسلامية يقال عن غيرها، فقد كان للترف الأثر الكبير في سقوط الحضارات الفارسية، والرومانية، واليونانية وغيرها، وفي هذا يقول غوستاف لوبون "وإذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يذكرها التاريخ بلا استثناء، لا فرق في ذلك بين الرومان أو العجم أو غير هؤلاء وهؤلاء، وجدنا أن العامل القوي في انحلالها تغير طراً على مزاجها العقلي ترجع علته إلى انحطاط الخلق، ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الذكاء في قومها.. إذا بلغت الأمة ذروة الحضارة والقوة فأمست في مأمن من غارة الجار ومالت إلى التمتع بنعمة السلام والمعيشة الراضية التي هي بنت اليسر ماتت فضائلها الحربية وتجدد لها من الحاجات بقدر ما زاد في حضارتها. وتمكن حب الذات من النفوس ولم يعد من همها إلا سرعة التمتع بالخيرات التي نالتها على عجل. فتتصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة، وتضيع في الناس الفضائل التي كانت سببا في عظمة الأمة، وحينئذ يغير عليها جاراها من الأمم المتبربرة أو التي هي في حكمها، لأنه إن كان أقل منها حضارة فهو أشد خيالا ثم يهدم حضارتها ويقدم أطلالها حضارة أخرى. ذلك ما جرى للرومانيين والفرس..²⁸

²⁷- دولة الموحدين للدكتور علي محمد محمد الصلّابي، دار البيارق للنشر- عمان، ص 294.

²⁸- سر تطور الأمم للدكتور جوستاف لوبون، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، تقديم أحمد زكريا الشلق، المجلس الأعلى للثقافة، ط1/2006م،

المبحث الرابع: ثنائية الصلاح والفساد في بقاء العمران أو اندثاره

لقد ربط القرآن الكريم بين العمران والإيمان والعمل الصالح في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور:55]، وحذر من السعي لإفساد العمران على لسان الملائكة في مشهد الاستخلاف ذاته، حيث {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة:30]، لأن بالفساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، ومنه سفك الدماء، يكون الإنسان خرج عن وظيفة الاستخلاف التي كلفه الله بها واستخلفه من أجلها وهي عمران الأرض وتحقيق العبودية فيها لله وحده، لذلك كان الزوال مآل كل الأمم التي سعت في الأرض فسادا، وهي سنة ماضية؛ فأين قوم عاد، وقوم ثمود وقوم فرعون وغيرهم؟ كلهم آل عمرانهم إلى زوال وخراب، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ} [الفجر:6-14].

ومن سنة الله أيضا التدافع بين المصلحين والمفسدين، فالمترفون بطبيعتهم ميالون كما رأينا إلى الإفساد في الأرض، ومهمة المصلحين، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين، التصدي لهم ومنعهم من ذلك، فإن سكت المصلحون أو لم يكن بمقدورهم إيقاف عملية التدمير، عم الفساد وكان الهلاك، قال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَمْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ} [هود:116-117]، فهذه الآية تكشف كما قال سيد قطب "عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صورته، فيجد من ينهض لدفعه، هي أمة ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحقق عليها؛ إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال.. والاختلال!

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورته.. إنهم لا يُؤدُّون واجبه لهم ولدينهم فحسب، إنما هم يُحوِّلون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع"²⁹.

²⁹- في ظلال القرآن 4/1933.

المبحث الخامس: ثنائية الوحدة والفرقة ودورهما في رص بنيان العمران أو انهياره

أمر الله تعالى في كثير من الآيات بالاجتماع والاتلاف ووحدة الكلمة ورص الصفوف ونبذ التنازع والفرقة والاختلاف، فقال سبحانه وتعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:103]، وقال عز وجل: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون:52]، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)³⁰، وفي حديث آخر قال: (عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة)³¹. وقال أيضاً: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)³².

فلو رجعنا إلى حال المدينة (يثرب)، كيف كانت قبل الإسلام؟ كانت إثنيات وقوميات وأديان وطوائف مختلفة ومتناحرة، لها تاريخ طويل من الحروب والصراعات، فاستطاع الإسلام أن يحقن الدماء ويوحد الكلمة تحت دستور واحد ينظم أهل المدينة في إطار وحدة الأمة ودولة مشتركة تضمن حسن التعايش وصيانة الحقوق، هكذا تبني الأوطان ويشيد العمران، ويسود الأمن والاستقرار.

فوحدة الأمة واجبة وضرورية لمواجهة كل التحديات والأخطار التي تحدق بها، ففي الحروب دعا الله تعالى المؤمنين إلى رص صفوفهم فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:4]، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة فقال: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال:46]، وفي غزوة أحد لما تنازعا فشلوا وانهمزوا، قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران:152].

والمتصفح لتاريخ الأمم والحضارات يرى أنه ما استطاعت أمة الانتصار إلا بالوحدة ورص الصفوف، وما فشلت وانهمزت إلا بالاختلاف والفرقة، فهذه سنة ماضية لا تتخلف ولا تحابي أحداً، نبه إليها من لا ينطق عن الهوى في قوله: (لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)³³، وفي رواية: (فأهلكوا)³⁴، وفي حديث آخر: (فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف)³⁵.

³⁰- أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم 481. ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم 2585.

³¹- أخرجه الترمذي في أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم 2165.

³²- أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والهائم، رقم 6011. و مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم 2586.

³³- أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي، رقم 2410.

³⁴- أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب اقرؤوا القرآن ما انتلفت عليه قلوبكم، رقم 5062.

³⁵- أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب التفسير رقم 2885.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وقد بين الدكتور زيدان علة هلاك الأمم بسبب الاختلاف المذموم فقال: "وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة، كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجزئ العدو عليها فيطمع فيها فيهاجمها، ويحتل أراضها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسح شخصيتها، وفي ذلك انقراضها وهلاكها"³⁶.

والمتمأمل في التاريخ الإسلامي يدرك بأن الاختلاف كان سببا من الأسباب في ضياع الدول الإسلامية المتعاقبة وهلاكها واندثارها، وقد أثبت هذه الحقيقة العلامة ابن خلدون حيث ذكر "أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها"، ثم تحدث عن الانقسامات المتوالية التي حدثت للدولة العباسية، والدولة الصنهاجية بالمغرب، ودولة الموحدين، وملوك الطوائف بالأندلس، وكيف انقسمت هذه الدول إلى دولتين فأكثر بسبب الخلاف والفرقة³⁷.

ويذكر الدكتور محمد الصلابي أن الاختلاف أيضا كان من بين أسباب ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها، حيث قال: "لقد ابتليت الدولة العثمانية، خصوصا في أواخر عهدها، بالاختلاف والتفريق بين الزعماء والسلطين، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)، وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها"³⁸.

وما قيل عن الدولة العثمانية يقال عن الدولة الأيوبية، حيث بدأ الخلاف في الأسرة الأيوبية مباشرة بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي³⁹، وكذا الدولة الأندلسية، حيث الاختلاف والفرقة بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية قد وصل إلى حد الاقتتال والتحالف مع النصارى ضد إخوانهم⁴⁰.

وحال الأمة اليوم وما تعيشه من تشردم لا يقل سوءاً عن سابقه، أمام عالم تسوده الاتحادات والتكتلات، فلذلك نحن اليوم أحوج إلى الاعتبار بسنن الله، فنتفادى الهلاك بتفادي أسبابه، ومنها الاختلاف المذموم الذي يمزق جسم الأمة ولا يجمعه.

³⁶- السنن الإلهية ص 139 .

³⁷- ينظر مقدمة ابن خلدون ص 308 وما بعدها.

³⁸- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط 1/1421هـ-2001م، ص

535.

³⁹- ينظر دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار ص 296.

⁴⁰- ينظر دولة الموحدين ص 296-297.

خاتمة:

لقد تجولت في هذا البحث العلمي بين كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، وكتاب الله المنظور (التاريخ الأمم والدول والمجتمعات) في موضوع ذي أهمية كبرى، يتوقف عليه حاضر الأمة ومستقبلها، وهو موضوع العمران في القرآن بين مقومات البناء وأسباب الأفل، فخلصت فيه إلى أن القرآن الكريم يعد الإطار المرجعي للسنن الكونية عند المسلمين، بما قصه علينا من قصص الأمم السالفة صعودا وهبوطا؛ مما يمكننا من استخلاص مقومات النهوض الحضاري والبناء العمراني، وكذا معرفة أسباب أفول الأمم وانهارها، ومقارنتها مع التجارب التاريخية سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، خاصة والأمة تتطلع إلى غد الإسلام الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يتطلب منا دراسة القرآن دراسة عميقة تمكن من استنباط هذه السنن والنواميس الكونية الجارية بلا محاباة، مع الاستفادة من العلوم التي تُعنى بهذا الفن كعلم التاريخ وعلم الاجتماع، وهي مسألة، وإن كُتبت فيها بعض العلماء والباحثين، إلا أنها لاتزال تحتاج إلى بحث وتدقيق أكثر، وهي رسالة إلى الباحثين المجددين، أفرادا ومؤسسات، أن يهبوا إلى القيام بهذا العمل، وبحثنا هذا الذي بين أيدينا يدخل في هذا المضمار كجهد مقل نسأل الله تعالى أن ينفع به.

والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن القيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية- بيروت، ط 1/1411هـ-1991م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية، ط 1/1418هـ.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط 1/1422هـ.
- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاک، أبي عيسى الترمذي (ت: 279هـ)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط 2/1395هـ - 1975م.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط 2/1384هـ-1964م.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط 1/1421هـ-2001م.
- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط 1/1413هـ-1993م.
- السنن الإلهية في السيرة النبوية للدكتور أبي اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية.
- السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري، أبي محمد جمال الدين (ت: 2123هـ)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- المستدرک علی الصحیحین لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، الحاكم النيسابوري (ت: 405هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1/1411هـ-1990م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم = صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1990م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط 1415/1 هـ-1995م.
- دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار للدكتور علي محمد محمد الصلّابي، دار المعرفة- بيروت لبنان، ط 1430/1 هـ-2009م.
- دولة الموحدين للدكتور علي محمد محمد الصلّابي، دار البيارق للنشر- عمان.
- سر تطور الأمم للدكتور جوستاف لوبون، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، تقديم أحمد زكريا الشلق، المجلس الأعلى للثقافة، ط 2006/1م.
- فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري لعادل بن بوزيد عيساوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1433/1 هـ-2012م.
- في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:1385)، دار الشروق-بيروت-القاهرة، ط 1412/17 هـ.
- كيف نتعامل مع القرآن للشيخ محمد الغزالي، في مدارس أجازها الأستاذ عمر عبيد حسنه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2005/7م.
- مجموع الفتاوى لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (ت:728هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط 1416 هـ-1995م.
- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت:606هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط 1420/3 هـ.
- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق أبو عبد الرحمن وائل حافظ محمد خلف، دار العقيدة- الاسكندرية، مصر، ط 1429/1 هـ-2008م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فلسفة العمران في القرآن

د. أحمد صالح علي بافضل

رئيس مركز البحوث ودراسات التنمية جامعة القرآن والعلوم الإسلامية

اليمن

asayht@hotmail.com

ملخص الدراسة:

تناولت الدراسة التوجيه القرآني لسير البشرية نحو العمران فيما يتعلق بالموجهات والخلفية التي يستند إليها القائم بالعمران. واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي. وهدفت الدراسة إلى إيضاح الخلفيات التي وضعها القرآن الموجهة لسير مريد العمران، كتابة بحث يضم بين دفتيه ما يتعلق بخلفيات السير نحو العمران في القرآن الكريم. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج منها: تناول القرآن العمران طلباً وإعطاء لبعض أرضيته، جعل القرآن معطيات الوحي ومخرجات عقول البشر هي المرجع الرئيس للقائم بعملية العمران، جعل القرآن هناك إطاراً عاماً يتمحور فيه القائم بالعمران وذلكم الابتلاء، وحدد له أغراضاً إجرائية تراعى؛ ومنها: الإصلاح، والإعمار، والرشد، يوجه القرآن للتوافق والتناغم بين عدد من المتقابلات: الدنيا والآخرة، المثالية والواقعية، الغيب والشهادة. وخرجت الدراسة بتوصيات أهمها: دراسة موضوع العمران في القرآن؛ في جزئين متبقيين بعد فلسفة العمران؛ وهما: سير العمران، وتطبيقاته على الواقع التنزيلي، زيادة الدراسة والتمحيص في بعض القضايا التي أثارها البحث؛ ومنها: علاقة الدنيا والآخرة إجرائياً، وإطلاق القرآن للإبداع الحضاري.

Summary of study:

The study dealt with the Qur'anic guidance to human progress towards urbanization with regard to guidance, and the background on which the worker is based, the researcher used analytical descriptive approach. The study targeted the backgrounds developed by the Quran to the builder, writing a search between a side, what is related to urban background in the Quran, the study has reached results: The Quran spoke about urban request and give some of his floor,

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

the Quran made the results of revelation and the results of the minds of humans is the main reference for a person who is carrying out the urbanization make the Holy Quran There is a public domain in which urbanization and It is a calamity, It has identified procedural purposes; You must care, including: Reform, reconstruction, and guidance, directs the Quran for consensus and harmony between a number of things, the world and the hereafter, idealism, realism, unseen and testimony. The study came out with tips. The most important: Study the subject of urbanization in the Holy Quran; in two parts remaining after the philosophy of urbanization; the two: The progress of urbanization, and its applications on the current reality, increased study and scrutiny in some cases raised by the research; Including: The relationship of the world in the Hereafter, and the launch of the Holy Quran for urban creativity.

مقدمة:

أنزل الله . تعالی . كتابه ليكون للعالمين هاديا ونورا، ينير دروب معاشهم، ويستضيئون بما يبعدهم عن حياة الضنك والعوز، ومع حالة البشرية في تدهورها وتميها في سبيل الوصول إلى بر الأمان، حريٌّ أن تبذل المهرج لاستكشاف أضواء طريق الطمأنينة والرجد العام، من كل مورد يمكن أن ينفع، وأعظم النفع وأكمله لا شك أنه من خالق الكون وباريه . سبحانه . فأردنا أن نسهم في إيضاح ما في كتاب الله مما يتعلق بالعمران والتنمية علنا نقدم ما يفيد الأمة والإنسانية في تخطيها عبر هذا العنوان: " فلسفة التنمية في القرآن " ونعني بالفلسفة الخلفية الموجهة للسير .

موضوع البحث:

دراسة تحاول إيراد التوجيه القرآني لسير البشرية نحو العمران فيما يتعلق بالموجهات والخلفية التي يستند إليها القائم بالعمران .

أهداف البحث:

1. إيضاح الخلفيات التي وضعها القرآن الموجهة لسير مريد العمران .
2. كتابة بحث يضم بين دفتيه ما يتعلق بخلفيات السير نحو العمران في القرآن الكريم .
3. المساهمة في إيضاح النظرية العامة للتنمية والعمران في الإسلام .

مشكلة البحث:

القرآن موجه للبشرية كلها فيما يوصلها للنجاح في الدنيا والآخرة، وما يعرفها بعالم الغيب والشهادة، وما يقيمها صالحا في أمورها الدينية والدنيوية، وما يرشدها كلها على مر العصور والأزمان إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فمع كل هذه الثنائيات إلى أي حد يكون توجيه القرآن للإنسان في عمارة الكون وتشيد البنيان، وتحسين الوسائل وأنماط العيش المتحضر؛ وهذا يتوجه إلى بناء الدنيا وعمارتها .

و يمكن كتابة عدد من الأسئلة التي يحاول البحث الإجابة عنها:

1. هل يتناول القرآن قضية عمارة الكون وبناء الحياة المتحضرة ؟
2. إلى أي مدى تناول القرآن قضية العمران ؟
3. كيف يتناول القرآن هذه القضية التي تختلف بحسب الزمان وهو يوجه بها البشرية في كل العصور والأزمان، والحالات ؟

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي التبعي والوصفي والتحليلي حيث يسلك البحث منهج التتبع والاستقراء لما ورد في القرآن مما يتعلق بالعمران، ثم يوصفها وفقاً لمصطلحات ومفاهيم العمران والتنمية، ثم يحللها بأبعادها ودلالاتها.

الدراسات السابقة:

من الدراسات المقاربة لبحثي:

1. دراسة: فلسفة العمران الحضاري من منظور قرآني للدكتور محمد محمود كالمو، مجلة مقاربات العدد الأول 2020م.

ومما تميز به بحثي:

✓ إيراد الخلفيات التي تمثل أبعاد رئيسة في موضوع العمران: مثل الدنيا والآخرة، والتسبب والتأييد الإلهي وهكذا.

✓ المقاربة مع قضايا مطروحة في عصرنا مثل الندرة والوفرة.

2. القرآن والعمران قراءة في المفاهيم المؤسسة، وهو بحث ليحيى رمضان، نشر بموقع الملتقى الفكي للإبداع <http://www.almultaka.org/site.php?id=768&idC=1&idSC=1>

ومما تميز به بحثي عنه:

3. إيراد الخلفيات التي تمثل أبعاد رئيسة في موضوع العمران: مثل الدنيا والآخرة، والتسبب والتأييد الإلهي وهكذا.

4. المقاربة مع قضايا مطروحة في عصرنا مثل الندرة والوفرة.

5. المعالجة العميقة لقضايا الإنسان وعلاقاته.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

التمهيد: مفاهيم البحث:

العمران، الفلسفة.

المبحث الأول: الخلفية التي توجه السير نحو العمران:

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المطلب الأول: مرجعية القائم بالعمران.

المطلب الثاني: المغزى والغرض: ابتلاء، عمار، إصلاح.

المبحث الثاني: تناغم الحقائق الماثلة:

المطلب الأول: الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: المثالية والواقعية.

المطلب الثالث: الغيبيات والشهود. التأييد الرباني. موقعه وأثره.

المبحث الثالث: الأبعاد التنموية:

المطلب الأول: الوفرة والندرة.

المطلب الثاني: عمل الإنسان وتصريف الخالق سبحانه.

المطلب الثالث: توسيع العمران والإبداع الحضاري.

المطلب الرابع: الإنسان غاية العمران وأداته.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

التمهيد: مفاهيم البحث: العمران، الفلسفة.

أولاً: مفهوم العمران :

العمران في اللغة من عمر يعمر عمارة وعمراناً؛ والعمران ضد الخراب، والتخريب هو الهدم⁽¹⁾.فالعمران في المدلول اللغوي: (البنيان وما يعمر به البلد ويحسن حاله بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدن)⁽²⁾.وقد اشتهر مصطلح العمران عن ابن خلدون ؛ وصرح بأنه الاجتماع البشري حين قال (الاجتماع البشري الذي هو العمران)⁽³⁾؛ وهذا الاجتماع البشري ينتج عنه . في تصوره . إقامة الحياة بكافة متطلباتها ومعايشها سواء في البداوة أو الحضرة؛ وذلك هو العمران حيث قال: (العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش .. ومن هذا العمران ما يكون بدوياً، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار⁽⁴⁾ وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضرياً، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدن)⁽⁵⁾.ومادة العمران قد وردت في قوله تعالى: {وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} ⁽⁶⁾.والآية دالة على البناء المادي؛ وهو المتبادر من لفظ العمران؛ وهذا ما قرره أحد الباحثين المعاصرين حين قال: (التعريف القرآني للعمران البشري: هو إسكان في منطقة معينة ,لهدف معين، يتطور مع الزمن إلى اجتماع بشري, يسوده الأمن و يتوفر على أسباب المعيشة)⁽⁷⁾.
غير أن استعمالنا هنا في بحثنا للفظ العمران على الجانب المادي والمعنوي.

مصطلحات مقارنة للعمران: التنمية:

⁽¹⁾ ينظر: ابن دريد، جمهرة العرب (2 / 387)، ط1، بيروت: دار صادر، وابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب (4 / 604.601)، ط 3، بيروت: دار صادر، 1414 هـ.

⁽²⁾ مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (2 / 627)، دار الدعوة.

⁽³⁾ ابن خلدون: عبد الرحمن الحضرمي، المقدمة ص 48، بيروت: دار الفكر، 1424 هـ. 2004 م.

⁽⁴⁾ أي الأماكن التي يُطلب فيها الكلاً والماء في الصحراء الخالية : فالقفار الخلاء من الأرض، والمنتجع المكان الذي يُطلب فيه الكلاً؛ ينظر: ابن منظور: لسان العرب (5 / 110) و (8 / 347).

⁽⁵⁾ ابن خلدون، المقدمة ص 51.

⁽⁶⁾ (هود: 61).

⁽⁷⁾ توني: المهندس إسماعيل، العمارة والعمران في ظلال القرآن ص 14، يُنظر على هذا الرابط

<http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=29352>

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

التنمية لغة ترجع إلى التكاثر والزيادة، وكثرت تعريفاتها جدا، ومن أوضحها وأسهلها تعريف الإيسيسكو حين قالت: (تعني "تنمية"، بكل بساطة، التمكن من الوصول باستمرار إلى مستوى عيش جيد من الناحيتين المادية، والمعنوية)⁽⁸⁾.

ومن تعريفات التنمية الشاملة: (السياسات والبرامج والأعمال الموصلة لأقصى إمكانات الصلاح والانتفاع بالحياة حاضراً ومستقبلاً)⁽⁹⁾.

وعلى هذا فالتنمية مقاربة لمعنى العمران، إن لم تكن مرادفة له، حتى اقترح بعض الباحثين أفضلية استبدال لفظ التنمية بالعمران، وأن ذلك يتوافق مع النظرة الشرعية ومصطلحاتها وصيغها⁽¹⁰⁾، ونحن نرى أن لفظ العمران أنصع ظهوراً وأبعد عن اللبس فهو يحدد الهدف، وليس السير كما هو المتبادر من لفظ التنمية.

ثانياً: الفلسفة:

أصل كلمة الفلسفة لفظة يونانية " فيلاسوفيا" وتعني حب الحكمة⁽¹¹⁾.

والفلسفة ترجع بشكل عام إلى معرفة عمق الأشياء، وفهم ما وراءها وخلفياتها وتفسير وجودها (قد حاول هؤلاء الفلاسفة الأوائل أن يكتشفوا التركيب الأساسي للأشياء، وكذا طبيعة العالم والواقع)⁽¹²⁾.

ومن خلال هذا البعد اشتهر استعمال كلمة الفلسفة في خلفيات الواقعة أو الظاهرة أو الموقف الذي يتم معالجته، ولذا فعندما نريد معرفة العمران دراسة قرآنية، فحري بنا أن نعرف الخلفيات والأضية التي يُعرضها القرآن الكريم في موضوع العمران، وهذا ما عيناه بفلسفة العمران في القرآن، والخلاصة نعني بالفلسفة في بحثنا. الخلفية الموجهة للسير والمبينة لكنّه، فلا تشمل الأعمال المطلوبة أو التعريف به، أو

(8) دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية وخصوصيات العالم الإسلامي ، إعداد : المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة. الإيسيسكو ، متاح على هذا الرابط <http://iefpedia.com/arab/?p=5006>.

(9) هذا تعريف التنمية كعملية ويقابله تعريف التنمية كحالة نرمي الوصول إليها، ويمكننا تعريف التنمية كحالة الوصول لأقصى إمكانات الصلاح الإنساني والكوني والأرضي وما فيهما؛ ينظر: بافضل: أحمد صالح، آليات التنمية في الشريعة الإسلامية ص 28، ط 1، تريم: تريم للدراسات والنشر، 1441هـ.2021م.

(10) ينظر التنمية الزراعة ، مقال مجلة الوعي <http://www.alwaei.com/site/index.php?cid=438>.

(11) تُنظر: الموسوعة العربية العالمية (17/ 441)، ط 1، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة، 1416 هـ.1996م.

(12) الموسوعة العربية العالمية (17/ 441).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الإجراءات والوسائل الموصلة ليه، كما لا نعني بالفلسفة العلم المعروف، ومما نستأنس به في مسلكنا قول المعجم الوسيط أن (الفلسفة) دراسة المبادئ الأولى⁽¹³⁾

وهو ما يقرب مما يمكن الإطلاق عليه بفلسفة التنمية⁽¹⁴⁾.

(13) مصطفى، وآخرون، المعجم الوسيط (2/700).

(14) يُنظر: عمر: إبراهيم أحمد، فلسفة التنمية رؤية سلامية ص 14، ط 2، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1413 هـ. 1992 م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الأول: الخلفية التي توجه السير نحو إقامة العمران:

المطلب الأول: مرجعية القائم بالعمران:

من خلال الطرح القرآني؛ نجد هناك مسلكان لمرجعية القائم ببناء العمران، يستند إليهما، ويكونان مرجعيات السير؛ وهما: معطيات الوحي، ومخرجات عقول البشر وتجارهم.

أولاً: معطيات الوحي:

الوحي من المولى سبحانه وتعالى وما جاء عن نبيه . صلى الله عليه وسلم .، فما جاء عن الله مطلوب تنفيذ وكذلك ما جاء عن النبي . صلى الله عليه وسلم .⁽¹⁵⁾ قال تعالى : {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7]

ثانياً: مخرجات عقول البشر:

أعطى القرآن للعقل البشري مساحة يجول فيها ويبرز ما عنده، مما علمه أو أدركه بحسه أو بتجاربه.

قال تعالى {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43]

وأهل الذكر تشمل كل مجالات المعرفة وعلومها، قال السرخسي (وإنما يرجع إلى معرفة كل شيء إلى من له بصر في ذلك الباب، كما في معرفة القيمة، والأصل فيه قوله تعالى {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43])⁽¹⁶⁾.

بل قد صرح الكاساني بكون الأطباء والبياطرة هم من أهل الذكر في مجالهم، قال .رحمه الله . متحدثاً عن ثبوت العيب - : (وإن كان لا يقف عليه إلا الأطباء والبياطرة فيثبت ، لقوله عز وجل : {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} وهم في هذا الباب من أهل الذكر فيستلون)⁽¹⁷⁾.

فالاستفادة من الوحي والبشر إنما تكون من المسلكين معاً.

(15) وبالطبع بحسب القواعد التي تبين كيفية الاستفادة ودرجة الإلزام ونحوها.

(16) السرخسي: محمد ابن أبي سهل، المبسوط (13 ص: 110)، بيروت: دار المعرفة، 1414هـ-1993م.

(17) الكاساني: علاء الدين أبو بكر بن مسعود ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (278/5) ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1982 م .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وما أحسن قول الدكتور عبد الكريم بكار: (اقتضت حكمة الابتلاء أن يملكنا الله جل وعلا الأرضية والمنهجات والأهداف الكبرى، وان يترك لنا البحث عن الأساليب والوسائل وتقسيم المراحل وإقامة الموازنات ومراجعة الخطوات ورسم البيانات وكل ما من شأنه التفاعل ضمن الإطار العام، والمعالم الأساسية التي زودنا بها)⁽¹⁸⁾.

وبالطبع فإن الوحي هو الحقيقة المطلقة فيقدم، فإن لم يوجد ما يصرح به في الحالة الخاصة التي نريد معالجتها فيفسح المجال للاجتهاد البشري ففي الحديث (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» ، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» ، قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا ألو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»⁽¹⁹⁾.

المطلب الثاني: المغزى والأغراض التي يوجه بها القرآن الكريم مقيم العمران:

يجد الناظر أن هناك غرضين؛ غرض عام، وأغراض إجرائية، ونوردها في الآتي:

أولاً: غرض إيطاري عام للعمران. الابتلاء.:

يندرج العمران تحت إطار عام، وذلكم هو الابتلاء.

والابتلاء: في الأصل هو التكليف بالأمر الشاق من البلاء ويستلزم الاختبار⁽²⁰⁾، فيصير الإنسان في وضع معين أو مأموراً بشي محدد فيأتي الاختبار والتمحيص لهذا الإنسان في فعل اللائق السليم أو النكوص عنه.

فالابتلاء (سنة شاملة تشمل جميع أفراد الأمة دون استثناء أو محاباة لأحد حتى الأنبياء، . كما أنها . لا تتوقف في زمن دون زمن أو مكان دون مكان، فحياة الإنسان كلها ابتلاء على هذه الأرض)⁽²¹⁾.

(18) بكار: عبد الكريم، مدخل إلى التنمية المتكاملة. رؤية إسلامية. ص 27، ط 2، دمشق: دار القلم، 1422 هـ. 2001م.

(19) رواه أبو داود، سنن أبي داود (3/303)، باب اجتهاد الرأي في القضاء، وهو حديث يحتج به لتلقي الأمة له بالقبول كما قال الخطيب البغدادي؛ ينظر كتابه: الفقيه والمتفقه (1/472)، ط 2، السعودية: دار ابن الجوزي، 1421 هـ، وينظر في صحة الاحتجاج به: ابن القيم: محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/240)، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411 هـ - 1991م.

(20) الكفوي: أيوب بن موسى أبو البقاء، الكليات ص: 524، بيروت: مؤسسة الرسالة.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

فقال سير الإنسان في المطلوبات ومنها إعمار الأرض يجري وفق سنة الابتلاء والتمحيص الشخصي والأمة، سواء الفردي أو الأمة، فالتكليف يكون أيضاً للأمة كجماعة عامة.

وقد علق الشيخ محمد الغزالي على قوله تعالى {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية: 28) قال رحمه الله: (وكما يحاسب الفرد تحاسب المجتمعات والحضارات والأمم لتعرف أن تعاونها وتماسكها كان على شر، أو خير)⁽²²⁾.

فالابتلاء يرجع في الأصل إلى الاختبار بالطاعة، والانصباع بالعبودية⁽²³⁾.

ومن ثم تواجه الإنسان والأمم مواقف عدة في قالب الامتحان والاختبار، للسلوك الصائب .
فعملية العمران ما هي إلا حلقة من حلقات حياة الإنسان في الوجود، ومجالات العمران تمثل حلبة من حلبات تدافع البشر؛ في إيجاد الخير وإبعاد الشر، بما تتضمنه العملية من تحديات متنوعة، وأعمال متشعبة تستلزم تضحيات في النفس والمال والجهد.

ومن ناحية أخرى فمقصد الابتلاء يُعطي مُريد العمران دافعاً نحو التقدم، وتجاوزاً للصعاب.

فالابتلاء والتمحيص توطئة لمكان الاستقرار والحياة الحقيقية هو ما يعرضه القرآن الكريم، فالحياة الحقيقية لم تبدأ بعد؛ قال تعالى {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} (العنكبوت: 64)، فالآخرة هي الحياة المعبرة⁽²⁴⁾؛ وهي (دارُ الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة في الدنيا)⁽²⁵⁾.

لكن لا بد من التنبيه إلى أن الابتلاء لا يُنافي إمكانية الوصول لأقصى إمكانات التحضر.

ثانياً: أغراض إجرائية تُطلب من القائم بالعمران:

ومنها: الإصلاح، الإعمار، الرشد، كالاتي:

1. الإصلاح:

(21) الأنس: رجب نصر، سنة الابتلاء في القرآن الكريم ص 177 . 178، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية . نابلس، كلية الدراسات العليا، أصول الدين، 2007م.

(22) الغزالي: محمد، المحاور الخمسة للقرآن الكريم ص 159، ط5، القاهرة: دار الصحوة، 1421هـ. 2000م.

(23) ينظر: الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان (23/ 505)، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1420 هـ - 2000م.

(24) على حسب تعبير الفخر الرازي: محمد بن عمر : ينظر تفسيره: مفاتيح الغيب (76/ 25)، ط 3، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، 1420 هـ.

(25) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير 3/ 413)، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قال تعالى {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: 88]

فلا مكان للعبث فلذا ذم المولى جل وعلا قوماً فقال . سبحانه . {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} [الشعراء: 128] قال ابن كثير: (وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكروا عليهم نبيهم، عليه السلام، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتباع للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة)⁽²⁶⁾.

ومن باب أولى لا مكان للإفساد بغرض العمارة.

قال تعالى {وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77]

2. الإعمار:

يعني الإعمار التشييد الناجع، والبناء النافع، وعدم الهدم؛ وهو موضوع البحث كله.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني أن الإعمار هو أحد الأمور التي أوجد الله الإنسان لأجلها⁽²⁷⁾.

وجاء الأمر بالإعمار في قوله تعالى: {وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} (هود: 61).

فصيغة (استعمركم) فعل ماضي فيه معنى الطلب⁽²⁸⁾؛ يقول التابعي زيد بن أسلم . رحمه الله . (استعمركم): أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار⁽²⁹⁾.

3. الرشد:

فلا مكان للسرف، وفعل ما يُستفاد منه، فضلاً عما قد يُسبب أضراراً أو مساوئ.

قال تعالى: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام: 141]، وقال جل شأنه: {وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا} () إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: 26، 27]

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67]

ولا مكان كذلك للعمران غير المحتاج إليه.

(26) ابن كثير: إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (6/137)، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ.

(27) ينظر كتابه: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 82. 83، ط 1، القاهرة: دار السلام، 1428هـ. 2007 م.

(28) قال سيبويه . مبيناً أحد معاني استفعل .: (وتقول: استعطيت أي طلبت العطية، واستعنتبه أي طلبت إليه العتي. ومثل ذلك استفهمت واستخبرت، أي طلبت إليه أن يخبرني؟) سيبويه: عمرو بن عثمان، الكتاب (4/70)، ط 3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408 هـ - 1988 م.

(29) ينظر: القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (9/56)، ط 2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ - 1964م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قال تعالى {وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: 149]

فهم عمروا ليس استنفاعا بل بكونهم أَشْرِينَ بَطْرِينَ، (فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعبثا، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها)⁽³⁰⁾.

(30) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (6/156).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الثاني: تناغم الحقائق الماثلة:

يعرض القرآن لحقائق ماثلة متقابلة تواجه مريد العمران؛ ومن ذلك: الدنيا والآخرة، المثالية والواقعية، الغيبيات والشهادة.

المطلب الأول: الدنيا والآخرة:

العمران في الدنيا حيث يكون جهد الإنسان في البناء، غير أن الدنيا ليست في الحقيقة دار استقرار، وإنما هي ممر إلى الحياة الحقيقية. الآخرة..

قال تعالى {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} (العنكبوت: 64)، فالآخرة هي الحياة المعتمدة⁽³¹⁾؛ وهي (دارُ الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة في الدنيا)⁽³²⁾. ومن ثم فعمارة الدنيا هي لأغراض أخرى غير التمتع الحقيقي الذي أهم عناصره الدوام والاستمرار.

فإلى أي حد يوجه القرآن الكريم إلى التعاطي مع أي منهما. الدنيا والآخرة، وكيفية العمل وفق كونهما غرضي الإنسان.

ونتناول ذلك بإيراد عدد من الملامح للتعاطي بين الدنيا والآخرة، بحسب النظر القرآني؛ في الآتي:

1. قال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد: 20]
2. الدنيا هي مكان الاختبار وعمارتهما هو ما يطلب كابتلاء.
3. عمران الدنيا مطلوب لكي تتحقق الحياة وظيفتها من خالقها المتضمنة ما يجعلها حياة ابتلاء.

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: 7]

ويبقى السؤال إذن عن ماهية الربط بين الدنيا والآخرة ؟

الحقيقة أن (.. العدا بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبدل.. بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلاً. إنما هي عارض ناشئ من انحراف

(31) على حسب تعبير الفخر الرازي: محمد بن عمر؛ ينظر تفسيره: مفاتيح الغيب (76/25)، ط 3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420 هـ.

(32) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير 3/413)، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1422 هـ.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

طارئ! إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا. وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا⁽³³⁾.

فهو درب واحد ممتد، يقول الدكتور طنش رحمه الله: (الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا)⁽³⁴⁾.

بل هناك تكامل (في التصور القرآني للعلاقة بين الدنيا والآخرة ... حيث هناك . وحدة العلاقة بينهما، فلا دنيا بدون آخرة، ولا آخرة بدون دنيا، وهذا يُبين أنه من المستحيل إقصاء حياة وإبعادها عن الأخرى بالتبعات والنتائج)⁽³⁵⁾.

وحتى يمكننا فك عقدة الاشتباك . عملياً . في قضية الربط في النظر بين الدنيا والآخرة نورد الآتي:

أ- استخدام الدنيا وعمارتها بكل جهد وإمكانية فيما ينفع في الحال والمآل، فهذا سيصب بالطبع في بوتقة الآخرة ما دام نافعاً ولو بطريقة غير مباشرة و(في كل كبد رطبة أجر)⁽³⁶⁾، جاء الحديث في تقديم شيء للحيوان غير المملوك.

ب- النظر إلى الدنيا كدار إقامة، وفي الحديث يقول النبي . صلى الله عليه وسلم : « ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»⁽³⁷⁾.

ت- فعل مستلزمات الدنيا بما يُؤثر على مستلزمات الآخرة قدر الإمكان، مع العلم أنه لا يوجد في مستلزمات الدنيا النافعة الناجعة الصالحة ما يؤثر سلباً على مستلزمات الآخرة.

ث- التفريق بين الفردية والجماعية فالفرد يمكن أن يسلك ما يشاء من الابتعاد عنها والزهد فيها، غير أن المجموع والمجتمع لا بد له من عمارة الدنيا وتوفير ما يحتاجه البشر، ولذا ترى الفقهاء يصرحون بأن

⁽³³⁾ قطب: سيد براهيم، في ظلال القرآن (2/ 932931)، ط 17، بيروت: دار الشروق، 1412هـ.

⁽³⁴⁾ طنش: أحمد محمد، أثر المنهج الحضاري الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعتمدة على الذات ص 120، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم درمان: كلية الاقتصاد العلوم السياسية، 1418هـ. 1987م.

⁽³⁵⁾ العمري: مريم محمود، التصور القرآني للعلاقة بين الدنيا والآخرة ودلالاته التربوية ص 45، رسالة ماجستير ير منشورة، تخصص تربية، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، 1427هـ. 2006م.

⁽³⁶⁾ متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً؛ البخاري، الجامع الصحيح (3/ 112)، كتاب المساقاة: باب فضل سقي الماء، ومسلم، الصحيح (4/ 1761)، كتاب السلام: باب فضل ساقى الهائم المحترمة وإطعامها.

⁽³⁷⁾ سنن الترمذي ت شاكر (4/ 589)، قال الهيثمي: عن رواية مقاربة (ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 326)، القاهرة: مكتبة القدسي، 1414 هـ، 1994م..

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كل ما احتاجه الناس لا بد من إيجاده⁽³⁸⁾ فتجب ولو إبرة صغيرة للخياطة فضلاً عن وجود احتياجات مجتمعية عامة، فعندنا الآن الصحة العامة والدفاع العام وحفظ البلد من التبعية ... كل ذلك يتطلب بالطبع عمراناً للعالم.

ج- الزهد فيما في الدنيا من تمتع ونعم بالطبع ظاهري لكن منحاه في الأخير قلبي ولذا ترى بعض الأئمة يجعل الزهد في قوله تعالى {لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: 23]، ونقله ابن القيم عن الجنيد رحمهما الله⁽³⁹⁾.

والخلاصة فهناك تشابك ليس بالهين عملياً فكيف يكون الربط بينهما إجراءياً ؟

يمكن القول بأن الإجراء العملي يجعل فعل ما يتعلق بالدنيا في أقصى الممكن سماحا للفرد، وإلزاما للجماعة والأمة.

وبالمقابل فالآخرة هي بمثابة صمام أمان لطغيان الفرد عند التمكين من أموال أو إمكانات أو ...

فلذا عند النظر للتطبيقات العملية نجد أن المنحى الجمعي المجتمعي يتجه إلى التحضر.

وأما الفردي فمممكن يتجه للزهد لكنه يتناول الدنيا وما فيها تناولاً توظيفياً ولا مانع أن يكون في أقصى التمتع، ولعل منه ما حبب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النساء وهو من أعلى متاع الدنيا، ومثل ما جاء عن الصحابة من أكل الجبن، وما ثبت عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه من جلب الساج. خشب ثمين فخم. للمسجد⁽⁴⁰⁾.

المطلب الثاني: المثالية والواقعية:

المثالية تعني: في الأصل (وصف لكل ما هو كامل في بابه كالخلق المثالي واللوحه المثالية)⁽⁴¹⁾. وهذا ما

نقصده، هنا. وهو نشدان الكمال.

⁽³⁸⁾ يقول الغزالي: (إن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفلحة والحياكة والسياسة بل الحجامه والخياطة) إحياء علوم الدين (1/16)، بيروت: دار المعرفة.

⁽³⁹⁾ ابن القيم: محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2 / 12)، ط 3، بيروت: دار الكتاب العربي، 1416 هـ - 1996 م.

⁽⁴⁰⁾ فعن عبد الله بن عمر (أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبني باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئا، وزاد فيه عمر: وبناه على بنيانه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة: وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج) رواه البخاري، الجامع الصحيح (1/ 97)، كتاب الصلاة: باب بنية المسجد، و(الساج بالجيم هو ضرب من الخشب يؤتى به من الهند) و(القصة بفتح القاف وتشديد المهملة هي النورة) ابن حجر، فتح الباري (1/ 136 و 420/1)، بيروت: دار المعرفة، 1379 هـ.

⁽⁴¹⁾ مصطفى، المعجم الوسيط (2/ 854).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والواقعية هي: النظر لواقع الحال كما هو بملايساته وظروفه الممكنة، أن أن الواقعية هي (عرض الآراء والأحداث والظروف والملابسات دون نظر مثالي) (42).

والقرآن الكريم يوجه، ويعطى ملامح للإنسان عند قيامه بمهام الاستخلاف في الأرض، ومنه العمران، في التعاطي مع المثالية والواقعية، فيعرض له (منهج الله في الأرض في صورته المثالية الواقعية) (43)، إلا أنه ووفقاً لنتائج إحدى الدراسات فد القرآن الكريم مثالي؛ لأنه يُغري بالمثل العليا .. الإنسان المثالي والمجتمع المثالي .. ولكنه مع هذه الدعوة المثالية لا ينسى الواقع الذي يحياه الناس ويهبطون إليه .. فهو يعالج الواقع نظرياً، ويعالجه عملياً، ولكنه يحاول أن يرقى بالإنسان ليعلو عليه بإيمانه وأخلاقه ومثله وأهدافه الكبرى (44).

أولاً: المثالية:

يُعطي القرآن الكريم المثالية عبر مظاهر متعددة؛ منها:

1. الاستقادة التامة
2. الصلاح
3. النماذج الراقية
4. الأوامر والنواهي تنشد المثالية.

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } [آل عمران: 102]

فالعمران مطلوب في أبهى ما تكون من نظرات وأقصى ما تكون من إشباع وأمضى في سبيل الوصول إليه.

ثانياً: الواقعية:

يُعطي القرآن الكريم الواقعية عبر مظاهر متعددة؛ منها:

(42) مصطفى، المعجم الوسيط (2/ 1051).

(43) قطب، في ظلال القرآن (31/ 466).

(44) العربي: عيد مبارك، القرآن الكريم بين المثالية والواقعية ص 271، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين، 2000م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

1. الفرد وقدرته:

ولذا فتكليف الفرد بجهده البشري هو بحسب الممكن، قال تعالى: {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [المؤمنون: 62]، فالتقوى مثلاً وهي عنوان لفعل كل خير ونافع، ربطت بذلك، قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16]

2. ما صدر عن بعض الأنبياء:

قال تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [طه: 121]

3. مواقف عامة قد يُستدرك عليها:

ومنها ما جاء في قضية أسرى بدر؛ قال تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [الأنفال: 67]

4. حالة المكان والزمان والواقع:

فالزمان والمكان والحالة يؤثران على المطلوب المفترض المثالي، ومنه القدرة عند كل فرد

قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16]

5. ومن ثم لو وجد ما يستدعي التأثير على التكليف فليراعى:

ومنها الاستثناءات، منها حالات الضرورة {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام: 119]، وقال تعالى {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ} [النساء: 129]

ويمكننا أن نجمل بعض الواقعيات التي يصادفها مريد العمران مما يُذكر به القرآن؛ فمن ذلك:

1. عوائق تواجه سير الخير. المثالية: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [البقرة: 251].

2. طبيعة البشر: ضعف البشر {وَوُحِّلَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 28]

3. سنن كونية: سنة التداول، الربط بالأسباب. بمعنى لا بد من سلوكها لنصل إلى الطموح المثالي.

4. المثالية في طموحها وتحليقها ليس هو الإجراء الذي بموجبه يكون الثواب والعقاب بل معيار. هنا. هو الواقعية.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وعلى ضوء النظرتين المثالية المرجوة، والواقعية الممكنة، يكون التعاطي الملائم من الإنسان لكن (الرغبة في تحقيق المثالية في الحياة في ضوء آيات القرآن الكريم والسنة النبوية لا تعني التكلف والعنت وتجاوز خط الوسع والاستطاعة، كما أن الواقعية لا تعني القبول بالواقع على ما فيه من انحطاط)⁽⁴⁵⁾.

المطلب الثالث: الغيبات والشهادة:

الغيب هو ما غاب عنا مما هو موجود، وعالم الشهادة هو ما كان موجوداً في الكون مما يمكن مشاهدته، وفي الطبري: الشهادة عالم ما تعينون: فتشاهدونه، والغيب ما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه⁽⁴⁶⁾.

فالغيب في القرآن الكريم (هو: شيء موجود، ولكنه مستور بحجب من الظلمات أو النور)⁽⁴⁷⁾.

فكيف ندرك عالم الغيب ونتعامل معه كما هو، وكيف ندرك عالم الشهادة كما هو عليه حقيقة، ونزداد في معرفته والاستفادة منه وتوظيفه.

فمن الغيب هناك رب خالق . سبحانه .، وهناك ملائكة، وهناك عالم الجن.

وهناك شيطان مخلوق يوسوس ويُغوي.

ومن عالم الشهادة كل ما نشاهده من أرض وكون وحيوان ونبات وحجر ومدبر وبشر.

فمريد العمران مجاله هو الأرض عالم الشهادة فليستفيد منه في أقصى ما يكون ولكن في النفع.

فقد خُلقت لنا قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: 29]

ولينظر ما يرتبط به في موضوعه من الغيبات، مثل الخالق جل وعلا، والملائكة، وهناك جنة أو نار وهكذا.

ومنها:

✓ مراقبة الخالق.

✓ زيادة الحذر من وسوسة الشيطان.

(45) العريبي، القرآن الكريم بين المثالية والواقعية ص 271.

(46) يُنظر في: الطبري، جامع البيان (11/ 464).

(47) الغيلي: عبد المجيد محمد، عالم الغيب والشهادة (2 / 7)، الرياض، 1435 هـ، 2014 م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

✓ يمكن حصول أمور خارقة للعادة في مجريات سنن الكون، فلتطلب ممن خلق الكون ونواميسه وهو الله جل وعلا.

والخلاصة أن القرآن يربط المرء بالغيب والشهادة معاً، فيجعله وهو متبصر قدر إمكانه للشهادة وما في الكون يجعله. أيضاً. يرتبط بالغيبيات لينتبه أكثر، ولتشد من أزره نحو الثبات والخير، وكلما زادت مهمة الإنسان وحركته في عوالم الشهادة كلما احتياج إلى القرب أكثر من عوالم الغيب الخيرة؛ فلذا وجب قيام الليل على النبي. صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: 1، 2].
والقائم بالعمران يحتاج إلى الارتباط بالغيب حتى يُرشد في معاشته للعمران ومتطلباته.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

المبحث الثالث: الأبعاد التنموية لفلسفة العمران في القرآن:

بالنظر إلى الخلفية الموجهة للعمران، فهناك أبعاد متعلقة بالرفع التنموي نفسه ومشكلاته:

ومنها قضية الوفرة والندرة، وجهد البشر أو الاتكال على ما يقدره الخالق . جل وعلا .، وتوسيع أبعاد العمران والإبداع الحضاري، ورابعاً في كون الإنسان غاية العمران وأداته، ونتناولها في المطالب الأربعة الآتية.

المطلب الأول: بُعد الوفرة والندرة:

الوفرة: نعني بها وجود الموارد الكافية التي يحتاجها البشر في اشباع غرائزهم، وتلبية احتياجاتهم، وتوفير متطلباتهم.

وأما الندرة فهي " مشكلة اقتصادية أساسية تتمثل في امتلاك البشر لرغبات وحاجات غير محدودة في عالم محدود الموارد"⁽⁴⁸⁾.

وفي الطرح القرآني نجد أن خالق الكون والأرض والإنسان قد بيّن أن الأرض قد قدرت فيها أقواتها، قال تعالى: {قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارِكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ} [فصلت: 9، 10]

فالأرض فيها ما يلي حاجة الإنسانية بما حباها الله من إمكانيات العطاء، قال في التحرير والتنوير: (فمعنى قدر فيها أقواتها أنه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكلاً والكمأة، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطيور، وما يتولد منه الحيتان ودواب البحار والأنهار)⁽⁴⁹⁾.

ومع تقرير القرآن الكريم لوجود الوفرة إلا أن هناك بالطبع ندرة نسبية، قال تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } [البقرة: 155]

⁽⁴⁸⁾ تعريف مشهور متداول؛ ينظر على سبيل المثال: مقال عقل: أحمد، تناقض القيمة.. بين الندرة والمنطق على الرابط

<https://lusailnews.net/knowledgegate/opinion/25/04/2021/%D8%AA%D9%86%D8%A7%D9%82%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%8A%D9%85%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%AF%D8%B1%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B7%D9%82>

⁽⁴⁹⁾ ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير (24/ 24)، تونس: الدار التونسية، 1983 هـ.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وقد رُبط الأمر بفعل الإنسان من حيث أن الوفرة موجودة، ويبقى عليه بذل الجهد.

فأصل مشكلة وجود ندرة نسبية تبدو في أمرين:

1. عدم قيام الإنسان بما يلزم لتوفير المتطلبات.
2. إطلاق رغبات الإنسان ومتطلباته بما يزيد بالطبع عن المتوفر لأن الرغبات آفاق تحليق ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى الثالث.

والخلاصة أن القرآن يُعطي مريد العمران تفاقلاً في وجود ما يطمح إليه، ويبرز له بطلان قضية الندرة، والحقيقة أن وكل مخاوف الندرة ما هي إلا خرافات يروج لها المستفيدون من الأغنياء في الدول المتقدمة⁽⁵⁰⁾.

وللقيام بهذه الوظيفة هياً الله عز وجل للإنسان مقومات الحياة في الأرض، ويسر له احتياجاتها؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} (البقرة: 29)، وقال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} (الجن: 13)، وقد جاء في تفسير الجلالين. في آية التسخير. (لتنفعوا بها)⁽⁵¹⁾، فما في الكون والأرض كله مسخر للإنسان فما عليه سوى الاستفادة منه.

المطلب الثاني: بين جهد البشر والاتكال على الخالق. جل وعلا:

العمران يحتاج إلى جهد بشري، وحركة البشر هي مرتبطة بإرادة الخالق سبحانه وتقديره، فكيف يسير الإنسان بجهد مع تطلعه لمعونة به جل وعلا.

ونحاول عرض ذلك الآتي:

أولاً: أعمال الإنسان الراشدة تُنتج التأييد الرباني، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: 7]

فالتأييد الرباني مرتبط بالسلوك العملي من البشر {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: 125].

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: 96]

⁽⁵⁰⁾ يُنظر: لاييه: فرانسيس مور، وكولينز: جوزيف، صناعة الجوع وخرافة الندرة ص 15، ترجمة أحمد حسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة 64، إبريل 1984م.

⁽⁵¹⁾ المحلي: محمد بن أحمد، والسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، تفسير الجلالين ص 542، القاهرة: دار الحديث.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ثانياً: يمكن أن ألتمس ظهور غيبيات تعيني، لكن لا يعني ذلك ترك ما ينفع، مما يقدر عليه الإنسان، ومع أنه يمكن وقوع الأشياء بدون اتخاذ الأسباب، لكن بقاء الفرد بدون فعل ما يمكنه انتظاراً للتأييد الغيبي يُعدُّ سلوكاً غير سليم ويسمى تواكلاً.

ثالثاً: المطلوب الأمران، وهو ما يُلاحظ في قوله تعالى {هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 62]

رابعاً: ما يحصل من مصائب لا يتمناها الإنسان هو نتيجة مستندة أيضاً لأفعال الإنسان نفسه، قال تعالى {أَوَلَمْآ أَصَابَتْكُم مَّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 165]

المطلب الثالث: غاية العمران وأداته:

تشتهر في العصر الحديث مقولة كون الإنسان غاية التنمية، وأداتها، وبما أن العمران هو مسمى مقارب للتنمية، فذلك يمكن القول بأن الإنسان غاية العمران وأداته، فلا بد أن يتمحور العمران حوله، وبيان ذلك في الآتي:

أولاً: الإنسان غاية التنمية:

الإنسان غاية التنمية الرئيسة: وقد خلق الله له ما في الأرض {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: 29]، فلذا يمكن للإنسان الاستفادة منها وتطويعها لينتفع بها في حياته، قال في الجلالين . في آية التسخير . (لتنفعوا بها) (52).

ثانياً: الإنسان أداة التنمية:

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30].

فلذا أقدره المولى على غيره من المخلوقات وذلكم المسمى بالتسخير ويعني قدرة الإنسان على إخضاع غيره من المخلوقات وهو ما جُبل الخلق عليه.

وقد وردت في التسخير آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (12) {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (13) [الجاثية: 12، 13]، ف (كل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد، فقد

(52) المحلي، والسيوطي، تفسير الجلالين ص 542.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

سخر لك⁽⁵³⁾، فيمكن للإنسان القائم بالتنمية والعمران أن يسيطر على كل المخلوقات الأخرى وتنقاد له.

المطلب الرابع: توسيع أفق وسماح للإبداع الحضاري:

من التوجيه القرآني مما يتعلق بالعمران قضيتان مهمتان؛ أوهما: توسيع الأفق في العمران، والثانية: السماح بالإبداع الحضاري.

أولاً: توسيع الأفق في العمران:

يؤخذ من طلب سليمان . عليه السلام . خدمة نقل ذات ففي الآية {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا} [النمل: 38]، فندرك توسيع أفقنا في التحضر والإعمار.

وقد ذكر المولى . سبحانه . أيضاً عدداً من أمثلة الإبداعات حضارية؛ ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَّمَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: 33] و{عَلَّمَا يَظْهَرُونَ} أي درج من فضة عليها يصعدون ، والظهور الصعود⁽⁵⁴⁾.

ثانياً: السماح بالإبداع الحضاري:

ذكر المولى . سبحانه . عن قصر سليمان بما يدل على السماح في إبداع حضاري، قال تعالى {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ} [النمل: 44].

(53) ابن منظور، لسان العرب (4/ 354).

(54) الماوردي: علي بن محمد، النكت والعيون (5/ 224)، بيروت: دار الكتب العلمية.

الخاتمة

بحمد الله أنهيينا ما يسر المولى كتابته في موضوع خلفية العمران وأرضيته التي ينطلق منها مرید الإعمار الناجع.

أولاً: النتائج:

من النتائج التي توصل اليها البحث إليها نورد الآتي:

1. تناول القرآن العمران طلباً وإعطاء لبعض أرضيته.
2. جعل القرآن معطيات الوحي، ومخرجات عقول البشر هي المرجع الرئيس للقائم بعملية العمران.
3. جعل القرآن هناك إطاراً عاماً يتمحور فيه القائم بالعمران وذلكم الابتلاء، وحدد له أغراضاً إجرائية تراعي؛ ومنها: الإصلاح، والإعمار، والرشد.
4. يوجه القرآن للتوافق والتناغم بين عدد من المتقابلات: الدنيا والآخرة، المثالية والواقعية، الغيب والشهادة.
5. يضع القرآن وضوحاً في بعض متعلقات العمران التنموية، مثل وجود الوفرة وبطلان الندرة المطلقة، وإطلاق مثابة الإنسان في تصرفاته مع إمكان استفادته من إعانة المولى. سبحانه. ونصرتة.

ثانياً: التوصيات:

يوصي الباحث بآتي:

1. طرق الموضوعات المتعلقة بالقرآن وعلاقته بالمطروح في الفكر التنموي ومتعلقاته في الرسائل العلمية والأبحاث.
2. دراسة موضوع العمران في القرآن؛ في جزئين متبقيين بعد فلسفة العمران؛ وهما: سير العمران، وتطبيقاته على الواقع التنزيلي.
3. زيادة الدراسة والتمحيص في بعض القضايا التي أثارها البحث؛ ومنها: علاقة الدنيا والآخرة إجرائياً، وإطلاق القرآن للإبداع الحضاري.

قيام العمران وقيم الأسرة

د. فريد شكري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية-المغرب

المقدمات الممهّدات

بني العمران على ثلاثة أركان :

الإنسان والبنيان والعرفان.

أما الإنسان : فولد صالح يدعو له.

و أما البنيان: فصدقة جارية.

و أما العرفان: فعلم ينتفع به.

فالأسرة إذن هي محضن القيم لقيام العمران على هذه الأركان.

فضاء الأسرة إنجابي و إيجابي "ولد صالح".

و الأسرة فضاء لقيم العطاء و التكافل " صدقة جارية".

و الأسرة فضاء للعلم و التعلم تلقيا و ترقيا "علم ينتفع به".

و بهذا الاعتبار تكون الأسرة حقيقة نواة العمران وقطعته الفسيفسائية.

المقاصد والعمران

العمران قائم على الاجتماع الإنساني.

والاجتماع الإنساني قائم على النوع الإنساني.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والنوع الإنساني قائم على الأسرة التي هي منشأه و مصدره و محضنه : إنجابا و رعاية و تربية. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ خلقا و إنشاء و الأسرة إنبات أمرا و تنشئة ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

الأسرة فطرة الله التي فطر الناس عليها خلقا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ والأسرة عليها أن تحفظ ﴿ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمَ﴾ أمرا "يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه".

الأسرة شجرة العمران والعمران ثمرة الأسرة.

والقيم هي الماء الذي يسقيان به و يرتويان منه .

الإنسان هو حجر الزاوية في العمران و الأسرة هي محضنه تربية و تنشئة .

ولهذا فالاستثمار القيمي الإنسان في محضن الأسرة هو الاستثمار الحقيقي في العمران حيث يتحقق له الاستقرار والاستمرار .

ومقومات العمران هي التي اصطلح عليها علماءنا بالضروريات الخمس فهي ضروريات عمرانية لا يقوم العمران إلا بها.

مقوم روحي واعتقادي لقيام العمران بقيم الإيمان و هو الدين.

مقوم بشري لضمان استقرار العمران و استمراره و هو النفس و النسل.

مقوم معنوي لتشييد العمران و تسديده و هو العقل.

مقوم مادي لقيام العمران بنيانا و معمارا وهو المال.

الدين عماد العمران.

الصلاة عماد الدين.

والأسرة مشتل الدين و الصلاة "وامر أهلك بالصلاة و اصطر علىها".

فالأُسرة عماد العمران.

الأُسرة قوام العمران والقيَم قوام الأُسرة.

الأُسرة حصن بالقيَم وحصن للقيَم.

الأُسرة محضن القيم ومصدر القيم.

إذن فلا قيام للعمران إلا بقيام الأُسرة على القيم.

لأن الأُسرة نواة العمران فهي وحدته القياسية وبما أنها محضن القيم التي تصدرها إلى المجتمع التي يقوم عليها العمران وتنتجها عبر وسائط تربية، فإنه المناسب بل اللازم أن تحلق الأُسرة هي نفسها في فضاء قيمي يحقق لها التماسك الأُسري والامتداد الاجتماعي والاستثمار العمراني.

ولأن العلاقة الأُسرية علاقة دائمة ودائبة ولا يستغني عنها أي إنسان سواءً كان أباً أو زوجاً أو ابناً ولأنها علاقة حميمية وقائمة على الاحتكاك والمعايشة، والتماسك والتماسك.

فلا بد لها أن لا تقوم على قيم العدل فحسب بل لا بد أن تقوم على قيم الفضل باعتباره إطاراً خلقياً وغلافاً قيمياً يؤثت الفضاء الأُسري، بحيث إذا أخطأ الإنسان في تفاصيل حياته الأُسرية مقام الفضل، فإنه يسقط إلى مرتبة العدل، لا عن مرتبة العدل إلى مرتبة في العضل.

إذا كان الظلم مؤذناً بخراب العمران كما قال ابن خلدون: "فإن العضل¹ في الأُسرة مؤذن بخراب العمران، لأن الأُسرة نواة العمران".

العدل والفضل

نصوص وفصوص

يعتبر العدل² و الفضل³ من القيم الأخلاقية والإنسانية المجمع عليهما من العقول الحكيمة والفطر السليمة إيمانياً وإنسانياً طبعياً وشرعياً عقلياً ونقلياً.

¹ استعملت "العضل" الذي يعنى التضييق والمنع و الشدة، بمعنى الظلم عموماً. ولم أقصره على المعنى الوارد في قوله تعالى: "فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن" الذي يعنى امتناع الولي من تزويج موليته من الكفاء حيث يجب عليه هذا التزويج. وكذلك مراعاة للجناس.

² العدل هو وضع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، كما يقصد به في المعاملات الإتيان بالحد الأدنى في الأفعال والأقوال.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والتراث الإنساني والإسلامي غني بأقوال علمائه وحكمائه في التنويه بهاتين القيمتين ومدى ارتكاز العمران البشري والاجتماع الإنساني عليهما.

-يقول الحارث المحاسبي "طريق العدل طريق الاستقامة وطريق الفضل طريق طلب الزيادة.." ⁴

ويقول الإمام ابن تيمية "الشرائع ثلاثة : شريعة عدل فقط وشريعة فضل فقط وشريعة تجمع العدل والفضل فتوجب العدل وتندب إلى الفضل وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي

شريعة القرآن الذي جمع فيه بين العدل والفضل " ⁵.

"فلا منافاة بين إيجاب العدل وبين استحباب الفضل .

فلا بدّ من شرع يتضمن الحكم بالعدل، ولا بد مع ذلك من ندب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل.. فإيجاب العدل يقترن به التهيب والتخويف في تركه، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله، فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة، وهذا فيه رغبة بلا رهبة ولهذا قال المسيح عليه السلام : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . ولهذا قيل إن المسيح عليه السلام بعث لتكميل التوراة فإن النوافل تكون بعد الفرائض " ⁶.

"فجاءت شريعة المسيح عليه السلام مكملة لشريعة موسى عليه السلام برسم التخفيف والترقيق لقلوب يهود التي صارت على حد : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وأما شريعة النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد جمعت الحسنيين ، فهي موسوية في مواضع الجلال ، عيسوية في مواضع الجمال ، فلا تستعمل شدة الكلام عليه السلام في مواضع اللين والرفق ، ولا تستعمل لين المسيح عليه السلام في مواضع الشدة والبأس "

³ الإحسان الأصلي، أو الزيادة على الواجب أو فرض زادت عليه نافلة. فالإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطي ما عليه وبأخذ ما له والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه وبأخذ أقل مما له، فالإحسان كما قال الراغب الاصفهاني "فوق العدل... فالإحسان زائد على العدل".

⁴ آداب النفوس ص73 و74 ط1 دار السلام 1991

⁵ الجواب الصحيح ج3 ص229

⁶ نفسه ص65 و66

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

و الخلاصة " وشريعتنا أكمل الشرائع في هذا الباب ، فإن شريعة الكليم عليه السلام قد غلب عليها العدل ، فهي على رسم الشدة ، وشريعة المسيح عليه السلام قد غلب عليها الفضل ، فهي على رسم اللين⁷

يقول الإمام الغزالي "وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً.

والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال .

والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة وهو يجري من التجارة مجرى الربح

ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان وقد قال الله: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، وقال عز وجل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وقال سبحانه: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾⁸

وعن الأثر العمراني لقيمة العدل خصوصاً يقول ابن تيمية: "وأمرُ الناس تستقيمُ في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراكُ في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيمُ مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيمُ الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام .

. . وذلك أنّ العدل نظام كل شيء . فإذا أقيم أمرُ الدنيا بعدل، قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل، لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة .⁹

المتعامل بالفضل سابق بالخيرات و العادل مقتصد والعاضل ظالم لنفسه

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾

يقول الإمام ابن تيمية: "والقرآن بيّن أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان؛ أبرار مقتصدون ومقربون سابقون، فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات"¹⁰.

⁷ الاستقامة ص 453 و 454

⁸ إحياء علوم الدين، 2/74.

⁹ مجموع فتاوى ابن تيمية ج 28 رسالة الأمر بالمعروف

¹⁰ الجواب الصحيح، ج 3، ص 229.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الفضل بداية المجتهد والعدل نهاية المقتصد

فيكون التشوف إلى تحقيق الفضل ابتداءً أو تحقيق العدل انتهاءً.

البيان

الأسرة: الصورة والإطار

قبل استعراض الآيات القرآنية التفصيلية للحياة الزوجية التي تدثر بقيم الفضل يحسن بنا إيراد بعض الآيات القرآنية التي تشكل الإطار التصوري والوظيفي للصورة التي ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة.

ونحن نعلم الوظيفة الجمالية والتحديدية للإطار.

فالإطار يرسم الحدود التي ينبغي أن لا تتجاوزها الصورة.

كما أن جمالية الإطار تزيد الصورة جمالاً.

الأسرة: متعة ورسالة

قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرّة أعين و اجعلنا للمتقين إماما﴾ (سورة الفرقان: 74).

أشارت هذه الآية الكريمة دعاءً على لسان عباد الرحمن إلى وظيفة الأسرة الجامعة بين المتعة والرسالية، المتعة حيث الزواج تقرُّ به الأعين إنجاباً واستمتاعاً، والرسالية التي يكون المتزوج رسالياً بقيم التقوى بل إمام المتقين.

الأسرة آية وغاية.

الأسرة آية كونية وغاية إنسانية.

الأسرة آية كونية مجلوة وآية قرآنية متلوة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21)

الزوجية طبيعة وشريعة

الزوجية جعل الله وخلق الله

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النحل: 7).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾¹

تشير هذه الآيات إلى أن الأزواج ليسوا مجرد شركاء غرباء عن بعضهم يؤسسون لعلاقة أسرية بل تربطهم علاقة زوجية "طبيعية" قبل أن تربطهم علاقة زوجية "شريعة".

وهذه الحقيقة الكونية تعمق في الأزواج الانتماء الواحد والأصل الواحد والمشارك الواحد.

والزوجية تحيل على التجانس والتكامل والتساوي.

يقول الإمام الحرالي "الزوج ما لا يكمل المقصود من الشيء الا معه على نحو من الاشتراك و التعاون و التطهير.....و كانت المرأة زوج الرجل لما كان لا يستقل أمره في النسل و السكن إلا بها"¹¹

وكل هذه المعاني المشتركة بين الزوجين يزداد تحققا وتعلقا بقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ (الروم: 21)

الخلفية الإنسانية للأسرة

وهذا ما يرفع "الغريبة" و الغريبة بين الزوجين وتكون أنانيات الزوجين لحسابهما وليس على حساب أحدهما لأن حب الزوج لنفسه معناه حبه لزوجه لأنها "نفسه".

وحبه لنفسه يمنعه أن يظلم نفسه أي وزوجه.

بل العضل أو الظلم الصادر عن أحدهما يترد إليه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق : 1)

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾
يشير سيد قطب إلى هذا المعنى " وظلم نفسه بظلم وزوجه، وهي وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار¹².

¹ تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير (التوفية والتوشية) تحقيق محمادي عبد السلام الخياطي. ص -176-175

-الإحالة على النفس فضلاً

ولتأكيد هذه الزوجية و لضمان تعامل الزوج مع زوجته بالفضل باعتبارها زوجا ومن نفسه فقد أحال القرآن مجموعة من الأحكام الأسرية على الزوج تقديرا وقدرة وأريحية لما يعهد من الإنسان من حبه لنفسه و تمتيع نفسه مما يضمن للزوجة حقوقها بالكرم و الفضل و الإحسان .

كما في قوله تعالى في إيجاب النفقة على الزوج

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 233).

و قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ (الطلاق: 6-7).

-الأسر المكيئة قائمة على السكينة

قال تعالى: ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (الروم: 21) الزواج سكن وسكينة وهذه الزوجية مدعاة للسكن "حيث يرتاح كلُّ منهما إلى الآخر، ويطمئن له ويسعد به، ويجد لديه حاجته.¹³

و يلاحظ ان كثيرا من الأزواج يحققون السكن مع أزواجهم و لا يحققون السكن إلى أزواجهم، و الفرق بين السكن "مع" والسكن "إلى" فرق بين المعيار الحجري والمعيار البشري، فكل زواج قائم على معيار "الطين" هو الذي يتحقق فيه السكن "مع"، و الزواج الذي يتحقق فيه معيار" الدين " ¹⁴ هو الذي يتحقق فيه السكن "إلى"، ولهذا انهارت مجموعة من أسرنا لأنها ركزت على الجانب "الطيني" وتحقق السكن "مع" و لم تركز على الجانب "الديني" فلم يتحقق السكن "إلى".

-المودة والرحمة

العلاقة الزوجية قائمة على المودة ابتداءً وانتهاءً وعلى الرحمة استمداداً وامتداداً "وجعل بينكم مودة ورحمة".

ويقوم الحب في حياة الناس على عدة اعتبارات سواء كانت لذة أو منفعة أو خيرا يقول مسكويه "فأما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تنعقد سريعا وتنحل سريعا، وذلك أن اللذة سريعة التغير...

¹² ينظر: في ظلال القرآن، ص 3600.

¹³ تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج 13-ص 8077/8078.

¹⁴ كما ورد في الحديث النبوي في معايير الاختيار الزوجي "فاظفر بذات الدين تربت يداك" (رواه البخاري ومسلم)، "إذا جاءكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه" (رواه الترمذي وابن ماجة).

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وأما المحبة التي سببها المنافع فهي التي تنعقد بطيئاً وتنحل سريعاً.

وأما المحبة التي سببها الخير فهي التي تنعقد سريعاً وتنحل بطيئاً.

وهذه المحبات كلها تحدث بين الناس خاصة لأنها تكون بإرادة وروية ويكون فيها مجازاة ومكافأة

وأما التي تتركب من هذه الثلاثة إذا كان فيها الخير فإنها تنعقد بطيئاً وتنحل بطيئاً¹⁵.

وكذلك هي محبة الأزواج في حالة السواء.

الأسرة لباس

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ (سورة البقرة: 184).

فهذه الآية الكريمة توحى لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الزوجية، لأن اللباس يحيل على عدة أبعاد منها: الدفء، التجميل، الستر، الالتصاق الاختيار....

فالعلاقة الزوجية ينبغي ان تقوم ابتداء على الاختيار وليس على الإجبار. وأن يتحقق فيها الدفء العاطفي، لأنها علاقة قائمة على الالتصاق والحميمية، وأن تقوم على الستر، ليس ستر العلاقة الحميمة فحسب، بل ستر الأسرار الزوجية والحرص ألا تخرج وألا تشيع، باعتبارها عورات.

-الخلفية الإيمانية للأسرة

تمثل الخلفية الإيمانية المحفز الأساسي و الفاعل الرئيسي في الترغيب في الفضل ابتداءً والعدل انتهاءً و الترهيب من العضل اعتداءً.

ولهذا ربطت مجموعة من الآيات القرآنية سلوكات أسرية بالمرجعية الإيمانية تفعيلاً لمقام التقوى و تذكيراً باليوم الآخر و ذلك تأكيداً للربط بين الإيمان و العمل الصالح.

حيث يكون الإيمان وقود العمل الصالح يضمن له الاستمرار و الاستقرار ويكون العمل الصالح ثمرة الإيمان و مظهره .

فقد وردت أحكام الطلاق في ظلال ﴿واتقوا ربكم﴾.

¹⁵ تهذيب الأخلاق، تح: قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1996، ص 135-136.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

و كذلك عولجت الخلافات و التجاوزات الأسرية ظلما أو نشوزا

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء:129]"

﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء:128]

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:232]

﴿وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:228]

ولهذا ختمت آيات الأسرة وخاصة آيات الطلاق بصفات الله تعالى (السميع البصير العليم...)

استحضارا للرقابة الإلهية وخاصة عند غياب الرقابة الاجتماعية.

كما في قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وكما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عقب قوله

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

وهذه الآية فيها إشارة بلاغية يجدر التنويه بها، ذلكم أن الله جل وعلا اعتبر الفضل موجودا أصلا في فطرة الزوجين وليس أمرا طارئا عليهما، و إنما يحتاجان الى تذكيرهما بعدم نسيانه لكونه قيمة أصيلة وليس قيمة دخيلة.

العدل أرضية والفضل سقف

فالعدل ليس قيمة يمثل الأرضية الصلبة التي ينبنى عليها البناء الأسري لضمان سلامته عند تطاوله في آمد الزمن في حالة الوفاق فحسب ولكنّه قيمة يمثل أيضا الطبقة الإسفنجية التي تمتص رعونات الصّدام وتشتتج الخلاف في حالة الشقاق وعدم تمثّل مقام الفضل.

وهذا يضمن للأسرة أن تُحلّق في سماء الاستقرار والاستمرار والاستثمار بجناحي العدل والفضل.

والتحليق بجناح واحد لا يضمن في أحسن الأحوال إلا الإقلاع أو التحليق القريب لا البعيد.

بينما يمثل العدل والفضل جناحين قِيَمِيَيْن قِيَمِيَيْن تحلّق بهما الأسرة في الفضاء الاجتماعي والعمراني.

كما أنهما قيمتان تسريان في شرايين الأحكام و مفردات العمران تُمدانها بمادة الاستقرار و روح الاستمرار.

أما الفضل فهو فضاء رحب قابل للترقي في مدارجه والسمو في معارجه.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

العدل بنفَس الفضل أو العدل في ظلال الفضل

الأسرة لا ينبغي أن تقوم على وزن العدل و ميزانه فحسب كما تطمح إليه عامة الأحكام القانونية الوضعية، وإنما ينبغي أن تقوم على الفضل و إن تعذر ذلك فأن تقوم على العدل بنفَس الفضل وحسب الإحسان و بنفَس التقصير والافتقار لا بنفَس الاعتزاز والاعتزاز.

وقد ورد الأمر بالعدل في ظلال الفضل بربطه بمقام الإحسان و التقوى ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 236)

العدل في قضاء الأسرة و الفضل في قضاء الأسرة

إذن فالفضل درجة فوق العدل إلا أن مجاله المعاملات وخاصة في قضاء الأسرة في حالة التراضي وليس مجاله قضاء الأسرة والمنازعات في حالة التقاضي.

لأنَّ الحاكم لا يملك حقا حتى يعطيه وزيادة أو يسقطه. ففاقد الشيء لا يعطيه وإنما الحاكم ينزعه من الظالم ويعطيه للمظلوم.

بينما صاحب الحق هو الذي يملك أن يعطي فوق ما يجب عليه أو يأخذ أقل ما يجب له في حالة الوفاق والوثام أو في حالة الشقاق والخصام.

وللإمام الراغب الأصفهاني نص نفيس بهذا الصدد يقول فيه:

" الإفضال والإحسان أشرف من العدل إذا كان الحكم بينك وبين غيرك، فأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلا العدل، وإنما الإحسان إلى المتحاكمين، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ [المائدة: 42]، وقال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [النساء: 58]، وقال لمن له الحق: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ [البقرة: 237]،¹⁶

-الجمع بين قيم العدل و الفضل ترغيبا والعضل ترهيبا

كثيرا ما ترد الأحكام الأسرية في الآيات القرآنية متدثرة بقيم العدل و الفضل ترغيبا و تنويها، و قيم العضل ترهيبا و تنبيها .

¹⁶ الذريعة، ص 252-253.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كما في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا إِلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة البقرة 229)

الأسرة قائمة على الفضل اختسابا لا على مجرد العدل حسابا.

يقول الله عز و جل في سياق الطلاق ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:1]

ورغم أن البيت عادة ما يكون في ملكية الزوج، فإن الله عز وجل لم ينسبه إلى الزوج في خطابه و لم يقل : لا تخرجوهن من بيوتكم ، ولكنه نسبه إلى المرأة المطلقة ، رغم أنها لا تملكه عادة حتى في حالة الزواج . لكن الله سبحانه أثبت لها الملكية في سياق الطلاق، ومنع المطلق أن يخرجها من البيت لأنه بيتها.

وفي ذلك إشارة إلى أن المطلقة و إن كانت لا تمتلك البيت بالميزان المادي عدلاً وحساباً فإنها تمتلكه بالميزان المعنوي فضلاً و احتساباً، فالبيت الحجري الذي يملكه الزوج عينا أثث بمشاعر زوجته وعاطفتها وتفانيها وتضحياتها فاستحقت بذلك ملكيته ولو معنوياً.

-العضل

رغم أن الخطاب القرآني المتعلق بالأسرة حافل بالفضل ترغيبا و ندبا فإنه لم يخل من التحذير في حالة الوقوع في مظان العضل شقاقا أو طلاقا من صدور تصرفات و أفعال من قبيل العضل تضيقا و إضرارا .

حيث يضيق الزوج مثلا على زوجته أو مطلقاته في المسكن أو النفقة وقد يمتد الإضرار الى الأبناء بمنع الإرضاع

لهذا خوطب الأزواج بمنطق الفضل لمعالجة هذا الوضع

يقول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَيْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَىٰ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:6،7]

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

و لقد ورد النبي عن العضل الأسري لفظيا في القرآن الكريم في حالتين .

1-عضل الزوج برمي زوجته بسوء المعاشرة لتفتدي منه

في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَّخِذْنَ مِمَّا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

-منع الولي وليته من مراجعة زوجها بنكاح جديد

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْرَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 232

ان هاتين الصورتين الحاصلتين للعضل على المرأة من ولها ومن زوجها لا يمنع من توسيع دلالة العضل الى كل ظلم يقع وخاصة في الفضاء الأسري .

لقد ورد التحذير من الوقوع في العضل بعدة صيغ أسلوبية و لفظية تلقي بظلال دالاتها على الأزواج تنفيرا من السلوكات المهددة لاستقرار الأسر .

أ- لَا يَحِلُّ

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ﴾ [البقرة: 229]

يستعمل القرآن الكريم هذه الصيغة التي تحيل على التحريم بكل قوة تأثيرا على نفوس الأزواج الذين يتصرفون بميزان الشرع القائم على الحلال والحرام .

- الاستنكار

والاستنكار من الأساليب التي يستعملها القرآن الكريم إمعاناً في الإحراج للأزواج الذين يخالفون منطق الفضل و يتصرفون بخلافه .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كما في قول الله عز و جل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ [النساء:20]

و الاستنكار موجه إلى الزوج لكي لا يعادل العشرة الزوجية بما أعطاها من المهر ، ، بحيث لا يليق به أخلاقيا ومكارميا أن يأخذ مقابلا عن هذه العلاقة الزوجية لما وقع من الإفضاء والتداخل و أخذ الميثاق الغليظ...

الأسرة حدود الله

لقد ارتقى القرآن بالأسرة إلى مقام حدود الله واعتبر العضل في هذه العلاقة تعديا لحدود الله و اعتداء على حدود الله.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة : 229).

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق : 1).

ومن شدة حرمتها وعظم قدرها حذر القرآن من التلاعب بها و الاستخفاف بها ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا

آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ [البقرة:231]

بعد ما اعتبر القرآن الكريم العلاقة الزوجية حدود الله فقد تراوح الامر بإقامتها من جهة. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 229)

وعدم الاعتداء عليها من جهة أخرى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة: 229)

-التحذير من نية العضل

و لم يكتف القرآن الكريم من التحذير من الوقوع في العضل تصرفا و سلوكا بل امتد الى التحذير منه نية و إرادة. سواء كان إمساكا أو مراجعة .

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا﴾ (البقرة:231)

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْنَّ﴾ (الطلاق: 13)

و هذا منطوق الشرع في معالجة نيات الأزواج قبل أعمالهم "إنما الاعمال بالنيات"

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كما في قوله تعالى "وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا" (البقرة:228)

- التحصيل

العدل قيمة تمثل الأرضية الصلبة التي يقوم عليها بناء العمران و نواته الأسرة.

والفضل قيمة تمثل الفضاء الذي يمتد فيه هذا البناء ويتطاول ويصير بنيانا مرصوصا بالقيم يشد بعضها بعضا.

والفضل فضاء رحب قابل للتفاضل والتنافس والترقي في مدارجه والسمو في معارجه.

و لم تكتف الشريعة الإسلامية بتحقيق العدل في أحكامها والمطالبة بإقامته في حياة الناس فحسب كما تطمح إليه عامة الأحكام القانونية الوضعية، وإنما أمرت بتحقيقه بنفس الفضل و إقامته بحسب الإحسان وذلك :

-لأن قيمة الفضل بمثابة الماء الذي تسبح فيه قيمة العدل والهواء الذي تستنشقه والفضاء الذي تحلق فيه.

- لأنه في حالة عدم تمثل المسلم لقيمة الفضل ابتداء فإنه لن يقع مباشرة في الظلم أو العضل بل أقصى ما يقع فيه هو مرتبة العدل .

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

مقومات بناء العمران الأسري والاجتماعي في القرآن الكريم

ذ. نورالدين بالخير

باحث بمختبر العلوم الدينية والإنسانية وقضايا المجتمع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس - المغرب

ذ. عبد العزيز العبيدي

باحث بمختبر الشريعة والقانون والمجتمع

كلية الشريعة جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس - المغرب

مقدمة:

عني القرآن الكريم بقضية العمران ورعاية الكون عناية خاصة، وعدّ ذلك من أعظم مقاصد الشريعة، حتى قال العلامة علال الفاسي إن: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"¹.

ولا غرو أن الأسرة عماد المجتمع وأساسه؛ ومقوم من مقومات بناء الحضارة الإنسانية، ولقيمتها أولها الشارع الحكيم عناية فائقة، لما يترتب على إصلاحها أو إفسادها من مصالح أو مفسد، وقد ارتبط إيجادها بمقومات ومقاصد شريفة تتعلق بخلق الإنسان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1] ولهذا كان الحرص على رعايتها وإيجادها من أكد مقاصد الشريعة.

والأسرة في التصور القرآني هي بمثابة اختبار اجتماعي للإنسان، ليظهر فيه قوته وقدرته التربوية على حسن التربية ورعاية الأسرة وتوجيهها وفق قوانين الرؤية التربوية القرآنية، ولهذا نتعجب اليوم من تنافس الأسر فيما بينها في الجوانب المادية، والغلو في ذلك على حساب التنافس في الجوانب التربوية العقدية

¹ - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، طبعة 2011م. ص 41.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الإيمانية، وهو ما يجعل حركة الإنسان في التاريخ تنبني على قيم مادية محضة تؤثر على تفكيره وشخصيته، فتجعله يبني حضارته على أساس مادي، يقتل فيها الكيان البشري ويطمس معالم الروح فيه، ويلغي الشخصية الإنسانية الحقيقية؛ لأن الإنسان إنسان بروحه وأخلاقه وقيمه.

إن أداء الدور الاستخلافي الحضاري، الذي أنيط بأفراد الأمة ومؤسساتها، باعتباره امتداد لمفهوم الخلافة في القرآن الكريم، غاية كبرى، وأهم وسائل تحقيق هذه الغاية: إيجاد الخليفة، وتأهيله عقدياً وتربوياً في مسيرته الإصلاحية، ولهذا كان لابد من إيجاد نواة يكون منها هذا المنطلق، فكانت الأسرة، هذه الأسرة تتحدد معالمها وفق أنساق ثلاثة: الأول: ربط حركة الأسرة بالمقاصد الاستخلافية، والثاني: ربط الأسرة بالمقاصد التي تتعلق بخلق الإنسان. والثالث: ربط نظام الأسرة بالأمانة الكونية والمسؤولية الربانية التي أوكلت للإنسان ليتحملها في الأرض، وما لم يخضع بناء وتشكيل الأسرة لهذه الأسس، فإن الأسرة ستتهار أخلاقياً وإيمانياً، وستكون حياتها بلا هدف ولا غاية، وسينزل الإنسان من المكانة والقدر الذي خصه الله به، ليتشبهه بالمخلوقات الطبيعية، التي اقتضت حكمة الرب أن يختلف عنها الإنسان بعقله ووحية المنزل عليه، وهي مخلوقات حددت حياتها وعيشها في السياق المادي الغريزي المحض، بينما الإنسان أعلى وأشرف من أن يوقع أسرته حتى تعمل بلا هدف، وتحيا بلا غاية، ولهذا كان الإنسان أشرف المخلوقات، الذي ارتبط بإجاده بأحسن الغايات التي تحددها عقيدته وإنسانيته وعقله.

لذلك فالأسرة تحفظ الإنسان، كما سبق بيانه، وتحفظ الحسّ الإنساني المشترك كذلك، أي الفطرة، وهي الضامنة للشرط الإنساني في الاجتماع، بالإضافة إلى تحقيقها السكن وهو المحدد النفسي في الاجتماع الأسري، ثم التعارف والتعايش وهما المحدد الاجتماعي.

وعليه، فإن هذه الدراسة ستسعى إلى بحث مقومات بناء العمران الأسري والاجتماعي انطلاقاً من الرؤية القرآنية أساساً؛ ثم من فهم علماء الأمة لهذا الوحي المنزل من عند رب الناس إله الناس كل الناس. وقد تصورناه كالاتي:

✓ مقدمة

✓ المحور الثاني: مقومات بناء العمران الاجتماعي في القرآن الكريم

✓ المحور الأول: مقومات بناء العمران الأسري في القرآن الكريم

✓ خاتمة

المحور الأول: مقومات بناء العمران الأسري في القرآن الكريم

إن إقامة مؤسسة الأسرة ينبغي أن يتم من منظور عمراني، وذلك من خلال الجمع بين مقتضيات الخطاب ومتطلبات الواقع؛ بل هي في حد ذاتها عمران إنساني واجتماعي، وهي المرتكز الذي يقوم عليه العمران الحضاري، ولا سبيل إلى الارتقاء في مدارج التأنس دون معرفة المقاصد والوسائل المعينة على ذلك، وتجنب التوحش والسبل الموصلة إليه؛ وفي هذا الصدد يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله: "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."¹.

وفي هذا الإطار كذلك يحدثنا الإمام الماوردي رحمه الله في كتابه "أدب الدنيا والدين" عن منهج النظر في العملية العمرانية، وعن وسائل توظيف عناصر عمارة الأرض وصلاحها وطرق إصلاحها، معللاً ذلك بقوله: "من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها؛ ويقدر فيه اختلالها، لأن منها يستمد ولها يستعد، ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثراً"².

ويقول رحمه الله في السياق ذاته إن "مقتضى النظر في أمور الدنيا مراعاة أحوال تنميتها وعمرانها، فالواجب ستر أحوالها، والكشف عن جهة انتظامها واختلالها، لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها، لتنتفي عن أهلها شُبّه الحيرة، وتتجلي لهم أسباب الخيرة، فيقصدوا الأمور من أبوابها، ويعتمدوا على صلاح قواعدها وأسبابها"³.

1. العمران الأسري منظومة ربانية؛

ينطلق المفهوم القرآني للأسرة من كونها آية عظمى تجسد عناية الله بحفظ النوع البشري ابتداء واستمراراً وانتهاءً، وهي منظومة ربانية تتأسس على مبدأ الإيمان وتوحيد العبودية والربوبية لله، ذلك أن الإيمان ليس قيمة عقدية أو مفهوماً دينياً فحسب، وإنما هو رؤية تحدد الغاية من خلق الإنسان، وعلاقته بالكون والحياة، بحيث تنعكس هذه الغاية من وجوده على منهج التفكير والممارسة العملية.

¹ - المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الدار الذهبية، القاهرة، د.ت.ط. ص 41.

² - أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، اعتنى به وخرج أحاديثه، محمد أبو الخير السيد؛ محمد الشرفاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 2004، ص 129.

³ - نفسه، ص 128.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وتتجلى أهمية الإيمان في فهم دور الأسرة بوصفها منظومة ربانية للإصلاح والبناء، فقواعد ومبادئ الشريعة الإسلامية "تتمركز حول التوحيد بوصفه جوهرًا للعقيدة وأساسًا لبناء تشريعاتها، فهو بهذا يشمل كليات ومقاصد وقواعد ذات صفة دائمة شاملة غير خاضعة لتغيرات الزمان والمكان، إذ تعد المقاصد فيه قيما حاكمة صدرت عنها سائر المقولات والمفاهيم والرؤى والأحكام"⁴.

فالأسرة هي التي تحفظ ما بناه النوع الإنساني في ماضيه، وهي التي تؤول به غدا إلى أعقابه وذرائه حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل. واليوم تقع الإنسانية في اختبار عظيم، يهز مسلماتها، ويجادل كبرى مقدماتها دون قيود، خاصة في مجال الأسرة، فهناك حاجة ماسة إلى اكتشاف النسق المفاهيمي القرآني في مجال الأسرة⁵.

إن أول تحدٍ خضع له آدم وزوجه. وهو من تحديات الأسرة النواة. هو تحدي العهد والميثاق مع الله، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، وقد اختلف العلماء في ماهية هذا العهد، والراجح أنه العهد والميثاق على الربوبية والعبودية لله، إذ لا يجوز لآدم وللإنسان المستخلف في الأرض أن ينسى أن الله تعالى هو ربه، المالك والمدبر لأحواله، وأنه لا يملك لنفسه شيئًا، لا نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، أي لا ذاتا ولا وصفا ولا فعلا، فنسيان الميثاق وشقاء الحياة الدنيا واحد، وأن الشقاء الدنيوي من فروع نسيان الميثاق، وهذا هو الذي يشعر به كلامه سبحانه حيث أتى بالتكليف الجامع لأهل الدنيا في سورة طه⁶، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْيَىٰ﴾ [طه: 123 - 124].

وإذا تأملنا الخطاب القرآني فإننا نجد أنه لا يفرض على هذه المنظومة الربانية نمطا معينًا «أسرة نووية أو ممتدة»، وإنما يحرص على بيان الحدود والقيم التي تؤطر العلاقات الناتجة عن الزواج المشروع، داخل هذه المنظومة، الأمر الذي يجعل العلاقات مركبة ومتشابكة، تتداخل فيها العلاقة الزوجية بعلاقة المصاهرة والنسب، ولا أدل على ذلك من تشريعات الميراث المضبوطة والمتشعبة، والانضباط بهذه الحدود الشرعية والضوابط الأخلاقية يحفظ هذا التشابك الأسري وينهى هذا التآصر العائلي بين مختلف محددات الأسرة الكبيرة (الممتدة) أو الصغيرة (النووية)⁷.

⁴ - الأسرة في مقاصد الشريعة، قراءة في قضايا الزواج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1434هـ/2013م. 74.

⁵ - نفسه، ص 73.

⁶ - راجع كتاب: فقه الأسرة المسلمة في الخطاب القرآني والهدي النبوي، دراسة تأصيلية مقاصدية، مليكة نايت لشقر، منشورات مركز الدراسات الأسرية والبحث في القيم والقانون.

⁷ - انظر: مقصد الأسرة في القرآن: من الإنسان إلى العمران، جميلة تلوت، بحث ضمن الكتاب الجماعي: مقاصد القرآن الكريم (3): مجموعة بحوث، مؤسسة الفرقان بالتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، لندن، 2018، ص 253-327.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

وعليه، فإن قطب رحي الأسرة في القرآن الكريم يدور دائماً في اتجاه الأمة القطب، بغية النهوض والشهود، لذلك فإن من بين المقاصد القرآنية العليا تحديد مكونات منظومة الأسرة بدءاً من الزوجين ومروراً بالأبناء وما يترتب عن ذلك من علاقات النسب والمصاهرة في تشريع دقيق محدد ومنضبط، حتى تتميز المنظومة الأسرية عن غيرها من جهة، وحتى تكون هذه المنظومة اللبنة الأولى في تشكيل المجتمع من جهة أخرى، فبدون منظومة سوية ربانية لا يمكن الحديث عن مجتمع راشد، فيلزم من صلاح الأولى صلاح الثاني.

وباستحضار هذه الرؤية الاستخلافية العمرانية يمكن القول إن الزوجية هي النواة الرئيسية لتكوين الأمة القائمة الناهضة الراشدة (الأمة القطب)، ولا تكتمل هذه الزوجية دون تشابكها في إطار أواصر القرابة والنسب التي تندرج ضمن مسمى «الأهل».. ومجموع الأهالي هو الذي يكون الأمة⁸.

2. العمران الأسري قائم على وحدة المنشأ والتكوين؛

العمران الأسري وحدة أساسية من وحدات العمران الكوني، وهي فطرة وسنة اجتماعية حرص القرآن الكريم على تنظيم أحكامها لضمان استمرار وجودها في المجتمع وتماسكها؛ ففصل في أحكامها ما لم يفصله في غيرها من الأحكام، وأثار الانتباه إلى مجموعة من القيم والمفاهيم التي تعمل على بقاء الكيان الاجتماعي وحدة واحدة متكاملة⁹، وهو ما يظهر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: 72].

إن الأسرة منظومة قائمة على وحدة المنشأ والتكوين بوصفها قاعدة تتأسس عليها المقاصد العليا والقيم الداعمة للاستمرارية، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، فالتزويج الحكيم وحد بينهما، فالذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، إن لم يكن كل منهما هو عين الآخر، فكلما الجنسين صنوا الآخر في مسيرة الحياة الإنسانية منذ بدء الخليقة حتى المصير الأخير، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: 45 - 46].

لقد ربط القرآن الكريم فلسفة الزواج بوظيفة الإنسان الاستخلافية في الأرض، بحيث إن الزواج لا ينبغي أن تمليه ظروف اقتصادية أو مادية أو اجتماعية، أو حالة نفسية، أو حاجيات غريزية، بقدر ما ينبغي أن تمليه مقاصد عقدية وغايات حضارية، تستطيع من خلالها مؤسسة الزواج أن تنسجم مع مقصد خلق الإنسان وإيجاده في الحياة، وعليه فإن تفكير الإنسان في الزواج لا ينبغي أن يبعده عن تثبيت المقاصد العليا من

⁸ - نفسه.

⁹ - المفردات القرآنية في موضوع الأسرة دلالاتها الفقهية وامتدادها الاجتماعي، رولا محمود الحيت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: الأسرة المسلمة في ظل المتغيرات المعاصرة، تحرير راند جميل عكاشة، ومنذر عرفات زيتون، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ودار الفتح للدراسات والنشر، ط 1، 2015م، ص 25. بتصرف.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

إيجاده في هذه الحياة، فبدون استحضارها والسعي إلى تفعيلها في الواقع؛ فإن الإنسان لا يسلم بزواجه من الوقوع في المحاذير¹⁰.

ويستخلص مما سبق أن النموذج الإسلامي للعمران الأسري يعرضه على أنه وحدة أساسية من وحدات الإعمار الكوني، وبناء أساسياً من أبنية المجتمع الإسلامي، فالأسرة مؤسسة طبيعية تراحمية تحكمها قيم الفضل والعفو والتقوى، وليست مؤسسة اصطناعية ذات طبيعة صراعية تنافسية تخضع لعلاقات توازن القوى¹¹.

3. العمران الأسري ينسجم مع سنة الله في الخلق والكون؛

تنطلق الزوجية في الخطاب القرآني من مستويات عدة، تبدأ من المستوى الكوني العام بنظامه الفيزيائي الدقيق، وصولاً إلى المخلوقات الحية من نبات وحيوان وبشر، ثم تتجلى صورتها "الفريدة" بوضوح في العلاقة بين الذكر والأنثى البشريين¹². يقول الباري جل وعلا في غير ما موضع:

- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7]
- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3]
- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10]
- ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: 52]
- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6]
- ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: 45].

¹⁰ - الإدارة الشرعية لمؤسسة الأسرة في القرآن الكريم، نبيل طنطاني، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، جمادى الآخرة 1439 هـ، فبراير - مارس 2018م، ع: 6، السنة: 42.

¹¹ - راجع: المرأة والعمل السياسي، عزت، هبة رؤوف، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (18)، ط 1، 1995م، ص 187.

¹² - الفضاء المعنوي للزوجية في البيان القرآني: "العلاقة بين الزوجين" بين المنظور القرآني والقراءة الفقهية، هند مصطفى، دورية المرأة والحضارة، العدد 3: المرأة والقرآن، شعبان 1423 هـ - أكتوبر 2002م، ص 59.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

يقول الإمام ابن عاشور: " لما أراد مبدع الكون بقاء أنواع المخلوقات جعل من نظام كونها ناموس التولد. وجعل من ذلك الناموس داعية جبلية تدفع أفراد النوع إلى تحصيله بدائع من أنفسها غير محتاج إلى حدو إليه أو إكراه عليه، ليكون تحصيل ذلك الناموس مضموناً، وإن اختلفت الأزمان والأحوال. وتلك الداعية هي داعية ميل ذكور النوع إلى إنائه"¹³.

ومن مقاصد الدين عموماً حفظ الفطرة الإنسانية؛ فالفطرة من روح الله المغروسة داخل الإنسان، لذلك نسبت الفطرة إلى الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]، والفطرة، كما قال ابن عاشور هي: "النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق"¹⁴، ويقول رحمه الله: "الأصول الفطرية هي التي خلق الله عليها الإنسان المخلوق لعمران العالم، وهي إذن الصالحة لانتظام هذا العالم على أكمل وجه"¹⁵.

إن هذه الأنظمة هي منهج الله إلى خلقه، لذا ظهرت فيها صفات صانعها ومشرعها الذي له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وفعاله، لذا فالأنظمة الإسلامية تامة قوية كاملة، لا قصور فيها ولا عجز، شرعها الله لتسعد الإنسان وتنميه وتدفع به دائماً إلى الأمام؛ لأن الذي أمر بالأخذ بها هو الله، صانع الإنسان، الذي خلق، ويعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير، وليس أمامه -سبحانه- مجهول بعيد عن آفاق علمه من حياة الإنسان، ومن كل الملابسات التي تحيط بهذه الحياة، فهذه الأنظمة شاملة لكل جوانب أطوار حياته، تلي حاجات حياته المتطورة على مدى الزمان، تريحه، لا تشقيه، وقد جعل الله للناس في الأرض معاشهم ومكثهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه، ظاهرة وباطنة¹⁶، وصدق ربنا في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

4. (العقد)، مقوما تأسيسياً للعمران الأسري؛

الأسرة في الخطاب القرآني تحكمها أسس مرجعية قطعية وثابتة لا تتبدل، تبدأ بالزواج وتنتهي بالطلاق أو بالفسخ أو بالوفاة.

ولا تأتي كلمة "ميثاق" في القرآن الكريم إلا وتعلق الأمر بشيء عظيم. يقول الشيخ محمد شلتوت: "إذا تنبنا إلى أن وصف الميثاق بـ "الغليظ" لم يرد في موضع من مواضعه إلا في عقد الزواج، وفيما أخذه الله على

¹³ - مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، 422/3.

¹⁴ - نفسه، ص 172.

¹⁵ - نفسه، ص 183.

¹⁶ - النظام الاجتماعي في الإسلام، عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي، 1999 م. ص 22.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

أنبيائه من موثيق ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:7] تضاعف لدينا سمو المكانة التي رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية¹⁷.

جلت أهميته في تحديد مسار البشرية في المواقف الحاسمة، والميثاق: رباط وعهد مؤكد، وعقد يشد طرفين إلى بعضهما بعضاً بمحض اتفاقهما، وينتج من الإخلال به نتائج سلبية تتعدى هذين الطرفين إلى الأسرة بأكملها فالمجتمع. وهذا الميثاق الغليظ هو الطريق الشرعي لبناء الأسرة وإنجاب الذرية وإحصان النفس، ولا يشكل الزواج في الشريعة الإسلامية عقداً اجتماعياً فحسب، بل تتحقق به المصالح العمرانية والدينية، فهو طريق إلى صون المجتمع وتطهيره من الرذائل¹⁸.

وفي هذا السياق ينص الإمام القرافي رحمه الله في ذخيرته على قاعدة ذهبية فيقول: "والقاعدة: أن كل عقد لا يحصل الحكمة التي شرع لأجلها لا يشرع"¹⁹.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً شديداً موثقاً يربطكم بهن أقوى الربط وأحكمه. وقد روي عن قتادة وغيره أن هذا الميثاق هو ما أخذه الله للنساء على الرجال بقوله: ﴿فَأِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229] قال وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح فيقال: الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان. وعن مجاهد أنه كلمة النكاح أي صيغة العقد التي حلت به المرأة للرجل وقال بعضهم: هو ما أمر الله تعالى به الرجال من معاشرتهم بالمعروف كما في الآية التي قبل هذه²⁰.

ونقل الشيخ رشيد رضا عن شيخه محمد عبده ما نصه: "وقال الأستاذ الإمام: إن هذا الميثاق الذي أخذه النساء من الرجال لا بد أن يكون مناسباً لمعنى الإفضاء في كون كل منهما من شؤون الفطرة السليمة وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هي أقوى ما تعتمد عليه المرأة في ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها والرضا بالاتصال برجل غريب عنها تساهمه السراء والضراء، فمن آيات الله تعالى في هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوي الغيرة عليها لأجل الاتصال بالغريب تكون زوجها له ويكون زوجها لها تسكن إليه ويسكن إليها ويكون بينهما من المودة والرحمة أقوى من كل ما يكون بين ذوي القربى، فكانه يقول: إن المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهي واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة، وهذا ميثاق فطري من أغلظ الموثيق وأشدّها وإحكاماً. وإنما يفقه هذا المعنى الإنسان الذي يحس إحساس الإنسانية، فليتأمل تلك

17 - تفسير القرآن الكريم، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، محمود شلتوت، 1421هـ، ص 174.

18 - المفردات القرآنية في موضوع الأسرة: دلالتها الفقهية وامتدادها الاجتماعي، رولا محمود الحيت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: الأسرة المسلمة في ظل التغيرات المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن - فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1436هـ - 2015، ص 28.

19 - الذخيرة، شهاب الدين القرافي، 341/4.

20 - تفسير المنار، رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م. 377/4.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الحالة التي ينشئها الله تعالى بين الرجل وامرأته يجد أن المرأة أضعف من الرجل وأنها تقبل عليه وتسلم نفسها إليه مع علمها بأنه قادر على هضم حقوقها فعلى أي شيء تعتمد في هذا الإقبال والتسليم؟ وما هو الضمان الذي تأخذه عليه والميثاق الذي توثقه به؟ ماذا يقع في نفس المرأة إذا قيل لها إنك ستكونين زوجا لفلان؟ إن أول شيء يخطر في بالها عند سماع مثل هذا القول أو التفكير فيه وإن لم تسأل عنه هو أنها ستكون عنده على حال أفضل من حالها عند أبيها وأمها وما ذلك إلا لشيء استقر في فطرتها وراء الشهوة ، ذلك الشيء هو عقل إلهي وشعور فطري أودع فيها ميلا إلى صلة مخصوصة لم تعهد لها من قبل ، وثقة مخصوصة لا تجدها في أحد من الأهل ، وحنوا مخصوصا لا تجد له موضعا إلا البعل ، فمجموع ذلك هو الميثاق الغليظ الذي أخذته من الرجل بمقتضى نظام الفطرة الذي يوثق به ما لا يوثق بالكلام الموثق بالعهود والإيمان ، وبه تعتقد المرأة أنها بالزواج قد أقبلت على سعادة ليس وراءها سعادة في هذه الحياة وإن لم تر من رضيت به زوجا ، ولم تسمع له من قبل كلاما ، فهذا ما علمنا الله تعالى إياه وذكرنا به- وهو مركز في أعماق نفوسنا بقوله إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقا غليظا ، فما هي قيمة من لا يفي بهذا الميثاق وما هي مكانته من الإنسانية ؟ اه بتصرف ما²¹.

5. حدود الله، ضمانات استقرار العمران الأسري؛

ويقصد بحدود الله تعالى تحقيق مقصد العدل في تسيير نظام الأسرة؛ لأن الأسرة بدون قانون العدل فهي معرضة لمفاسد لا يحمد عقباها، ومن ذلك أن يعدل الإنسان بين أبنائه في العطاء والمعاملة والعطف والرعاية، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ (النساء:11). لأن الأسرة ناظرة في تصرفات الراعي، فإن رآوا فيها العدل اطمأن الجميع، وإن رآوا فيها بعدا عن العدل أحدثوا حربا أسرية تفقد الأسرة دورها الإصلاحي؛ ولهذا قال تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف:9)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء:3).

6. القيم الأسرية؛

ونعني بذلك أن العمران الأسري يبني على منظومة قيمية معيارية، ذلك أن رفع مستوى الأسرة أخلاقيا دعامة أساسية تنطق بها روح الشريعة، على مستوى النشاطات السلوكية بين الأفراد والجماعات، وتقوم على مبادئ الإنسان المكرم والخليفة في الأرض، المجبول على العطاء تقريبا إلى الله وليس استكراها، وهي سمة تتجسد في كل أشكال العلاقات الأسرية الزوجية والوالدية والأخوية.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

اعتماد المعايير الأخلاقية والعقدية في بناء الأسرة منذ بداية تكوينها، ولهذا كانت رسالة الإيمان مؤثرة في الحياة الأسرية، ولقيمتها نبه الحق عليها، قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ (البقرة: 221). وقال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: 221).

ولا يتحقق الارتقاء في مدارج القيم والأخلاق الإنسانية العالية دون التخلق بأخلاق الرحمة التي تتعمق في التعامل الأسري، ثم تعم بعد ذلك في التعامل الإنساني، ومن ثم؛ فإن الرحمة هي أساس المقاصد الحاكم للعلاقات الأسرية، ويتجلى التراحم في جميع العلائق الأسرية على امتدادها؛ إذ إن امتداد الرحم يستلزم مدده بالرحمة. وهذا الامتداد الرّحيمي والمدد المرّححي يؤول إلى امتداد لهذا المقصد خارج دوائر الأسرة إلى المجتمع، فيغدو الاجتماع الإنساني مرحومًا، ويتأكد أن الأصل في العلاقات الإنسانية الرحمة، ولا يتحقق هذا الأمر دون تأسيسه وتمثله في العلاقة الأسرية الخاصة والممتدة، فهي الأصل، ومنها البدء²².

7. قيام العلاقات في العمران الأسري على أساس المودة والرحمة والتعاون؛

إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية المؤهلة لعمران الأرض، فإذا كانت الخلافة نيظت بالإنسان، فإن من شروط الاستخلاف أن تتم تنشئة الإنسان في ظروف اجتماعية وإنسانية؛ ومن ثم؛ كانت الأسرة هي الحصن الحامي للاستخلاف والضامن للعمران، وذلك بترسيخ التأنس والمودة والرحمة والتعاون، وبالرجوع للقرآن الكريم نجده ربط بين إهلاك الحرث والنسل ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205]، فيفساد النسل يستلزم بالضرورة فساد الحرث، ولا يستقيم الاجتماع الإنساني على الأرض دون سلامة الشرط البيئي "الحرث" والإنساني "النسل"، إذ تلوث العلاقات الأسرية مؤداه الفساد في الأرض، وأي ضرر ألحق بالنسل سيعود لا محالة على العمران، وكما يقول الفاروقي: "إن من المقطوع به أن قدر الحضارة والأسرة هو أن تنهضا معا أو تسقطا معا"²³.

يقول الإمام القرافي رحمه الله: "النكاح مقصده المودة والاتلاف واستبقاء النوع الإنساني في الوجود للعبادة لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، [الروم: 21] فصرح بحكم الزوجية"²⁴.

ويقول الإمام الطاهر بن عاشور: "انتظام أمر العائلات في الأمة أساس حضارتها وانتظام جامعها. فلذلك كان الاعتناء بضبط نظام العائلة من مقصد الشرائع البشرية كلها. وكان ذلك من أول ما عني به الإنسان المدني في إقامة أصول مدنيته بإلهام إلهي"²⁵.

²² - انظر: مقاصد الاجتماع الأسري، جميلة تلوت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: مقاصد الأسرة في القرآن: من الإنسان إلى العمران،

2017، مؤسسة الفرقان بالتراث الإسلامي، لندن، ص 69-92.

²³ - التوحيد، إسماعيل راجي الفاروقي، مدارات للأبحاث والنشر، يناير 1970م. ص 222.

²⁴ - الذخيرة، شهاب الدين القرني، 30/7.

8. العمران الأسري مسؤولية تقوم على الرسالية وتكامل الأدوار بين مكوناتها

العمران الأسري مسؤولية تنطلق من كون الرجل والمرأة متكاملان في الأدوار الرسالية، لا تكتمل الحياة إلا بشقيهما، ولا تنتظم إلا اعتماداً على سننية الحق والواجب في العلاقات الوظيفية بين الأفراد والجماعات، والتي اهتم الشرع بتفصيلها ولم يترك دائرتها للاجتهاد والأهواء الخاصة، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِمْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، [البقرة: 228] وتستمد هذه الحقوق والواجبات إلزاميتها من القيم الروحية التي تربط العبد بربه.

- الوفاء بحقوق الأبناء والأهل باعتبارها من ضمن المسؤوليات الربانية التي لا ينبغي للإنسان أن ينسحب عنها؛ لأنها بمثابة اختبار أسري، يظهر فيه مدى نجاح الإنسان في إتقان عمله، والوفاء بها دال على إخلاص الإنسان في العبادة، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾ [البقرة: 233].

- اعتبار القوامة تكليفا وليس تشريفا في حق الرجل، يقتضي أن يكون الزوج حريصا على خدمة أهله وأسرته، فالقوامة هنا قوامة أخلاق ومعاشرة بالمعروف، وضمان لاستقرار الأسرة حتى لا تتعرض للتشرد قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوُّمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34].

- تصرفات الزوج في مجال الأسرة لا ينبغي أن تعود عليها بالإهمال والضياع والظلم، وهذا يستدعي أن لا يزري الإنسان بحق الزوجة أو يسقطه مهما كانت الأسباب، ومن ذلك أداء الصداق للزوجة قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 20-21].

المحور الثاني: مقومات بناء العمران الاجتماعي في القرآن الكريم

- المقوم الأول: الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية هي الأساس الأول والأعظم في بناء المجتمع الإسلامي ونظامه، إذ توجه أفكار الإنسان وسلوكه وسائر تصرفاته، ولا يمكنه التخلي عنها في أي شأن من شئونه، وفي ضوءها يعمل الأفراد كأعضاء في المجتمع كما يعمل المجتمع كجماعة منظمة في ضوءها؛ "لأن الشارع الحكيم يريد إيقاظنا إلى أن طبيعة الإيمان الهيمنة على النفس والمجتمع والدولة، أي توجيه الحياة الخاصة والعامة على سواء، وتيسيرها باسم الله وفق مراده، بحيث يكون أمر الله ملحوظًا ومطبقًا في البيت والشارع، بين الإنسان ونفسه، وبين الناس أجمعين، فلا تفلت وجهة للمسلم من قصد الله وإعلاء كلمته، ولا يفلت ميدان للحياة من الانصبغ بصبغة الدين والاتساق مع مبادئه وأهدافه"²⁶.

والمجتمع الإسلامي يبني على أساس شريعة إلهية، ينمو في ظلها ويتحرك، ويحدد علاقاته وسائر مقوماته وتنظيماته بهديها ووفق رؤيتها.

إن التنظيم الإسلام للحياة الاجتماعية في جوانبها المختلفة، كانت نتيجة للوحي القرآني، ولوقائع السيرة النبوية، أكثر مما كانت ثمرة للاجتهاد النظري الفقهي، الذي اتسعت آفاقه على تعاقب الأيام، بل إن نظريات الفقهاء والأئمة في الأحوال الشخصية والنظم العائلية، والحقوق الدولية، والتنظيمات السياسية العسكرية، والتفريعات المالية والاقتصادية، ليست إلا امتدادًا لبعض الوقائع الجزئية التي حدثت على عهد الرسول ص، وكان له فيها قول أو تنبيه أو إرشاد أو تقرير²⁷.

من ثمار جعل عقيدة الوحدة الإسلامية أساس نظام المجتمع أنها تكفل لنا قيمة الأخوة في الإيمان (المؤمنون إخوة)؛ إذ يعتبر الإسلام المؤمنين به إخوة في الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. وكما جاء في الحديث: «المؤمن أخو المؤمن»، ورابطة الإيمان أعظم الروابط بين المسلمين، ولا يعوق هذه الرابطة جنس أو لون أو لغة، أو إقليم، فيكون ذلك قوة للمجتمع الإسلامي، واتساعا لرقعته، وعزة لأفراده، وذلة لأعدائه، ومنعا لهم من الاعتداء عليه.

والمسلم قد يشترك مع أخيه المسلم بروابط أخرى، مثل رابطة النسب أو الإقليم، وهذه الروابط لا ينكرها ولا يرفضها الإسلام، بشرط ألا تحمل شيئًا من الباطل، وألا تعلق على رابطة الإيمان ومستلزماتها، وإذا كان

²⁶ - هذا ديننا، الشيخ محمد الغزالي.

²⁷ - الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع، منصور ذويد المطري، كتاب مجلة الأمة، يناير 1993م. ص 59 - 60.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

الأساس الأول في المجتمع الإسلامي هو الدين وقيمه فإن ذلك لا يتعارض مع الاستفادة من عوامل التوحيد القومي أو الوطني، دون أن تكون هذه العوامل مماثلة للدين أو يسعى إلى جعلها بديلاً عنه²⁸.

هل يعني ذلك اضطهاد غير المسلمين في بلادنا؟

إن رابطة الإيمان لا تنتج ما سبق، فإن الإسلام يقبل في عضوية المجتمع الإسلامي غير المسلم ما سالم المسلمين، ويأمر بحمايته وبره، فإذا فات غير المسلم رابطة الإيمان وأخوة الدين فلن تفوته عدالة الإسلام وحماية المسلمين²⁹، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَهَآكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»³⁰.

- المقوم الثاني: الاستخلاف في الأرض وتجسيد التكريم الإنساني

إن لمفهوم الاستخلاف الكوني للإنسان في المنظومة الفكرية الإسلامية دور حيوي في استنهاض المشروع العمراني الإسلامي والعالمي، فقد أعطى القرآن الكريم للإنسان دوراً هاماً في تسخير ما في السماوات والأرض، وبحث وتأمل آيات الأفاق الكونية والأنفس البشرية تمهيداً لتحقيق عمران إنساني إسلامي عالمي ينشر الرحمة والأمن للعالمين.

والقرآن الكريم ما فتى يؤكد أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وتجلى ذلك في حوار ماتع وبديع، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

بل صرح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، وذلك في قول الباري جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70].

إن هذا الإنسان المكرم المفضل هو المقصود غايةً وهدفاً في ابتعاث الرسل، واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصُّحف، وإن الله سبحانه وتعالى عندما جعل آدم خليفة له في الأرض، اقتضت حكمته ومشيتته ورحمته بالإنسان ألا يخلفه عبثاً، وألا يتركه سدىً، وإتماً تكفل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل، وطمانته منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان، ولن يتركه نهياً

²⁸ - أصول المجتمع الإسلامي، جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامي، جمال محمود، 1992م. ص 5.

²⁹ - انظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط 8، 1998م، ص 16. وتنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ص 52.

³⁰ - الجامع الصغير، في شرح أحاديث البشير النذير، جلال الدين السيوطي، الحديث رقم: 8270/2. 547.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياح، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم³¹، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 123. 124].

- المقوم الثالث: العدل

أمر الله بإقامة العدل وحثَّ عليه، ومدح من قام به، وذلك في آيات كثيرة منها:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

يقول الإمام السعدي في تفسير هذه الآية: "فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقِّه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة؛ بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقِّه وحقِّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كلِّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقًّا، ولا تغشهم ولا تخذعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب"³².

وقال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]

يقول ابن كثير رحمه الله: "يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه"³³.

31 - مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، مقال منشور في مدونات الجزيرة، تاريخ الزيارة: 4 أبريل 2022م، بتصرف.

32 - تفسير الكريم الرحمن، الإمام السعدي، ص 447.

33 - تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير، 433/2.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

العدل قيمة تمثل دما يسري في عروق الأحكام الكونية والشرعية، تمدها بطاقة الاستقرار وروح الاستمرار، إذ أحكام الله دائرة حول صفتي الصدق والعدل، يقول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]

إن تحري المسلم العدل في الأحكام عند الاتصاف بها وتحقيقها في حياته الاجتماعي والتحقق بها تورثه صفة العدالة التي هي فضيلة للنفس و"هيئة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أولا، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله"³⁴. ناهيك عن العائد الإيجابي والخيري على العمران الاجتماعي عموما وعلى الصادر منه خصوصا "والعادل مع الناس إذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره"³⁵.

وقد قيل: "أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة ثم العدل ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل... ولذلك عظم الله تعالى المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملة فقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 23]"³⁶، وآية ذلك أن المحبة تؤلف بين القلوب وتحقق التواصل بين الأفراد والتعاون في الأعمال وتسهم في تعمير الكون من قبل بني الإنسان ليتأكد باجتماعهم الأنس وليقع بسبب ذلك الود. فأى دور تؤديه الصداقة في مجابهة الظلم وفرض العدل؟

- المقوم الرابع: الحرية

لقد جعل الإسلام "الحرية" حقاً من الحقوق الطبيعية للإنسان، فلا قيمة لحياة الإنسان بدون الحرية، وحين يفقد المرء حريته، يموت داخلياً، وإن كان في الظاهر يعيش ويأكل ويشرب، ويعمل ويسعى في الأرض. ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لشأن "الحرية" أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر، الذي لا ينتظر الإيمان بوجوده بتأثير قوى خارجية، كالخوارق والمعجزات ونحوها قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]"³⁷.

فنفي الإكراه في الدين، الذي هو أعز شيء يملكه الإنسان، للدلالة على نفيه فيما سواه وأن الإنسان مستقل فيما يملكه ويقدر عليه لا يفرض عليه أحد سيطرته، بل يأتي هذه الأمور، راضياً غير مجبر، مختاراً غير مكره.

³⁴ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: 421هـ)، تحقيق قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1996م. ص 18.

³⁵ - الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق: أبو اليزيد العجفي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2007، ص 307 - 308.

³⁶ - نفسه، ص 257.

³⁷ - مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية، علي بن نايف الشحود، طبعة المؤلف، (نسخة الشاملة، موافقة للمطبوع)، الطبعة الأولى، 1432 هـ - 2011 م. ص 7.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والحرية حق مكفول لجميع الناس، فالله- تبارك وتعالى- خلق الإنسان ومنحه حرية اختيار العقيدة والدين وحرية التعبير عن الرأي وحرية التصرف، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [سورة الكهف: 29].

وقال مخاطباً نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: 99]. نفسه ص 8.

يقصد بالحرية قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية وهي ملكة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل ويصدر بها أفعاله، بعيداً عن سيطرة الآخرين لأنه ليس مملوكاً لأحد -غير الله- لا في نفسه ولا في بلده ولا في قومه ولا في أمته.

ونقل الإمام الرازي عن الإمام القفال: "معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار"³⁸.

ونحوه ما فسر به جار الله الزمخشري قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ "أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار"³⁹.

ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]⁴⁰.

- المقوم الخامس: التسامح

لقد أشار القرآن الكريم إشارات واضحة إلى التسامح، من خلال آيات كثيرة طرحها، وأمر الناس أن يتمسكوا بها.

القرآن الكريم وإن لم يكن قد ذكر عبارة (التسامح) نصاً، إلا أن هناك آيات كثيرة أشارت بالمضمون إلى ذلك مثل: الصفح، العفو، التجاوز، والهجر الجميل... الخ، فإن كل هذه المعاني وسواها، تدل دلالة واضحة على التسامح، والسير على مبدأ العفو والصفح، والترغيب والمحبة والتآخي، وعدم إشاعة النعرات الجاهلية التي دائماً ما تفضي إلى الاقتتال والحروب، وزرع الفتنة وإشاعة ثقافة الموت في المجتمع.

³⁸ - مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 15/7.

³⁹ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 هـ 303/1.

⁴⁰ - تفسير المنار، رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب. ط. 1990 م. 211/11.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

والقرآن الكريم أراد أن يربي الإنسان تربية أخلاقية صحيحة؛ لذلك نجده قد نهى عن الغضب والتكبر والغرور وتصعر الخد، والسير على الأرض بمرح؛ لأن ذلك لا يليق بالإنسان، وإن مبادئ الإسلام لا تحبذ ذلك، ومتى ما التزم الإنسان بهذه المبادئ والقيم النبيلة فسوف يصير إنساناً سويًا، محبوب بين الناس ويودون معاشرته ومصاحبته في السفر والحضر.

والمجتمعات كما هو معلوم تتسم بالتعددية الدينية والمذهبية، والفكرية، والقومية، وهذا الاختلاف والتفاوت بين الناس أكد عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118-119].

- المقوم السادس: القيم الأخلاقية الاجتماعية

إن المتأمل في أمر صعود نجم العمران البشري وأفوله يرى أنه ما قام عمران إلا على خلق حسن، وبمقدار ما في هذا العمران من قيم وخلق حسن، يكون استمرار بناء هذا العمران ودوامه، ومحال أن يقوم عمران بدون قيم وأخلاق، إذ الأخلاق هوي الصمام الحافظ لأي عمران من الانهيار والاندثار، وإنما يظل العمران قائم بمقدار ما بقي فيه من قيم وأخلاق حسنة، فإذا ما فسدت هذه القيم والأخلاق انهار البناء العمراني وتهدم.

لأن من أهم مقومات البناء العمراني: التمسك بالقيم والأخلاق الفاضلة، سواء على المستوى الفردي أو الأسري أو الاجتماعي أو الوطني أو الإنساني، فهو ركيزة أساسية في تهذيب السلوك الإنساني وتنظيم العلاقات على أسس قويمية من السمو الروحي والمعاملة الجميلة، وعنصر فعال في شيوع المحبة والألفة والتماسك والترابط في المجتمع، أفراداً وأسرّاً وشعباً وقيادة، ومنبع رئيس للتعایش السلمي البناء مع الأمم الأخرى⁴¹.

إن الحديث عن القيم أو الأخلاق يفرض لزوماً وجود مرجعية ثابتة متماسكة متسامية على الواقع وعلى تسارع الأحداث، غير خاضعة للأمزجة والاعتبارات، وغير متلوّنة بالعنصريات وروح الجماعات.

وفي هذا الإطار يقول أستاذنا الدكتور الشهيد البوشيخي حفظه الله تعالى: " إن هذا الدين الذي أكرمنا الله عز وجل به، هو منهاج للفكر والتفكير، ومنهاج للتعبير وللتدبير والتسيير... فهو منهاج لتدبير شؤون الحياة الفردية والأسرية والعامة. وليس المراد منه أن يكون مجموعة أفكار توضع في خزانة العقل، أي في جانب من الدماغ لننفق منها في ظروف أو أوقات معينة، وإنما هو توجيهات ربانية، ورحمة متنزلة من الله عز وجل في

41 - أثر القيم الأخلاقية في النهوض الحضاري، أحمد محمد الشحي، مقال منشور في موقع: <https://www.albayan.ae> تاريخ الزيارة: 7 أبريل

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

كتابه لتحلّ فينا قلباً وقالباً، لتحلّ فينا في الجانب النظري أولاً: في الفكر وفي العقل وفي القلب، ثم لتتحول إلى سلوك أو إلى لباس كما في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:26]⁴².

وإذا كانت طبيعة الدين أعمالاً تطبيقية تتجلى في سلوك وعمل، فإن أكمل المومنين إيماناً، أحسنهم خلقاً، وهذا يعني أن الذي لبس الدين، لابسه الدين وخالطه فصار لباساً له فأصبح أحسن الناس، بل أكمل المؤمنين على الإطلاق.

إن الإنسان في نظرة الدين عبارة عن مجموعة من الأعمال؛ -حيّاً كان أو ميتاً- لأن العمل أساس الرابطة الإيمانية، وبناء كل شيء يتم عليه. إذن، الدين يتجه إلى الجانب التطبيقي بالدرجة الأولى، وهذا ما يراد من الإنسان؛ حيث لن يبقى بعد الموت إلا العمل. وعندما يوضع الإنسان في القبر، يرجع اثنان ويبقى واحد. يرجع ماله وأهله ويبقى عمله، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7]. وإن صغر هذا العمل، بل نية كان أو تفكيراً أو همماً بالشيء... فكل ذلك له عند الله أجر⁴³.

وقد ذكر أستاذنا الشاهد البوشيخي أن مقوم مكارم الأخلاق مركزي في بناء العمران الاجتماعي، وأنه يقوم على جوانب ثلاثة تتجلى في: "جانب التفكير، وجانب التعبير، وجانب التدبير"⁴⁴.

42 - الإنسان خُلِقَ وعمل، الشاهد البوشيخي، مقال منشور في جريدة المحجة العدد: 185، ص 9.

43 - الإنسان خُلِقَ وعمل، الشاهد البوشيخي، مرجع سابق.

44 - نفسه.

خاتمة

إن حصر مقومات بناء العمران الأسري والاجتماعي في القرآن الكريم أمر من الصعوبة بمكان في هذه الدراسة الموجزة، لكن حسبنا أننا سعيينا إلى الوقوف على أبرز هذه المقومات حسب ما سمحت به طبيعة الدراسة، انطلاقاً من الغايات الكبرى التي ينشدها الاجتماع الإنساني، وربطها بمقتضيات الإنسان وأحوال العمران، ومراعاة السياق العالمي المعاصر ومآلاته على السياق العام والخاص.

وقد جاء الحديث عن مقومات بناء العمران، في هذا البحث يسعى إلى الارتقاء نحو التعالي الذي يضع الثوابت، ويحدد المقاصد، وينظر للعصر المتغير، وينشد تحقيق هذه المقاصد وتنزيلها في هذا الواقع المتقلب، ذلك أن الحبل الذي يشد الإنسان في ظل طوفان الشهوات وأمواج الفساد، هو الأنوار الإلهية والمحمدية التي تعصم السائرين إلى الله في طريق هذا الطريق المحموم بالمخاطر والمهلكات.

في خضم هذه الأمواج المتلاطمة والظلمة الحالكة نجد من بني الإنسان من يدعو إلى قضية مراجعة للمقاصد القرآنية وتجديد الفقه، بدعوى أنها لا تسير ركب الحضارات ولا تساهم في بناء العمران البشري، جاهلين أن القرآن الكريم مصدر وأساس بناء كل عمران، سواء في الحياة العامة بوصفها فاعلاً أساسياً في عمليات التربية والتنشئة المختلفة، بحيث تعمل مقاصده ومبادئه على غرس ورعاية الضمير والروح الديني في نفوس من حولها من أبناء وإخوة وزوج، أو دورها في إنتاج وتجديد الثقافة بوصفها الأكثر إدراكاً وإحساساً بالغبن من اختزال وجودها الإنساني المتعدد الجوانب في الجسد. ومن ثم ينشأ وعي اجتماعي عام ثري في ذاته، لديه قابليات النظر الكلي العميق النافذ إلى روح الدين غير الواقف لدى جزئياته يحركها ويعيد ترتيبها حسبما يقتضي هواه وحسبما تقتضي الأعراف والثقافة السائدة.

إن واقع الإنسانية اليوم يشهد تحديات جديدة، ورهانات لا سابق لها، وهذا يستلزم فيما يستلزم أن نعي اختلاف الأسئلة، وتغير السياقات وتركيبها، والجمع بين كل المنظورات التي تعالج الظاهرة، والحرص على إعمال مقاصد وأسس القرآن الكريم الكلية وإبصار روح العصر بفهم قرآني كلي، إيماناً بدور الدين في تدبير شؤون الاجتماع، خصوصاً في هذه المرحلة الانعطافية الحرجة التي تعيشها البشرية، وكما يقول مصطفى المرابط: "إن تاريخ هذه الحضارة يعلمنا أن عند كل أزمة انعطافية يتعرض فيها ثابت من الثوابت للخطر إلا وتعمل هذه المنظومة على إيجاد منفذ أو إطار يستوعب ويمتص التحولات الحاصلة، فيضحي بالعارض من أجل إنقاذ الثابت، ويلتف على الخطاب المنطوق، وهو الوعاء الذي تتمظهر فيه تلك التحولات، ليحتفي بخطاب غير منطوق أو مسكوت عنه"⁴⁵.

⁴⁵ - صناعة الأنوثة في الحدائث الغربية، مصطفى المرابط، مجلة موازين، الكتاب الحادي عشر. ص 26.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

ولا سبيل إلى الخلاص من هذا الانحدار العمراني إلا بتحقيق شرط الاتباع، أي اتباع هدى القرآن الكريم، فهو شرط في الاهتداء، يقول الله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} ومانع من الضلال والشقاء، يقول سبحانه: {فمن اتبع هدي فلا يضل ولا يشقى}، وهو شرط في الخروج من الظلمات إلى النور، {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم}. تحقق شرط الاتباع سيصح المنهج، فيصح الفهم، ويصح الفهم ليصلح العمل، ويصلح العمل ليحسن الحال. لا تقل ذهب أربابه، فكل من سار على الدرب وصل.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

قائمة المصادر والمراجع:

- أثر القيم الأخلاقية في النهوض الحضاري، أحمد محمد الشحي، مقال منشور في موقع : <https://www.albayan.ae> تاريخ الزيارة: 7 أبريل 2022م.
- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، اعتنى به وخرج أحاديثه، محمد أبو الخير السيد؛ محمد الشرفاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2004.
- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط 8، 1998م، ص 16. وتنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- أصول المجتمع الإسلامي، جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامي، جمال محمود، 1992م.
- الإدارة الشرعية لمؤسسة الأسرة في القرآن الكريم، نبيل طنطاني، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، جمادى الآخرة 1439 هـ، فبراير - مارس 2018م، ع: 6، السنة: 42.
- الأسرة في مقاصد الشريعة، قراءة في قضايا الزواج والطلاق في أمريكا، زينب طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1434هـ/ 2013م.
- الإنسان خُلِقَ وعمل، الشاهد البوشيخي، مقال منشور في جريدة المحجة العدد: 185.
- التوحيد، إسماعيل راجي الفاروقي، مدارات للأبحاث والنشر، يناير 1970م.
- الجامع الصغير، في شرح أحاديث البشير النذير، جلال الدين السيوطي.
- الذخيرة، شهاب الدين القرافي (المتوفى: 684هـ)، مجموعة من المحققين، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2007م.
- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع، منصور ذويد المطري، كتاب مجلة الأمة، يناير 1993م.
- الفضاء المعنوي للزوجية في البيان القرآني: "العلاقة بين الزوجين" بين المنظور القرآني والقراءة الفقهية، هند مصطفى، دورية المرأة والحضارة، العدد 3: المرأة والقرآن، شعبان 1423هـ - أكتوبر 2002م.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 هـ.

- المرأة والعمل السياسي، عزت، هبة رؤوف، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (18)، ط 1، 1995م.

- المفردات القرآنية في موضوع الأسرة دلالاتها الفقهية وامتدادها الاجتماعي، رولا محمود الحيت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: الأسرة المسلمة في ظل المتغيرات المعاصرة، تحرير رائد جميل عكاشة، ومنذر عرفات زيتون، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ودار الفتح للدراسات والنشر، ط 1، 2015م.

- المفردات القرآنية في موضوع الأسرة: دلالاتها الفقهية وامتدادها الاجتماعي، رولا محمود الحيت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: الأسرة المسلمة في ظل التغيرات المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن - فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1436 هـ - 2015م.

- المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الدار الذهبية، القاهرة، د.ت.ط.

- النظام الاجتماعي في الإسلام، عبد الرافع عبد الحلیم السيد الفقي، 1999م.

- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420 هـ - 1999م.

- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، 1421 هـ.

- تفسير المنار، رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب. ط. 1990م. 211/11.

- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: 421هـ)، تحقيق قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1996م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام السعدي، (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420 هـ - 2000م.

- صناعة الأنوثة في الحداثة الغربية، مصطفى المرابط، مجلة موازين، الكتاب الحادي عشر.

9 - 10 فبراير - شباط 2022 | إسطنبول - جمهورية تركيا

- فقه الأسرة المسلمة في الخطاب القرآني والهدي النبوي، دراسة تأصيلية مقاصدية، مليكة نايت لشقر، منشورات مركز الدراسات الأسرية والبحث في القيم والقانون.
- مظاهرُ تكريم الإنسان في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، مقال منشور في مدونات الجزيرة، تاريخ الزيارة: 4 أبريل 2022م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ.
- مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية، علي بن نايف الشحود، طبعة المؤلف، (نسخة الشاملة، موافقة للمطبوع)، الطبعة الأولى، 1432 هـ - 2011م.
- مقاصد الاجتماع الأسري، جميلة تلوت، بحث منشور ضمن الكتاب الجماعي: مقاصد الأسرة في القرآن: من الإنسان إلى العمران، مؤسسة الفرقان بالتراث الإسلامي، لندن، 2017م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، طبعة 2011م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، المحقق: محمد الحبيب بن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425 هـ - 2004م.
- مقصد الأسرة في القرآن: من الإنسان إلى العمران، جميلة تلوت، بحث ضمن الكتاب الجماعي: مقاصد القرآن الكريم (3): مجموعة بحوث، مؤسسة الفرقان بالتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، لندن، 2018.
- هذا ديننا، الشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، 2009م.

International Conference Book

Construction and the Quran:

A study of Basics of Construction and Destruction Factors



9-10 February, 2022

Istanbul, Turkey

Edited By:

Dr. Mostafa Ahmed Lahkim

Dr. Khaled Salah Hanafy Mahmoud

Published By:

The International Foundation of Beacons of Intellect



مؤسسة منارات الفكر الدولية

The International Foundation
of Beacons of Intellect

ISBN: 978-1-9163760-8-3

Printed in U.K
Copyright©2022